ماذا أنتظر... ؟!

الدكتور
صالح الفهري

الحقوق محفوظة للمؤلف

مؤسسة الرؤيا للصحافة والنشر
مسقط - سلطنة عمان

الطبعة الأولى
١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

تقريظ الكتاب

كتاب «ماذا أنتظر؟» إصدارٌ قيّم، وخاصّة إلى شبابنا الذي ينعقد عليه العزم، وتُركنُ إليهم الآمال والمستقبل القريب، كما يدعوهم الكتاب إلى عدم التخاذل والتكاسل عن العمل والرغبة الجادة في تحقيق الأهداف والطموح، وهي معانٍ ساميةٍ تحقق تطلّعات الأمم والشعوب»

صاحب السمو السيد/ هيثم بن طارق آل سعيد
وزير التراث والثقافة

«ماذا أنتظر» يطرحُ عدداً من القصص المُلهمة، التي تهدف إلى تحفيز القرّاء على الكفاح والمبادرة، وتعزيز ثقافة الإقدام على العمل والبحث الجاد عن الفرص السانحة، من بينها قصّة تتناول جانباً مَن حياتي.

معالي الدكتور/ علي بن إبراهيم النعيمي
وزير البترول والثروة المعدنية السعودي

كتاب «ماذا أنتظر» حلّ مني محل القبول والاستحسان، سائلاً المولى -عزّ وجل- أن يجعل هذا العمل إضافةً مهمّة للمكتبة العمانية، وأن يكتب التوفيق والسداد لمثل هذا الجهد المخلص، إنه سميع مجيب الدعاء.

معالي الشيخ/ نصر بن حمود الكندي
أمين عام شؤون البلاط السلطاني

وجدته محيطاً بكل جوانب موضوعه، مليئاً بالمعلومات المهمة المفيدة للقاريء مما يجعله مرجعاً للباحثين»

معالي الدكتورة/ مديحة بنت أحمد الشيبانية
وزيرة التربية والتعليم

تمهيد

ماذا أنتظر؟!

أأنتظرُ الفرص السوانحَ حتى تهب عليَّ مع الريح فأستثمرها؟!

أأنتظرُ طارقاً يطرقُ عليّ باب بيتي ليأتيني بثروةٍ لم أحلم بها؟!

أأنتظرُ من يدلَّني على الطريق الذي أحقّقُ فيه طموحي، وأنجزُ فيه أهدافي؟!

أم أنتظر حادثاً فتبدرُ مني ردّة فعلٍ إزاءه؟!

ماذا أنتظر؟!

الوقت يمضي سريعاً، والعمرُ ينقصُ معه..

وأنا لا أتحرّكُ وكأنني المشلولُ فكراً وجوارحاً..

تتخايلُ أمامي أطيافُ الأحلام التي أبدو فيها وقد بلغتُ ما آملُه من سعادة..

فماذا أنتظر؟!

عزيزي القارئُ المبادر..

أردتُ لهذه التساؤلات أن تستثيرَ نفسك، وتجيِّش عزائمك، وتحفّز قِواكَ -قبل قراءتك لهذا الكتاب- حتى لا ترضى بالخمول جليساً، ولا بالكسلِ أنيساً.

خواطرٌ صادقةٌ عميقةُ الأثر حول المبادرة، والتي هي -في نظري- السرُّ الأثمنُ ولولا المبادرين في هذه الحياة، لم تتقدم أساليب العيش، ولم ترتقِ أنماطُ السلوك، وظلَّ الإنسانُ يعيشُ في الكهوف! وخَلَت الحياة من كلِّ طعم.

المبادرون هم الذين دفعوا البشريّة نحو التقدم، والأوطان نحو النماء والإزدهار، والمجتمعات نحو مزيدٍ من التفاعل والإبداع والإبتكار، وهم الذين وصلوا إلى منابع السعادة.. فكن أحدهم.. كن مبادراً.

د. صالح الفهدي

المحتويات

تمهيد ٥
المقدّمة ١١
برمجة العقل الباطن ١٩
المبادرة أصلُ الإسلام ٢٥
المبادرون ٢٩
المبادرة روح المسؤولية ٣٧
التركيز على عيوب الآخرين عثرة أمام المبادرة ٤٣
لاتكن سلبياً ٥٧
لا تحمل فوق رأسك جبال التوافه ٦١
بياض واسع مقابل نقطة سوداء ٦٥
وقتك مصدر ثروة ٧٣
خطوات صغيرة لأهداف كبيرة ٧٧
اطرح قناعك البالي بعيداً ٨١
التسامح.. تقدم.. ..... ٨٥
نقطة تحول ٩١
مراجعات ٩٧
النظرةُ نحو المستقبل ١٠٣
تغيير القناعات ١٠٩
بالأفعال تتحقق الإنجازات ١١٣

على كف القدر ١٢١
ما لا يَعني..... ١٢٧
تحديد الأهداف ١٣١
شبح الخوف السلبي..... ١٣٧
التخطيط طريقك للغايات..... ١٤٥
التسامح خلق المبادر..... ١٤٩
فشل النجاح ١٥٣
الرضا الذاتي معضلة المبادر ١٥٧
صناعة الفرص..... ١٦٥
بين الطبّع والتّطبيع ١٧٥
بيدك الحل لا بيد غيرك ١٨١
خداع الذات ١٨٥
المبادر صاحب همّة ١٨٩
بين الحُوَّمِ والنُّومْ معنى حياة ١٩٣
الصمت قرين العمل ١٩٩
إسعاد الآخرين ٢٠٣
مساعدة الآخرين على التغيير ٢٠٩
قواعد جوهرية للمبادر استخلاصاً مما احتواه الكتاب ٢١٣
قصص المبادرين..... ٢٤١

المقدّمة

«المبادرة هي فعل الأشياءِ الصحيحةِ دون طلب»

Elbert Hubbard

من أكبر المشكلات التي تعانيها مجتمعاتنا عدم المبادرة أو ضعفها في كثير من المجالات، حتى أمست معضلةً متجذّرة في الذات الإنسانية تعيقها عن تحقيق الطموحات التي تتطلع إليها بفعل الشحنات السلبية التي تملأها.

هذه ليست ثقافتنا في الأصلِ كشعوبٍ استمدّت من الإسلامِ جذوةَ هممها، ويقين إيمانها، وأسس منطلقاتها، وخالص دروسها، ليست ثقافتنا بالتأكيد.

إن رسولَ الأمة الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام جعل من المبادرة مطيّته بدءً من نزوحه التعبدي التأمّلي في غار حراء قبل النبوّةِ إلى هجرته الكريمة نحو بناء الدولة الإسلامية في المدينة المنوّرة.

الإسلام في حدّ ذاته مبادرةٌ عظمى مبنيّةٌ على مبادرات أشبه بالطوب المرصوف على بعضها حتى امتدَّ الإسلام في أصقاعِ الأرض ينشرُ السلام والعدل ويقيم الحق في البلدان المقهورة بحكمِ الإستبداد ويعلي قيمة الكرامة في الأوطان الراسفة تحت أغلال القهرِ والطغيان.

المبادرة في اللغة: المسارعة إلى الشيء المبادرة إليه[1]، وهذا هو ما يرتكز عليه ديننا القويم في كلام الله المقدّس بقرآنه المنزل منها ثناءه على المؤمنين المسارعين للخيرات ﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾[2]، وفي المقابل يصوّر الخسران لمن

(١) لسان العرب: ٨/ ١٥١.

(٢) سورة المؤمنون: الآية ٦١

تفوته الفرص في الحياة الدنيا، يقول تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾[١].

الدين الذي يحث رسوله الأعظم عليه أفضل الصلاة والتسليم أمته على المبادرة بقوله: «بادروا بالأعمال»[٢].

ويشجّع أتباعه على عدم التردد في الإقدام على المبادرة منها ما جاء في خبر مشورة الحباب بن المنذر -رضي الله عنه- في غزوة بدر، ومما جاء في ذلك الخبر أن الله -عز وجل- بعث السماء، فأصاب رسولَ الله «والمسلمين ماءٌ لبَّدَ لهم الأرض، وأصاب قريشاً ماءٌ لم يقدروا أن يرتحلوا معه، ثم رحل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بالمسلمين، وقال لهم: «سيروا على بركة الله، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، فكأني أنظر إلى مصارع القوم».

ثم مضى يبادر قريشاً إلى الماء حتى إذا جاء أدنى من ماء بدر نزل به، فجاء الحباب بن المنذر بن الجموح أحد بني سلمة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أرأيت هذا المنزل أمنزلاً أنزله الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة».

قال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض حتى نأتي أقرب قليب القوم، ثم نُغَوِّر ما سواه من القُلُب، ثم نبني حوضاً، فنملأه، ثم نقاتل، فنشرب، ولا يشربون، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «قد أشرت بالرأي»، ثم أمر بإنفاذه، فلم يجئ نصفُ الليل حتى تحولوا كما رأى الحباب، وامتلكوا مواقع الماء[٣].

هذا الدين الحنيف الذي انتشرت دعوته بالمبادرة بدءاً من الطائف إلى رسل النبي

---

(١) سورة الكهف: الآية ١٠٤

(٢) أخرجه البخاري.

(٣) رواه ابن هشام٢/ ٣٦٦ عن أبي اسحاق، قال: تحدثت عن الرجال من بني سليمة أنهم ذكروا أن الحباب..

المختار لدى ملوك الأرض وحكّامها من مثل كسرى وقيصر والنجاشي والمقوقس وهرقل وغيرهم.

وفي إرثنا الثقافي تتجسّدُ المبادرة تاريخياً متمثلة في أسفار العمانيين برّاً وبحراً إلى أوطان مختلفة طلباً للتجارة والعلم ونشراً للدين والحق، فلم يعيِهم وصبٌ ولم يعقهم نصبٌ ولم تثنهم أخطار من أجل إحراز السبق لأجل نفع الأمم.

لكن ثقافة المبادرة غاضت في النفوس، وخبت جذوتها في كثيرٍ من القلوب، حتى إنّك لاتكاد تسمع من يُلقي عليك مبادراً التحية الكريمة «السلامُ عليكم» إلاّ إذا ألقيتها أنت عليه!

وإنَّكَ لترى الشَّاب العريض المنكبين، المفتول العضل وهو خائرُ الهمّةِ، ناعسُ العينينِ، سلبيُّ التفكيرِ، ساخطٌ على كلِّ مبادرٍ، يحلمُ ليلاً نهاراً بوظيفةٍ مرفّهةٍ وسيّارةٍ فخمةٍ وقصرٍ منيف، وهو جالسٌ على كرسيٍّ وثيرٍ يشغلُ حيّزاً من الفراغ دون فائدة.

ومن هنا، فقد خطر لي أن أفرد كتاباً خاصاً لما كتبتُ في قيمة المبادرة، إيماناً مني بأن المبادرة هي أساسُ النجاح، ودربُ السعادة الإنسانية في هذا الوجود.

إن المبادرين ليتميّزون بعظمة النفوس، وقوّة الدوافع الداخلية، والقدرة على التحكّم الذاتي، وذلك تأسيساً عملياً على منهج التغيير الرّباني ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1]، ولذلك فهم لا يلقون باللائمةِ على الآخرين ولا على الظروف، فما ذلك إلا طبعُ الخاملين، المتقاعسين.

إننا بحاجةٍ ملحَّة إلى تفعيل قيمة المبادرة في النفوس تفعيلاً حقيقاً يجعلها القيمة الأبرز في حياة الإنسان، أقول ذلك لطبيعة العصر التي تنزع بالإنسان إلى الميول الفردي، والسعي إلى تحقيق المصالح الشخصية، وتقديمها على مصالح المجتمع.

إن قيمة المبادرة هي ضمان الفكرة الإجتماعية، ولبّ التعاضد والتكافل والتعاون وهي عناصر لا غنى للمجتمع عنها.

---

(١) سورة الرعد: الآية ١١.

المبادر إنسانٌ رفيع الخلق، بعيد الرؤية، واسع النظرة، حكيم الرأي راقي النفس، قوي الشكيمة، به يُناط التغيير فهو يمتلك الإمكانات لإحداث ذلك يقول (ستيفن كوفي): «انني مقتنع شخصياً أن شخصاً واحداً يمكن أن يكون حافزا للتغيير، محوّلاً transformer» في أي موقف، في أية منظمة، مثل هذا الفرد هو الخميرة التي يمكن أن تنتج رغيفا كاملا».

ذلك يتطلب الرؤية والمبادرة، والصبر، والاحترام، والمثابرة والشجاعة والإيمان لتكون رائداً في طريق التحول والمبادرة هي لفظةٌ رائعة، بل خلق أروع ذلك لأنها تدلُّ على ما ينطوي في نفس المبادرة من علّوٍ همّةٍ، وشكيمةِ بأس، ونخوةِ نفس، لدى المبادر.

المبادر الذي يسارع قبل الآخرين في إحراز المجد، وتحقيق الإنجاز، والظفر بالنجاح، فالمسارعة إلى الخيرِ مبادرة قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾[1]، فالإسراع هو المبادرة[2]، لهذا تظهر المبادرة في القرآن الكريم في لفظة المسابقة ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾[3] أو المسارعة ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[4]، وفي الحديث الشريف تظهر لفظتها «بادروا بالأعمال».

المبادرة هي التي صنعت دولة الإسلام، وهي التي وسعت أطرافها، فلو لم يبادر النبي صلى الله عليه وسلم إلى الدعوة بصورةٍ تدريجية، ولو لم يبعث الرسل إلى الحكام كسرى وقيصر والمقوقس والنجاشي وغيرهم لما أسس دولة الإسلام، فقد تحمّل الأذى والنصب والعداوت ولكنه صمد هو وأصحابه والصمود لم يكن يعني الجمود بل كان منطلقاً للتقدم بثباتٍ وعزيمةٍ وإصرارٍ وتحدّي.

هل كان الإسلام سيبلغ ما بلغ من أقطار بعيدة عن الجزيرة العربية ومن شعوب

---

(١) سورة المؤمنون: الآية ٦١
(٢) لسان العرب: ٨/ ١٥١
(٣) سورة البقرة: الآية ١٤٨
(٤) سورة آل عمران: الآية ١٣٣

غير عربية لو لم تكن روح المبادرة هي التي قادت الأنفس لحمل مشاعل النور كي تضيء أرجاء المعمورة، إنّما حصل التراخي والفتور والخمول في المسلمين بسبب مُدخلات لا تحفّز العقل الباطن على العمل وكأنما هو قدرٌ مقدّرٌ على المسلم أن يحيا معيشةً ضنكا، أو أن يُذعن للفقر، أو أن يسترزقَ من نتاجِ أيادي الآخرين ثم يعودُ يدعو الله أن «يجمد الدماءَ في عروقهم».

وفي هذا الحال يقول عبدالرحمن الكواكبي: «ولبسطاء الإسلام مسليات أظنها خاصة بهم يعطفون مصائبهم عليها وهي نحو قولهم: الدنيا سجن المؤمن، المؤمن مصاب، إذا أحب الله عبداً ابتلاه، هذا شأنُ آخر الزمان، حسب المرء لقيمات يقمن صلبه، ويتناسون حديث: «إن الله يكره العبد البطّال» والحديث المفيد معناً: إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم غرسة فليغرسها ويتغافلون عن النص القاطع المؤجل قيام الساعة إلى ما بعد استكمال الأرض زخرفها وزينتها، وأين ذلك بعد؟!»[١]

لقد كتب الكواكبي ما سلف قبل أكثر من مائة عام ولا تزال ذات العبارات والأمثال تتردد على الأذهان وكأنها وليدةُ اللحظة، يتوارثها جيلٌ بعد جيل حتى أماتت في الأمّة روح المبادرة، وخدّرت في عروقها الحركة، فكلّما جاء جيلٌ زادت أكثره المسليات والملهيات خمولاً ودعةً واستسلاماً فابتدعَ أصنافاً أنواعاً من اللهو والترفيه،وزاد الإذعان والإستسلام أقلّه فابتدر يتمثّل بمثل تلك العبارات الهزيلةِ التي تناقض قول النبي العظيم عليه أفضل الصلاة والسلام:

«الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهَّ مِنْ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَلا تَعْجِزْ فَإِنْ غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ قَدَرُ اللهَّ وَمَا شَاءَ فَعَلَ وَإِيَّاكَ وَاللَّوْ فَإِنَّ اللَّوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»[٢].

إنني لأعتقدُ يقيناً أن من أكبر مشكلات أمتنا هي فقدان المبادرة ووهيِّها في النفوسِ

---

(١) عبد الرحمن الكواكبي (طبائع الاستبداد، ومصارع العباد) دار النفائس ط٣/ ٢٠٠٦

(٢) رواه أبو هريرة رضي الله عنه.

والألباب في كثيرٍ من مساقي الحضارة السامية، ومساعي العيش الكريم، وصنوف الإبتكارات الحديثة، وسباقات الإختراعات المتسارعة.

وفي هذا قال ذات مرّة شيخنا محمد الغزالي رحمة الله عليه: «إننا نحن المسلمين نتقهقر من عدّة قرون، وكأننا في معركة انسحاب من أوائل القرن الثالث عشر للهجرة، وقد قاوم الأجداد والآباء والأعقاب، وورثنا نحن هذه المقاومة الباسلة النبيلة، وكسبنا مواقع وخسرنا أخرى، وأرى أنه لابد من دراسة شاملة لأسباب تقهقرنا المدني والعسكري وما هي العناصر الحيوية التي فقدناها حتى دهانا ما دهانا؟ لابد من بصيرة فاحصة متعمّقة تتدبّر ثقافتنا وتُنقّي منابعها، وتنقد مستوانا الحضاري الأخير، وتستكشف أسباب هبوطه!»[1]، إننا بدل أن نكون مبادرين - في أغلبنا - كما كان شأننا حيث جاب أجدادنا أصقاع العالم بناةً للأرض، وسعاةً للحق، أصبح تحرّكنا مجرّد ردّة فعل لما يحدث لنا، وقد تكون ردّات الفعل جيّدة حيناً ولكنّ المبادرة لدرء الخطر هي الأهم على منوال «الوقاية خير من العلاج» و«درهم وقاية خير من قنطار علاج» هذه إشكاليةٌ من إشكالياتنا الحضارية التي يفترضُ بنا أن نتجاوزها، لقد جمعتُ في هذا الكتاب ما كتبته عن صفات المبادرين أو الذين يقفون في الجانب الآخر وما أكثرهم أولئك الذين لا خلاق[2] لهم من المبادرة، بل اقتصروا على ندبِ حظوظهم داخل أنفسهم، وكَيلِ الإنتقادِات لأهل المبادرات والتقليل من جهودهم، والتحقير من نجاحاتهم خارجياً، أولئك الذين ألفوا العجز، وآثروا الفتور والخمود والخمول بديلاً عن العملِ والهمّة والعزيمة والسبق.

د. صالح الفهدي

---

(١) مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، الشيخ محمد الغزالي.

(٢) الخلاق: الحظ والنصيب من الخير.

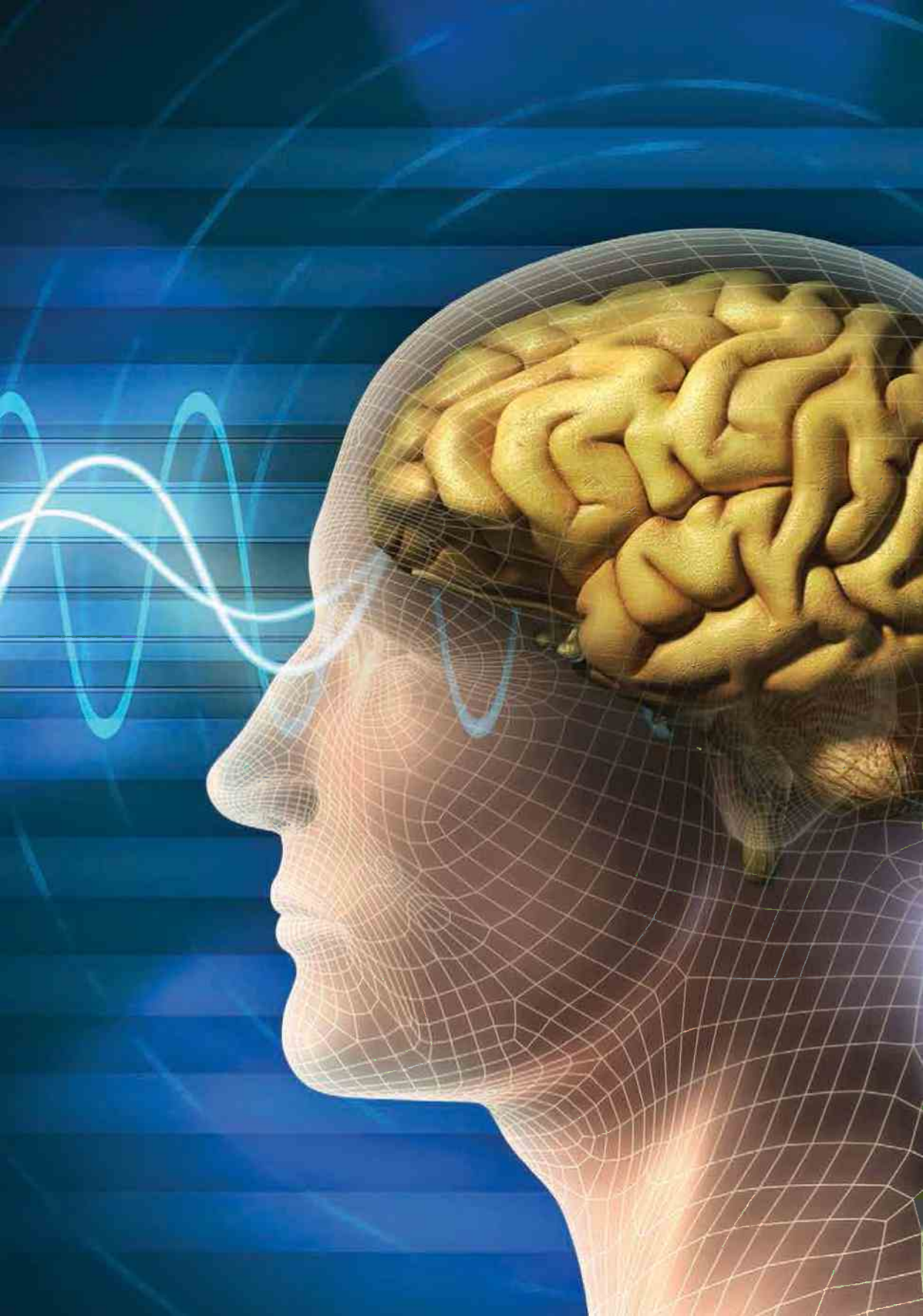

برمجة العقل الباطن

«إن أكبر عوائق التغيير لقوانيننا التقليدية لا تكمن في العالم المرئي للعقل الواعي ولكن في العالم المظلم للعقل الباطن»

Augustus Y. Napier

يعدُّ العقل الباطن موجّهاً تلقائياً للإنسانِ بحسبِ ما يخزّنهُ فيه من توجيهات وبيانات أشبهه هنا بنظام الطيار الذاتي Autopilot فهو يقود الطائرة بحسب ماخُزّن داخله من بيانات مسبقة لرحلةٍ ما، وهو يعتمدُ على خبراته السابقة التي تراكمت بفعل الممارسة المتكررة أو بتركيز العقل الوعي.

لهذا فإنَّ الواحد منا يتساءل أحياناً بعد أن قطع مسافة طويلة في الشارع قاد فيها مركبته دون إدراك وتركيز تجاوز خلالها مركبات وعبر تقطعات وخفف من سرعته هنا، وأسرع هناك، والتزم بالسرعة المحدّدة دون تجاوز، ولم يغفل الإشارات الجانبية، أو التنبيه عند الشعور بالخطر.. يتساءل كيف فعل كل ذلك ولم يشعر به؟!

والإجابة بسيطة: العقل الباطن فعل كل هذا. إذاً: فنحنُ البشرُ نملكُ كنزاً عظيماً يتمثّل في نظام معلومات Computer يستطيع تخزين ٢ بليون لقطة في اللحظة الواحدة في مقابل ٧ لقطات يخزّنها العقل الواعي، وهذا يعني أننا نستطيع أن نحقق النجاح بحسب مقدرتنا على التعامل مع العقل الباطن.

يقول (جيمس ك فان فليت) في كتابه (لقوة الخفية للعقل الباطن): «لا يهمُّ عقلك الباطن طبيعة الأهداف التي تحددها له، لأنَّكَ لو برمجته على النجاح فسوف تنجح ولو برمجته على الفشل فستفشل، فأنتَ لكَ مطلقُ الحرية، فإذا منحتَ عقلكَ الباطن أهدافاً ناجحةً فسيكون آليتك للنجاح وإذا قدمت له أهدافاً فاشلةً أو أغراضاً سلبيةً فسيكون آليتك للفشل، وسترى أنَّ عقلكَ الباطن يعمل بالضبط مثل جهاز

الكومبيوتر فيما يتعلق بالتساوي بين المعطيات والنتائج».

الإشكالية أن بعض الناس يضعون بأيديهم الأحجار التي تعيقهم، وهذا واضحٌ من خلال الكثير من الكلمات المتداولة على ألسن البعض يكررونها ليلاً نهاراً فيكون لها أثرها السلبي عليهم، فحين تصادف الواحدَ منهم لا يبادرك بالكلمات الإيجابية عن نفسه أو عنك، بل يكرر على نفسه:

بأنه قد شَابَ، ولم يعد يقوى على حملِ نفسِه، وأنه منهك، وأنه تعبان، وأنه أصبح عاجزاً عن فعل شيء...

ثم يراكَ من منظورِ رؤيته لنفسه، فيحسبكَ مثله، أو يريد أن يضمّك إلى النطاق السلبي الذي يحبسُ نفسه فيه.

ولن يروقه أن يراك متحرّراً من هذه القيود، ولو أنه نظر للوجود نظرة تفاؤل لتغيّر حاله.

والذي نفسه بغير جمال

لا يرى في الوجودِ شيئاً جميلا[1]

إن الله سبحانه وتعالى ليحمّل الإنسان مسؤولية التغيير الذاتي، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[2]

فالإنسان هو الذي يصوغ توجّهاته، ويحدّد مراميه، ويعيّن غاياته فحسب ما يفعل يجدُ من نتيجة، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾[3]

وهنا يكمنُ السر، أن تفعل فعلاً حسناً، أو تقولَ كلمةً طيّبةً ييسّر الله لكَ طرقَ اليسر وفي المقابل إذا فعلت فعلاً مشيناً أو قلت كلمة محبطة، أو استسلمتُ لشعورٍ مثبّطٍ

---

(١) إيليا أبوماضي.

(٢) سورة الرعد: الآية ١١

(٣) سورة الليل: الآية ٥-١٠.

لـن تجـدَ أمامَـك إلاّ الطرق العسـيرة، لهذا لـن نسـتغربَ أن ينتحرَ يائسٌ لأنـه لم يبصر في الدنيـا إلاّ سـواداً قاتمـاً أينما توجّـه بصره وهذا هو قانـون الإنعكاس في العقـل الباطن فما يعتقـدُ به أو يشـعره الإنسـان يراه أمامـه خيراً أو شراً، إشراقـاً أو إظلاماً، تفـاؤلاً أو كآبة يقـول النبـي صـلى الله عليه وسـلم: «اعملـوا فكلٌّ ميـسَّر لما خلق لـه، أما أهل السـعادة فييسروا لعمـل أهل السـعادة، وأما أهل الشـقاوة فييسروا لعمل أهل الشـقاوة»[1].

هـو الإنسـان ذاتـه الذي يقـوم ببرمجة عقلـه بما يدخلـه في عقله مـن تصـورات إيجابية أو سـلبية وعـلى إثرها تكـون النتيجـة فهو كالفـلاّح الذي يـزرع يحصدُ بحسـبِ ما زرع.

مـن هنـا فـإنَّ العقل الباطـن هو مسـتودع تكوين بـذرة المبادرة وحين يسـتهين الإنسـان بكلمـةٍ تبـدو بسـيطةً في نظـره، أو مزحةً في خاطـره، أو صغـيرةً في تصـوّره، فإنَّه مخطىء خطـأً كبـيراً، وأضربُ عـلى ذلك مثـلاً شـهدته: فأحـدُ الأزواج كان يلقي بصـورةٍ دائمةٍ كلمـةً على زوجته يحسـبها مزحةً وهي في حقيقتها مزحةً سـمجةً تبـدو في ظاهرها كذلك مـع ما يصاحبهـا من ضحكات أو حـركات تصدرُ منـه، ولا تملكُ الزوجـةُ إلا أن تحمل مشـاعرها بتكلّـف لقبـول تلـك الكلمـة حتى تنسـجم مـع الأجـواء، فقلـتُ لأحدهم: أن لهـذه الكلمـة أثـراً عميقـاً سـتظهرُ نتائجـه في القادم مـن الأيّـام، وبالفعل فـإن تراكم الكلمـة وأثرهـا المتعاقـب قد ولّـدا حالةً مـن الظن والإرتيـاب كاد أن يعصـف بالعلاقة الزوجيـة، ويـأتي بالبيت مـن القواعد.

العقـلُ الباطـنُ هـو مصنعُ المبـادرة الإيجابية بما يخـزّن فيه من صـورة إيجابية عـن الذات، وأجمـل مـا تتصف به مـن صفات تمكنها مـن النجـاح، وتدفعها لتحقيـق الإنجاز.

فكـم مـن قصّةٍ مـرّت علينـا تتلـوّنُ روايـةً وتتفق معنـى حول ذلـك المريض الـذي قال لـه الأطبـاء بكل يـأس: «إنَّـكَ لن تعيش سـوى أيـام أو أشـهر معدودة»

فـإذا هو يعيش سـنوات وسـنوات سـعيداً هانئاً دون مـرض، لقد اسـتطاع أن يديرَ عقله الباطن بكفـاءةٍ وجدارةٍ.

---

(١) رواه البخاري (٤٦٦٦) ومسلم (٢٦٤٧).

وحين سُئل الحسن البصري عن سرِّ زهده في الدنيا قال: «أربعة أشياء علمت أن رزقي لا يأخذه غيري فاطمأنَّ قلبي، وعلمتُ أنَّ عملي لا يقوم به غيري فاشتغلتُ به وحدي، وعلمتُ أنَّ الله مطِّلعٌ علي فاستحييتُ أن يراني عاصياً، وعلمتُ أنَّ الموت ينتظرني فأعددت الزاد للقاء ربي».

ولا شك بأن أقوى برمجة لدى الإنسان المسلم تتم من خلال أداءِ الصلاة والتسبيح والذكرِ والدعاء، وهذه عظمة الإسلام أنَّه جعل لكلِّ شيء دعاءً حتى يبرمج المسلم ذاته بطريقةٍ إيجابيةٍ ويصل بها إلى حالة من السموِّ، والصفاء والصدق والإنسجام والطمأنينة ويطرد منها عوامل الإحباط واليأس والفتور والخوف والقلق.

فما ظنَّك بحال المسلم الذي يردّد هذا الدعاء الذي كان يردده نبيّه المعلم القدوة عليه أفضل الصلاة والسلام:

«اللهمَّ إني أعوذ بكَ من العجزِ والكسلِ والهرمِ والجبنِ والبخلِ وعذابِ القبر، اللهمَّ آتِ نفسي تقواها، وزكِّها أنتَ خيرَ من زكَّاها، أنتَ وليُّها ومولاها، اللهمَّ إني أعوذ بكَ من قلبٍ لايخشع، ومن نفسٍ لا تشبع، وعلمٍ لا ينفع، ودعوةٍ لايستجاب لها»[1]

إنَّ أقوى برمجة حقيقية للعقل الباطن حسب اعتقادي هي تلك التي تربطُ بين النفس والروح، هذا الرابط (العروة الوثقى) يتضح من خلال آيات بيّناتٍ كمثل قوله تعالى:

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾[2]

ربطت هذه الآية ثلاثَ جوانبٍ ببعضها الجانب العقلي (الشورى)، الجانب النفسي (نيّة العزم)، والجانب الروحي (التوكّل على الله).

كما أنَّ الرابط النفسي الروحي يتمثّلُ بقوّة في الدعاء وذلك لارتباط الرسائل المرسلة

---

(١) عن عبد الله بن الحارث، عن زيد بن أرقم

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٥

إلى العقل الباطن بالإيمان بالله على سبيل المثال حين يدعو المسلم بهذه الأدعية:

«اللَّهُمَّ طَهِّرْ قَلْبِي مِنَ النِّفَاقِ، وَعَمَلِي مِنَ الرِّيَاءِ، وَلِسَانِي مِنَ الْكَذِبِ، وَعَيْنِي مِنَ الْخِيَانَةِ، فَإِنَّكَ تَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ».

«اللهمَّ حبِّب إلينا الإيمان وزيِّنه في قلوبنا وكَرِّه إلينا الكفروالفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين».

«اللهمَّ أبعد عنا الكرب والهم والحزن وأقضِ لنا حاجاتنا وأصلح لنا دنيانا وديننا».

هذه الأدعية وغيرها تعمل على برمجة العقل الباطن عن طريق الإستعانة بالله سبحانه لإخلاءها من شوائب الكدر والهموم واللغو والهوى والخمول والكسل وتملأها بالنور والسعادة والطمأنينة والتفاؤل والنشاط، تخيّل أنَّ إنساناً ما قد وضع كل آماله وأحلامه في إنسانٍ آخرٍ ليحصلَ منه على رزقٍ أو خدمةٍ أو غيرها فإنَّ عقله الباطن سيكون مرهوناً بما يقدِّمه ذلك الإنسان له أمّا لو أنّه أسكن في عقله الباطن اليقين بالله وحده دون أحدٍ سواه مكرراً على نفسه آيات عظيمة كقوله تعالى:

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ ﴾[1].

﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾[2].

فإن برمجة العقل الباطن ستساعده على الإبتعاد عن الهم والندم والتحسّر والتأسف والضعف والتفكير، وتملأ قلبه بالرضى والطمأنينة والإقتناع بأن في المنع عطاءْ، وأن ما أخَّره الله عنه خير له وفي الشرِّ الظاهر للإنسان خيرٌ باطن، فقال تعالى:

﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا

---

(١) سورة فاطر: الآية ١٠

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٦٠

تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾[١].

وإذا كان علم النفس يؤكد أهميّة الحالة النفسية لشفاء المريض من مرض عضوي فما بالك بالأثر الكبير إن كان الأساس هو الثقة بالله والإيمان العميق به والرضى بما قدّر وكتب واحتساب أجر الصبر عنده سبحانه، حينها تمتزجُ الرسائل الإيجابية في العقل الباطن بالروح الإيمانيةِ الوضيئةِ وينتج عنها طاقة مشعّة تساعد الإنسان على البرء والشفاء سريعاً أو تملؤه طمأنينة ورضا بما قسم الله له وابتلاهُ به:

﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾[٢].

ويقول تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾[٣].

من هنا فإنَّ المدخلات التي تلجُ إلى العقل الباطن لها أثرها في حياة الإنسان بشكلٍ عميقٍ فإن انتقى الإنسان خير المدخلات استقامت أموره، وطابت أحواله، ومما لا شكَّ فيه أنَّ خير ما يقوّم الإنسان ويصلحُ حال، ويسعد دواخله، ويدفع همه هو القرآن الكريم:

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[٤].

أما إذا لم يكترث بنوعية المدخلات فتلقّى كل شيءٍ بسمعٍ وطاعةٍ فإنها ستعمل وبصورةٍ تلقائيةٍ على شقائه وبؤسه وتذمره سواءً شعر بذلك أم لم يشعر.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢١٦
(٢) سورة لقمان: الآية ٢٢
(٣) سورة الرعد: الآية ٢٨
(٤) سورة الإسراء: الآية ٩

المبادرة أصلُ الإسلام

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾

سورة العلق

لقد بدأ الإسلامُ بمفتاحِ المبادرةِ الأعظم، إقرأ أي بادر بالقراءةِ والقراءة مفتاح العلم والعلم مفتاح الحضارةِ والحضارة طريق رقي الإنسان، وسمو نفسه وكمال خلقه، وعلو مآربه.

ثم جاءت فيما بعد المبادرة التطبيقية للبدء بالعمل ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ۝٢١٤﴾[1].

الإسلام في جوهره وكليّته عبارةٌ عن مبادرةٍ لإصلاح أحوالِ البشر وتصويبِ اتجاههم من الضلالات إلى جادَّة الحق، وتحريرهم من الأوهام والخرافات، وتخليتهم من شوائب المعتقدات والعادات، لهذا قال النبي عليه أفضل الصلاة والسلام: «إنَّما بُعثتُ لأتمّمَ مكارمَ الأخلاقِ».

والمسلم إن لم يكن مبادراً كان خاسراً، متخلّفاً وراء الرّكبِ، معطّلاً لنفسه، ولأمته، وهذا ما حدث لأمّةٍ بأسرها، تركت المبادرة فتقهقرت بينما تلقّف الغربُ علومها فبدأ من حيث انتهت واليوم تعيش هذه الأمّة على ما ينتجه الغربُ، وتستهلكُ ما يصدّره لها راضيةً مذعنةً، فاستمع إلى آياتٍ تحثُّ على اكتسابِ السمو الأصيل في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ۝١٣٣﴾[2].

واستمع إلى قوله عزوجل: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ۝٣٤﴾[3].

---

(١) سورة الشعراء: الآية ٢١٤

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٣٣

(٣) سورة فصلت: الآية ٣٤

واستمع إلى حديث النبي الكريم عليه أزكى الصلاة والتسليم: «لا يَحِلُّ لامْرِئٍ مُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاثٍ، فَيَلْتَقِيَانِ، فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا، وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلام»(١)

ديننا دينُ المبادرة «فمَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ بِيَدِهِ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ بِلِسَانِهِ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإيمان»(٢)

هذه هي الفكرة الأساسية في الإصلاح وتصويب الإتجاهات وهي مسؤوليةُ الأمّة، أمّا حين تترك الأمة المبادرة بحجّةِ أن ما يفعله زيدٌ لا يعني عمرو فهلاكها مؤكّد، وخرابها مشهود مؤرّخ بيد خالقها:

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩ ﴾(٣)

وكم من المواقف التاريخية التي صنعت مفاصل في التاريخ كان سببها المبادرة وليس الإذعان والإستسلام والسكوت بأية حجة كانت.

ففي غزوة بدر فقد كان لمبادرة الحباب بن المنذر رضي الله عنه دوراً في الغزوة فقد بعث السماء، فأصاب رسولَ الله والمسلمين ماءٌ لبَّدَ لهم الأرض، وأصاب قريشاً ماءٌ لم يقدروا أن يرتحلوا معه، ثم رحل رسول الله - صلى الله عليه وسلم- بالمسلمين، وقال لهم: «سيروا على بركة الله، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، فكأني أنظر إلى مصارع القوم».

ثم مضى يبادر قريشاً إلى الماء حتى إذا جاء أدنى من ماء بدر نزل به، فجاء الحباب بن المنذر بن الجموح أحد بني سلمة إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال:

---

(١) رواه مَالِكٌ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَزِيدَ، عن أبي أيوب.

(٢) عن أبي سعيد الخدري.

(٣) سورة المائدة: الآية ٧٨-٧٩.

أرأيت هذا المنزل أمنزلاً أنزله الله ليس لنا أن نتقدَّمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة»، قال: يا رسول الله فإنَّ هذا ليس بمنزل فانهض حتى نأتي أقرب قليب القوم، ثم نُغَوِّر ما سواه من القُلُب، ثم نبني حوضاً فنملأه، ثم نقاتل فنشرب، ولا يشربون، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم-: «قد أشرت بالرأي»، ثم أمر بإنفاذه فلم يجئ نصفُ الليل حتى تحولوا كما رأى الحباب، وامتلكوا مواقع الماء[1].

لقد لقيت مبادرة الحباب بن المنذر الترحيب والتقدير والثناء من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت سبباً ميدانياً من أسباب النصر.

فلا تكن للمعلمة التي قالت لي: لماذا أنا أتغيّر والمجتمع لا يتغير؟!

ورددت عليها: من هو المجتمع سوى أنا وأنت؟

ولا تكن لمديرة المدرسة التي قالت لي: الناس تفرض علينا أن نعاملهم بتزلّف وتملّق فهذا هو السائد الآن.

فرددتُ عليها: نحنُ من يفرض مبادئنا على الآخرين، وإنسان بلا مباديء لا يسوى شيئاً.

ولا تكن كمدير الممرضة التي اشتكت لي قائلة: أن مديرها يقول لها لا تتمسكي بالصدق دائماً فماذا أقول له؟

رددت عليها قائلاً: أن الصدق قيمة أخلاقية لا سلعة أصطحبها هنا وأتركها هناك بل هي لازمةٌ شخصية في النفس الإنسانية الراقية فإن تخلّت عنها أخلّت بميزانها وتقديرها لذاتها.

والشاهدُ أنه إذا كان الدين الإسلامي دينُ المبادرة فإنه أجدر بالمسلم أن يكون مبادراً للخير والبر وفق منهج «خيرُ البرِّ عاجله» وأن لا يتوانى في طلب الخير فمن «يتحرّى

(١) رواه ابن هشام ٢/ ٣٦٦ عن ابن إسحاق قال: «فحدثت عن الرجال من بني سلمة أنهم ذكروا أن الحباب...».

الخير يُعطه، ومن يتوق الشر يوقّه»[١]، والمسلم عليه أن يحُسن الظن بالله، فالله يقول في الحديث قدسي «أنا عند ظن عبدي بي»[٢].

ومن يجعل الله له وكيلاً فلا يتردَّد في قضاء أمره حتى لا تهتز ثقته بالله، ويخور إيمانه، ويوهن يقينه، ويعمره الخوف والقلق والإكتئاب.

(١) البيهقي في شعب الإيمان عن أبي الدرداء.

(٢) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

المبادرون

أبت لابن حماد مساعيهِ أنْ يرى
إذا ابتدر الساعون غيرَ مبادر
ابن الرومي

المبادرون.. أيّ أناسٍ محظوظون هم؟! محظوظون لأنَّ بين جوانحهم أنفساً كريمةً، عاليةَ النظرِ، ثاقبةَ البصيرة.. ولعلّهم من أكثرِ من أحببتُ من أصنافِ النّاسِ، وأشدّ من تعلّقتُ بهم.

المبادرون أجل، أولئك الذين نبذوا أنانيةَ النَّفسِ، وطرحوا رغباتهم جانباً، والتفتوا نحو الآخرين بنوايا سليمةٍ كي يمسحوا عنهم الشقاءِ والبؤسَ، ويعينوهم على القيام من مستنقعاتِ الفقرِ والعوزِ، ويحموهم من الوقوع في براثنِ الغوايةِ والهوى ويضيفون إليهم مسحاتٍ من الجمالِ ويسقونهم جرعات من الأملِ والتفاؤل.

تجدُ المبادرَ وقد بهَرَكَ بما يملأ نفسَكَ حبّاً ويعزّز السَّعادةَ في قلبك، فمجرّد أن يستمع إليكَ وأنت تلمّح عن معضلةٍ تضيّق عليك الخناقَ، أو أزمةٍ تقلقك، أو همٍّ ألمّ بكَ، تجده وقد دفعته نفسه الذكّيةُ، العاليةُ القدرِ يسعى إلى التَّدبير، والتّصرّفِ حتى يفاجئكَ بحلٍّ لمعضلتكَ، أو يمنحك ما يهوّن عليكَ ضيقَ أزمتك، وخلال ذلك لا تتصوّر أنت أنَّ هناك من يسعى لأجلك مخلصاً، ويدبّر لكَ متفانياً، وهو إن لم يفعل شيئاً لم تكن لتلومه لأنَّكَ لم تحسب حسبان خدمته، أمّا وقد فعل فقد سمى في نظرك، واعتلى مكانةً عاليةً في نفسِك.

لا شكَّ أن الإنسان تغالبهُ أهوائه الشخصية، ورغباته الذاتية، فهو في صراعٍ دائم معها، فإذا استسلم لها فهو مجرّد إنسان أناني، أمّا إن تغلّب عليها فهو إنسانٌ مبادرٌ فالمبادرةُ -في نظري- هي التخلّي عن أنانيّةِ النفس لإسعادِ الآخرين، وحينها ستكون السعادةُ الذاتية -مع هذا المفهوم- مقرونةٌ بتحقيق سعادة الآخرين، وتتأصّل جذورها، وتتعمّق مفاهيمها، ولشدَّ ما أستغربُ من أناسٍ يملكون أدوات المبادرةِ

الماديّة ولكنّهم لا يملكون أدواتها النّفسيّة، وهؤلاءِ نادراً ما يصحو لهم ضمير لأذيّةٍ تنغّص حياةَ قريبٍ أو يوخزهم واخزٌ لجرحٍ مجروح، البعضُ من هؤلاءِ يتلذّذون في مراقبةِ صاحب الحاجةِ وهو يهرقَ الدموع الأبيّةِ عندَ ركبهم، وحينها قد تقومُ لهم قائمةٌ، أو يصحو بهم ضمير، أمّا البعضُ الآخر فقد أغلقَ على نفسهِ المغاليق فأضحت أذنيه صمّاء لا تسمعُ النداءَ إلاّ ما ترشّح لأجل منافعهم.

الأنانيّون أحد الأصناف المعاكسةِ للمبادرين في هذا المقام، ترى الواحد منهم وقد همّه شأنه فلا يسألُ عن قريبٍ عزيز، وأضناهُ مرامهُ فهو الغايةُ الوحيدة، والأمل المقصود، وما غيره من شؤون الآخرين، من منافعهم ومقاصدهم فليس ما يندرجُ في إطار اهتماماته، كيف تتحّقق سعادتهُ إذن، والسعادةُ أساسها المبادرة..إنّها سعادةٌ منقوصةٌ لا يشعر بها، لأنَّ السعادةَ هي الجنى المقطوف من عيونِ الآخرين ومن شفاههم حتى يتلاقى مع معاني السعادة الداخلية.. من وجهٍ آخر، فالمبادرون أناسٌ يتحمّلون نتيجة قراراتهم ويتصدّون بكل شجاعةٍ وجرأةٍ ليعلنوا مسؤولياتهم عن أيّةِ عواقبٍ شاركوا فيها، فلا يعلّقون أخطاءهم على شمّاعةِ الآخرين، ولا يتهمون أحداً بأنّه كان وراءَ أخطائهم، ذلك لأنّهم اتخذوا قراراتهم بناءاً على القيمِ التي نشؤوا عليها، وآمنوا بها، ودافعوا عنها، وكافحوا من أجلها، ولهذا فهم أبطالٌ تصدّوا لمواقف وثّقها التاريخُ، وخلّدها في سجلّاتهِ.. وإنني لأذكر هنا مبادرة هدهد سليمان الذي خرج من سرب الطيور دون أن يُطلب منه ذلك، فيعود ليقول بكلِّ ثقةٍ للنبي سليمان عليه السلام:

﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾[1]

أتى وهو يحملُ خبراً جديداً محدّداً مصدر الخبر ويقينه، فإذا كان هذا حالُ طيرٍ حملته نفسه على المبادرة فكيف لا تحمل الإنسان نفسه على المبادرة أن يكون الإنسانُ مسؤولاً عن تصرّفاتهِ، واعياً بواجباتهِ، مدركاً بقراراتهِ فإنّه يملك حريّة القرار،

(١) سورة النمل: الآية ٢٢

يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ﴾[1]

هذا هو الأساس وذلك بعد أن قَبِلَ المسؤولية

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾[2].

أمّا ضعفاءُ النفوس، متقلبو الأهواءِ فانظر ماذا يقولون

﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾[3].

إن المصيبةَ التي يرسفُ فيها كثيرٌ من النّاس هي الخوفُ من المبادرة، والخشيةِ من تغيير أوضاعهم بحجّةِ عدم معرفة ما سيسفر عنه التغيير، فيظلّون طوال أعمارهم مرهونين لتصوّرات ضيّقة الأفق، تقيّدهم عن القيام بأي فعلٍ من شأنه إخراجهم من مستنقعاتهم الفكرية.

وهذا ما دفع باحثاً غربياً يُدعى (جيرت هوفستيد) حين قاس بعض العوامل الثقافية لدى مختلف الشعوب لإعطاءِ العالم العربي نسبة مرتفعة ٦٨ في العامل المتعلق بالخوفِ من المبادرة (Uncertainty Avoidance).

كثيرون هم الذين يرتضون أن يعيشوا حياةَ مذلّةٍ لأفكارٍ تسيطرُ عليهم ويحيون حياةَ مهانةٍ وقد رفعوا مثلاً شعبياً ليكون شعارهم يقول: (إصبر على مجنونكَ لا يأتيكَ من هو أجنُّ منه)، أيّ أفضلُ لكَ أن تعيش الذّلةَ والمهانةَ بدلاً من أن تسعى وراءَ التغيير، وقد وضع «الأجنُّ من المجنون» هو العاقبةِ، ولو أنّهم بدّلوه بمثلٍ آخر يقول «من نفخ في النار لم يحترق» أيّ من جرّب، وحاول لن يضر نفسه، وهذه هي

(١) سورة الإسراء: الآية ١٣
(٢) سورة الأحزاب: الآية ٧٢
(٣) سورة الأعراف: الآية ٣٨

العاقبة التي تعني المبادرة ولكن ذلك صنفٌ وهذا صنف.

يقول لي أحدُ المعارف: لقد كنتُ أعملُ مع فلانٍ، فكنتُ كالآلةِ التي تعمل لأجلهِ، حتى تجرّدتُ من شخصيّتي فأصبحتُ كأنني هو في مظهري، وحركاتي، وكلامي حتى حين اعتمرتُ معه لم أشعر بطعمِ العمرة، فلّما انقلب الحالُ بيني وبينه وهو رئيسي في عملي عدتُ إلى نفسي، واكتشفتُ ما حولي، ووجدت شخصيتي الضائعة، وعدتُ لأعتمرَ بنفسي فأحسستُ بمعنى العمرةِ، وقد كنتُ أرى أن غضبه عليّ مصيبة لي، فإذا بي أراه نعمةً ما بعدها نعمة.

فقد اكتشف صاحبنا أن المبادرةَ هي أن تكون صاحبُ مسؤوليةٍ، وأن تدركَ معنى القرار وعواقبه، وقد كان مسيّراً من قبل فلم يعرف ما هي المبادرة.

المبادرون هم أناسٌ يتسمون بالشجاعةِ لأنهم آمنوا بمبادىءٍ واضحةٍ، وعلى أنوارها نهجوا سلوكياتهم، وتصرفاتهم، واتخذوا قراراتهم، ولهذا لم يلامس الغموض شخصياتهم، ولا اللّبس قراراتهم، ولا الحيرةُ أفكارهم، وإنّما كانوا دائماً واضحين في كلِّ شيء، ولن تستأنسَ لصنفٍ من الناسِ استئناسك بالمبادرين فهم خير الأصحابِ، أخلصُ الأصدقاءِ، وأنقى الأخلاّءْ تعرفهم من مواقفهم الشجاعةِ التي يظهرون بها في وقتٍ لم يخطروا ببالك أنّهم مبادرون، إنهم دائماً القدوات الحسنة الذين يراهم (ستيفن كوفي) في كتابه (العادة الثامنة من الفاعلية إلى العظمة) محرّكي أشرعة التغيير، أجل إنّهم كذلك لأنهم يقودون ويوسّعون دوائر التأثير وهؤلاء هم المبادرون هو الذين يندرجون في مقصد الحديث الشريف «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان» أي أضعفُ المبادرات.

وهم المقصودون في الحديث الشريف الآخر«لا يكن أحدكم إمّعة، يقول: إن أحسن الناس أحسنت وإن أساؤوا أسأت، ولكن وطِّنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساؤوا ألا تظلموا».

المبادرات مقرونةٌ بالنوايا ولكلّ امريءٍ ما نوى.. ولستُ أرى حياةً لإنسانٍ غير مبادر إلاّ أن يكون قد ارتضى المهانةَ مسكناً، والذلّةَ ملبساً والخمود صفةً، والكسل سلوكاً، والتوسُّل عادةً، والإنحناءَ فضيلةً والتوهّم لذّة.

وهؤلاءِ إتكاليّون، يلتمسون الأمن النفسي، والضمان الإجتماعي من غير مبادراتهم وجهودهم وهم قادرون على أن يكونوا مبادرين ما عليهم إلاّ أن يقبلوا بالتغيير منطقاً والفعل سبيلاً، وشحذ الهمّةِ طريقاً، والتفكير الواقعي منهجا.

كم يحدّثك بعض الناسِ عن همومهم ومصائبهم فتقول لهم مقترحاً: هل حاولت فعل ذلك؟ وتصفُ لهم ما يجب أن يفعلوه، فيردون عليك ولم يفعلوا: لا فائدة، فنحن نعلم أن ما سنفعله لن يُجدي شيئاً.

إذاً أخمدوا وانتظروا الذهب أو الفضّة يسقطان طبقات عليكم،يقول النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الشريف: ولوفعلتم لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطانا، أي أنَّ الطيرَ وهو طائرٌ ضعيف مبادرٌ ولذلك يرزقه الله وفي هذا المقام، قيل للإمام أحمد رحمه الله: «إن قوماً يجلسون في المساجد ويقولون نتوكل على الله، كما تتوكل الطير»، قال: لا.

إن الله سبحانه وتعالى أمرنا أن نسعى وأن نعمل، انظروا إلى قوله صلى الله عليه وسلم في حديث الطير: «تغدو خماصاً وتروح بطاناً» أي إنها تغدو وتروح.

المبادرة روحُ المسؤولية

هي مشكلةٌ تقبعُ في أنفسنا، متفشّيةً متأصّلةً فينا، لا نريدُ الإعترافَ بها، وإن اعترفنا فلا نعملُ حثيثاً من أجلِ أن نتخلَّص منها لنحلَّ محلَّها قيمةً إيجابيَّةً تدفعنا قُدُماً، هي مشكلةُ النظرةِ إلى الأخطاءِ دائماً على أنّها هناك في الخارج.

الناس دائماً تلقي اللّوم على الظروف لما هم عليه.
شخصياً لا أؤمن بالظروف، إن البشر الذين يمضون قُدُماً في هذا العالم هم الذين يبحثون عن الظروف التي تناسبهم، فإن لم يجدوها، يصنعوها.
جورج برنادشو

هناكَ تحرّرنا من التّبعات، والمسؤوليات والأعباء المترتِّبةِ عليها، وتحمّل الآخر أيّاً كان هذا الآخر كل ما يتعلَّقُ بها، إننا نهربُ من المسؤولية التي علينا مواجهتها، المسؤولية التي تحتّم على كل فردٍ أن يقوم بها بغضِّ النظرِ عن حجمِ هذا الدّور فهو في النهايةِ دورٌ مؤثِّر وإن لم يُلمس أثره ظاهريّاً.

يقول غاندي: «كن التغيير الذي تريد أن تراهُ في العالم».

التّخلي عن المسؤولية هي مشكلةٌ يبدو أننا نتوارثها جيلاً بعد آخر، ولذلك فإن أيَّ تغييرٍ لا يكون بسبب التحلِّي بروح المسؤولية فهو تغييرٌ مزيَّف تغييرٌ غير صحيح المبنى، ولا سليمِ المعنى، ذلك لأنَّ الله سبحانه وتعالى قد وضع القاعدة لما نستندُ عليه في هذا القول وهي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1]، ولا يمكنُ أن يغيِّر أي فردٍ من نفسه طالما يرى أن الخطأ هناكَ في الخارج بل عليه أن يرى ويؤمن أنَّه مؤثّر على الظروف وليس متأثِّراً بها، يقول غاندي مرةً أُخرى«لا يمكنُ

(١) سورة الرعد: الآية ١١

أن يؤذيني أحدٌ دون إذني».

تتربّى أجيالٌ فنسمعها تفسِّر الأشياءَ وكأنّها محيطةٌ بالعلمِ، مصيبةٌ أن يكون التعالمُ بالشيءِ محجبةٌ أمام الحقيقةِ، والتنصُّلُ من المسؤوليةِ جهلٌ في حدِّ ذاته، بينما الإعترافُ بالجهلِ فضيلةٌ طالما كان المقصودُ من تلك الفضيلة التخلِّي عن الأفكار السلبيّةِ والتّزودِ بالإيجابية، الإعترافُ بالجهلِ منهجٌ صحيحٌ لطلبِ الحكمة إذ لا يمكنُ أن تطلب الحكمة في ظلِّ الظهور بمظهرِ العارفِ الحذق الذي لا يشقُّ له غبار ولا تُبرى له قناة.

يقول (ثورو Thoreau): «كيف لنا أن نتذكر جهلنا الذي يحتاجُ إليه نموّنا إذا كنّا نستخدم معرفتنا طوال الوقت».

إن قيمة المسؤولية هي القيمة التي تستطيعُ أن تؤسس للإنسانِ منطلقاً في كل شيءٍ، منطلقاً واضحاً لا إبهام له ولا غموض فيه، إنطلاقاً من: «كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته»[1]، فإذا آمنّا بأنّا مسؤولون لم نبحث حينها فقط عن حقوقنا بل عن واجباتنا أوّلاً، فكيف يُسألُ عاملٌ عن حقوقه قبل واجباته؟!

حين نعرفُ المسؤولية -بحقوقها وواجباتها- فإن قيمة عظيمةً ستتحقق وهي قيمةٌ مطلقةُ النفع هذه قال الله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾[2].

يقول مالك بن نبي: «لقد أصبحنا لا نتكلَّمُ إلا عن حقوقنا المهضومة، ونسينا الواجبات، ونسينا أن مشكلتنا ليست فيما نستحق من رغائبٍ بل فيما يسودنا من عادات، وما يراودنا من أفكار، وفي تصوراتنا الإجتماعية بما فيها من قيم الجمال والأخلاق، وما فيها أيضاً من نقائضٍ تعتري كلَّ شعب نائم».

إن النتائجَ المريرةَ التي خلّفها لنا تخلِّينا عن المسؤوليةِ راسخةٌ في عقولنا، وواضحةٌ

---

(١) حديث شريف

(٢) سورة النساء: الآية ٣٢

في سلوكنا، فانظر إلى الأب راعي الأُسرة وهو يتخلّى مسؤولية تربيةِ الأبناءِ على الأمِّ ليداوم على جلسات الأصدقاء ثم يقرِّعها لأي أخطاءْ، وانظر إلى المسؤولِ الذي يسمّى مسؤولاً وهو يتصرَّفُ ساعةَ الإعترافِ بالمسؤولية على خلافِ مُسمّاه، كيلا تنالهُ عواقب المسؤولية، هو مسؤولٌ فقط حينما يلقي اللّومَ على غيرِهِ، وحين يعاقبُ غيره، وحين يترقّى الدرجات العليا، أمّا حين يسقطُ الفأسُ على الرأسِ فلن يكون حينها مسؤولاً، وانظر إلى المعلّم الذي يتّهم الطالب بالتقصير وهو المسؤول عنه، وانظر إلى المرأة التي تتهربُ من المسؤوليةِ عن وضعها وتسلّمها كلها للرجل، تقول (د. منى يَكُنْ) في معرض الحديث عن المسؤوليات: «إن الأخوات لا يعفين من بعض التبعة، فقد استسلمَ معظمهنَّ للوضع الحالي، ورضين بحياةِ الدعة والسكون، وأن يفكر لهن الرجال بدل أن يفكرن لأنفسهن»، وهذا ما نشأ عليه الجيل الحالي، أن يفكّر له الآخرون لا أن يفكّر هو، وهي مشكلةٌ لا يريدُ أن يعترفَ بها جيلُ المربّين، لا الجيل المربّي يريدُ أن يعلن أنّه مسؤول عن مشكلاتِ هذا الجيل، ولا الجيل الحالي بحكم التربية والمفاهيم المغلوطة يتحلّى بالشجاعة اللازمة لإعلان مسؤوليته الجزئية عن النظر إلى الأخطاءِ على أنها هناك في الخارج.

إننا إن لم نعترف أولاً كجيلٍ مربٍّ بمسؤولياتنا تجاه هذا الجيل ونعلن بشجاعة أننا لم نكن على قدرِ المسؤولية في كثيرٍ من الأمور الأساسية التي كان من الواجبِ أن يتربّى عليها الجيل الحالي فإن المعضلةَ ستراوحُ مكانها، وسيتكرَّرُ التهرّب من المسؤولية.

في مجتمعاتنا تتكرّر كثيراً عبارة (أصدقاء السوء) و(البطانة الفاسدة) على أنّها تفسيرُ لمشكلةِ إنسانٍ ما، أمّا نظرتي لذلك فهي أن هذا من قبيل التعليل والتبرير غير السليم للمشكلات، وحجّتي في ذلك إنّ أي إنسانٍ هو في نهايةِ الأمر وحده المسؤول عن تصرفاته، وأفكاره وقراراته، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾[1].

(١) سورة الشمس: الآية ٧-٨

وقال تعالى ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾[١]، لهذا لا يمكنُ أن يقرّر مصيرَ إنسانٍ غيره في حالةِ أنّه يملكُ الحريّة على اتخاذ القرار أمّا غير ذلك فالله هو المتكفّل بالسؤال:»وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ، بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ»[٢].

إنّ من المحزنِ أن تسمع إنساناً لا صوتَ له بل هو صدىً لصوتٍ آخر يردّد ما يقوله الآخرون، ويفعل ما يفعلونه، ولا يفعل أكثر مما يفعلون فهو يعيشُ في نطاقهم، ويحيا في محيطهم، فكأنّهم لسان حالهم، هذا لأنّه لا يريدُ أن يتحمّل المسؤولية عن أيِّ فعلٍ صادرٍ منه، وأيِّ ردّة فعلٍ ناتجة منه.

هذا هو الإمّعة الذي لا يسيِّره عقله وتفكيره: «لا يكن أحدكم إمعة يقول: إن أحسن الناس أحسنت وإن أساءوا أسأت ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم»[٣]، مثل هذا لا يكونُ إلّا وبالًا على مجتمعهِ، لأنّه غير جديرٍ بالمسؤولية التي أُلقيت على كاهله.

إن ما نحتاجُ إليه هو الفردُ الذي يعلنُ بحقٍّ وصدقٍ مسؤوليته لا رياءً ونفاقاً، وإنّما عملاً صادقاً، فلقد انتهينا إلى وجودِ أُناسٍ يتبرؤون من المسؤوليةِ، ولا يتورعون كلما سنحت لهم الفرصة أن يتّهموا الآخرين بالمسؤولية دون دليل، لأنهم محتاجون إلى من يرمون عليه المشكلة فليكن من يكون حتى بلا دليلٍ أو برهان، يقول مثل: «قد تكون لتربيتنا وظروفنا تأثيرٌ علينا ولكن نحن المسؤولون عمن سنكون»، لا نحتاجُ إلى أصواتٍ تلقي باللّوم والتقريعِ على غيرها وهي تملك قرارات التغيير الشخصي.

يقول أبو العتاهية:

يا راعيَ النّفسِ لا تُغْفِلْ رِعايَتَها
فأنتَ عن كلّ ما استرْعَيتَ مَسؤولُ

---

(١) سورة المدثر: الآية ٣٨
(٢) سورة التكوير: الآية ٨-٩
(٣) حديث شريف.

نحـن لا نحتـاجُ لمـن يتركون قـرارات حياتهم للآخرين يصرّفونها كما شـاؤوا بـل نحتاجُ إلى الذين يواجهون مصائرهم بأنفسـهم.

يقول John Atkinson: «إذا لم تدر حياتك بنفسك، فبالتأكيد هناك من يديرها لك».

إنَّ الواقـع ليبرهـن عـبر الكثيرِ مـن التجـاربِ أن الكثيرين يملكـون قوائـمَ مطالباتٍ لا تنتهـي، لكنّهم غير مسـتعدّين لتحمّل المسـؤولية في حـالِ تحقّق بعض مـا يريدون، ذلك لأنّهم لم ينطلقوا من المسـؤولية الشـخصية عـن كلِّ طلب ضمّنوه قوائمهـم، ولدينا أمثلةً كثـيرةً ليـس أوّلها مؤسسـات ما يسـمّى بالمجتمـع المدني من مثـل الجمعيـات التي كانت طلبـاً ملحاحـاً حتـى ظهرت وعندهـا واجهَ مـن يطالبون واقعـاً لم يكونوا ليتصـوَّروه إذ لم تترسّـخ في أكثرهم قيمة المسـؤولية.

الـزواجُ هـو الآخـر مطلب فطـري لكن المشـكلة التـي يواجهها هـذا المـشروع هو عدم الإحسـاس بالمسـؤولية تجاه مؤسسـة الزواج، والتعامل مع الجنس الآخر وتربيةِ النشء، يقـول مثـل هاييتـي «الـزواج بإمـرأة لا شيء، تصـوّر المسـؤولية هـو المهـم»، العملُ هو مطلـبٌ أسـاسيٌّ يتكـرر ليلاً نهاراً لكنـه يواجهُ نفس المعضلـة، عدم تحمّل مسـؤولياته، إذ سرعـان ما يحصل الشـاب على فرصـة العمل يبدأ التنصّل من المسـؤوليات لأنّه حسـب الحقـوق كالرواتـب مثـلاً ولم يحسـب للواجبات، نحـن إذاً أمـام معضلةٍ كبـيرةٍ، معضلة تحتـاجُ إلى إعـادةِ تأسـيس، تبدأ من: (أنت مسـؤول عن تصرفاتك وقراراتـك)، ولا تبدأ مـن: (نحـن مـن يفكرُ لـك)، تبدأُ مـن: (أنت تصنـع مسـتقبلك بنفسـك) ولا تبدأ من: (نحـن مـن يبحـث لك عـن وظيفـة)، تبدأُ مـن: (أنـت حـرٌّ في قراراتك ولكنّك لسـتَ حـرّاً في نتائجهـا الوخيمـة)، ولا تبـدأ مـن: (هـذا المرعى بلاحدود فـارْعَ فيـه)، تبدأُ من إتفـاق عـلى عريضةِ ثقةٍ يؤسسـه قول النبـي صلى الله عليه وسـلم: «الحلال بـيِّن والحرام بـيِّن وبينهـما مشـتبهات لا يعلمهـا كثـير مـن النـاس فمـن اتقـى الشـبهات فقد اسـتبرأ لدينـه وعِرضـه ومـن وقـع في الشـبهات كـراعٍ يرعـى حـول الحمـى يوشـك أن يواقعه ألا وإن لـكل ملـك حمـى ألا إن حمـى الله في أرضـه محارمـه، ألا وإنَّ في الجسـد مضغة إذا

صلُحت صلح الجسد كلُّه وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»[1]، هذا هو إطار المسؤولية الذي ينبغي عليه البناءْ، المؤمّل أن تنشأ عليه الأجيال والذي يجب علينا أن نبدأ العمل لأجله، يقول أحد القادة: «إذا أدركت الخطأ فبادر على الفور لتصحيحه».

(١) حديث شريف في صحيح البخاري.

التركيز على عيوب الآخرين عثرة أمام المبادرة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

سورة الحجرات

نشأت وترعرعت في ثقافتنا فكرةُ (الآخرِ المخطىء) وهي فكرةٌ لا تُعينُ على اتزّانٍ، ولا تساعدُ على فهمٍ، ولا تقودُ إلى تعارفٍ، ولا تؤسِّس إلى تعاون، هي فكرةٌ تنتصرُ للنفسِ وإن كانت مخطئة، فتعشي نظرها عن رؤيةِ مثالبها، وتعمي بصرها عن اكتشافِ مصائبها، والمرءُ إن لم يكن منصفاً في نظرتهِ موضوعيّاً في حكمهِ، أخلَّ ذلك بشخصهِ، فتأرجحت قيمه، وتخالطت أهوائه وأمزجته وغدا عرضةً لكلِّ هوى، وكم نرى من أناسٍ في مجتمعاتنا لا يرونَ الخطأ حين تقع المشكلات إلاّ في أنفسِ الآخرين، أبعدوا أنفسهم عن ارتكابِ الأخطاءِ وكأنّهم منزّهون منها ولكَ أن تتأمّل هذا الطبع الذي يتأصّل في أنفس الكثيرين فما إن يحدثُ سوءُ فهمٍ، أو مشكلٍ تافهٍ حتى يقطعون الحكم بأنَّ الآخر قد تجنَّى عليهم وأنّه المخطيءُ دون مراءْ، ودون رويّةٍ وتعقّل، فإن جئتهم قائلاً: إنّكم المخطئون اتخذوك عدوّاً، وناصبوك الخصامَ، وعدّوك مناصراً حميماً للمخطىء.

ذات مرّة اتصلَ بي رجلٌ فقام يشتكي لي خصاماً حدث بينه وآخرَ من جنسيّةٍ أُخرى، وقد عرفتُ قبل أن يحدّثني عن أصل الخصام وما دار فيه من أسبابٍ أدّت إلى التشاجر، وبعد أن انتهى من كلامه قال لي ما رأيك فيما فعله؟ قلتُ له بهدوءٍ: لو كنتَ مكان الشخصِ الآخر فهل ترضى أن يفرضَ عليك آخرون ما يرون،

أو يتدخّلون في مسؤوليات عملك؟ فهبَّ صارخاً وقال: إذاً أنت تقفُ إلى جانب الشخص الآخرِ مليونٌ بالمائة وأعلمُ أنّه قد تهرّب من الإجابةِ التي يُدركُ أنّها لغيرِ صالحهِ لأنّه يعلمُ في قرارةِ نفسه أنّه المخطيء، وأستذكرُ في هذا المقامِ مقولةً للإمام الشافعي يقول فيها: «ما جادلني خصم إلا وتمنيت أن يظهر الله الحق على لسانه» فأين منها الرّجل؟! وكيف تكون الحقيقةُ ضالّةٌ المؤمنِ وهو يجادلُ عن عصبيّةٍ بغية الإنتصارِ لنفسه من الآخر؟!

وفكرةُ (الآخر المخطيء) هي مما يجلبُ التعصُّب المذموم لرأي وقولٍ والتّعصُّب بابٌ من أبوابِ الجهل، إذ هو يصدُّ ما خالفه من الآراءِ ويقبلُ ما يوافقهُ من الأقوال، وكم رأينا أن كثيرين ممن ابتلوا بهذه الفكرة سرعان ما يرمون بالتّهمةِ نحو الآخرِ لمجرّد أن يحدث لهم أمر لقد حدا بهم هذا الأمر إلى الغفلان عن عيوبهم، والزوغان عن مثالبهم إن الآخر في نظرهم هو الذي يرتكبُ الأخطاءَ وهم بريئون منها، الآخر هو الذي يحيدُ عن الطريق وهم في جادّته، ووالله لو نظروا إلى نقاط الإتفاق لوجدوا منها الكثير ولاستطاعوا أن يوظّفوها لصالحِ علاقةٍ مشتركةٍ، ويستثمرها لتعارفٍ دائم، وتعاونٍ مستمر، «فكلُّ إنسانٍ يبحث عن إدارة حوار هادفٍ مع خصمه ينبغي عليه أن يتحلّى بالصّبرِ والوفاءِ والإخلاصِ والرّغبةِ في التفاهم»[1] فالتفاهمُ هو خيرُ وسيلةٍ لمعرفةِ نقاطِ الإختلاف، إن الحقَّ حينما يؤتى إنساناً فإنّه لا بدَّ وأن يوظّفه توظيفاً صحيحاً لنفسهِ أولاً قبل أن يرمي الناس بالتُّهم والتقصيرِ وإننا إن لم يكن الصّبرُ والإخلاصُ والرغبةُ في التفاهم لنا شعاراً فلن نستطيع أن نكسبَ قلوب أحد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾[2].

وفكرةُ (الآخر المخطيء) تصدُّ عن إتيانِ العلم، واستخبارِ اليقين، والله سبحانه

---

(١) ديل كارينجي «كيف تكسب الأصدقاء وتؤثّر في الناس» مكتبة النافذة.

(٢) سورة الحجرات: الآية ١٣.

وتعالى أمر باجتناب الظنِّ، وترك التّجسسُّ، والغيبة، يقول تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾[1]

هذه الخصال المشينة هي نواتجِ من فكرة (الآخر المخطىء) فالرّجلُ يظنُّ بزوجتهِ ظنّاً، فيتجسّس عليها، والزوجةُ تفعلُ مثل ذلك.

ذات مرّة شكى لي أحدٌ زوجتهُ واتّهمها بالخطأ في حقّه، فلمّا أقعدته مكانها وطلبتُ إليه أن يتصوّر الوضعَ وجدها أنّها على حقٍّ وأنّه المخطىء، الغلبةُ عندنا في الثقافةِ وليس في الدعاوي القضائيّة فإن أيّة مشكلةٍ تحدثُ بين ابنٍ وأبيه فالابن المخطىء، وإن حدثت بين المدير وموظّفه فالموظّف مخطىء، وإن حدثت بين الزّوجِ وزوجتهِ فالزوجةُ المخطئة.. هذا هو الإنطباعُ الأوّلي الذي إن لم تصرّح به النفوس جهراً، فهو يتردّدُ داخلها، أي أنَّ الطّرف الأضعف هو المخطىء، وأقول بأن هذا في السائدِ الثقافي الذي جُبل عليه المجتمعِ وليس في قاعات المحاكم فتلكَ تنظرُ بموضوعيّةٍ وحياديّةٍ، بعيداً عن النزعات النفسيّةِ، والطباعِ الإجتماعية سادت ثقافة التخطئةِ للآخر، قبل معرفة الدلائل والبراهينِ، قبل الإستماعِ إليه، وتفهّم وجهةِ نظره.

في إحدى المؤسسات اشتكى موظّفون بمديرهم فما كان من مسؤولهم الأعلى إلاّ أن يوبّخهم على الجرمِ الذي فعلوهُ، ويقنعهم بأنّهم مخطؤون لأنّهم شكوا، وقد ظنوا أنّه سيتفهّم شكواهم، إن كثيرين ممن لا يتقبّلون الخطأ، ويرونه في الآخرِ دون مراء قد اقفلوا أبواب عقولهم، وأصمّوا آذانهم عن سماعِ حجج الآخرِ، وبراهينه.

في أحد البرامج العربيّة كان المذيعُ يلقي على ممثل إحدى الجماعات التي لها مواقف من بعض الصحابةِ حجّة بليغةً حين قرأ عليه الآية الكريمة:

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ

(١) سورة الحجرات: الآية ١٢.

رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾[1]

ثـم سـأله: ألا يكفيـك ذلـك حجّة في قـدر هـؤلاء الصحابة؟! لكـن الطرف الثـاني كان يـدور في حلقـةٍ فارغـةٍ من الـكلام المحبـوك زيفاً ولغـواً، وذلك شـأنُ من لا يريـدُ اتباع الحـقّ، وليـس في عقلـهِ سـوى أنّ الآخر هـو المخطىء دون ريب وإنني لأشـعرُ بالأسـى حينـما يـصرُّ طـرفٌ عـلى الخطـأ بزعمـهِ أن الآخـر مخطـأٌ، فيحيـا عمـره وهـو يسـتحضر الأدلّـة والقرائـن التـي تدحـضُ رأي خصمـه ولا يتتبـعُ تلـك التي تقرّبـه إليه.

يحكـى أنَّ أخـاً كبـيراً تخاصـمَ مـع أخيـه الأصغـر بعـد عمـرٍ طويـلٍ مـن التآلـف الوداد والمحبّـة فطلـب مـن عامـل بنـاءٍ أن يبنـي جـداراً عاليـاً بـين مزرعتـه ومزرعـة أخيه ثم سـافر وحـين عـاد رأى العامـل وقد بنى جـسراً بدل الجـدار، حينهـا أسرع الأخ الصغير جريـاً إلى أخيـه يشـكره لأنّـه بنى جـسراً لحرصه على اسـتدامة العـشرة بينهـما، إنَّ الجسرَ وحـده القـادرُ على توضيحِ وجهـاتِ النظرِ، وتوصيـل الرؤى إلى الآخـر لا الجدار الذي يصـدُّ كل نسـمةِ هـواءٍ عليلـةٍ أن تهـبَّ، ويـردّ كل رغبـةٍ في النفـس للتآلـف والتعايـش الجسر وحده.

إن الإنتصارَ للنفسِ لا يسـتوجبُ الإنفعال وإنّما التّروي والرَّشـد، والتّفكّر في العواقب، ولذلـك فإنّـه يتوجّـبُ على المرءِ قبـل أن يُلقـي بالتّهمةِ عـلى الآخرِ بالخطـأِ أن يكون على درايـةٍ فيما يقـول، ولمن يقول فـإن قاله لحليمٍ هجـره، وإن قاله لسـفيهٍ آذاه.

قالـت لنـا ذات مرّة بروفيسـورة إنجليزيّـة «لقد كنـتُ أُجهدُ نفسي قبـل كلّ مؤتمر بجمع الدلائـل والقرائـن لإثبـات خطـأ منهجٍ مـا، لكنني بعد تجـارب وصلـتُ إلى حقيقةٍ مثلى هـي أن أقـدّم رؤيتـي دون التّعرض لأفـكار الآخرين قائلـةً: هذه نظرةٌ أخـرى للعالم»

نعـم لنا أن نقـول آرائنـا، وأفكارنا مسـتحضرين القرائـن والبراهين المسـاندة، ولكن إن نحـن عرضناهـا بطريقـةٍ إسـتفزازيّة نفّرنا الآخريـن منها، أمّا لـو عرضناها بـأدبٍ جمٍّ، وخُلقٍ حسـنٍ فإنّا سنكسـبُ قلـوب وعقول الأطـراف الأُخرى بخلقنـا وطريقة جدالنا

(١) سورة التوبة: الآية ١١٧

قبل أدلّتنا.

ذات مرّة كتبَ أحد الكتّابِ مقالةً في عملٍ فنيٍّ وأهال من ذكرِ المثالبِ فيه، فرددت عليه بأننا ارتكبنا أخطاءً أكثر مما ذكرت وليس في هذا اعتراضي إنّما في أُسلوب الطرح، ولغةِ التّسفيه والتجريح.

ويقولُ أحد الأصدقاء وهو مديرٌ في إحدى الجهات أن مديراً إتصل به وأخذ يخطئه بأسلوبٍ ساخرٍ على مسمعٍ من منسّق مكتب المتّصل، متلذّذاً بإكتشاف خطأ الأوّل، ومستمراً توبيخه لما كان يظنّه خطأً إرتكبه الأوّل يتعلّق بتحديد مكان اجتماع ما، يقول ذلك وهو يضحك مع منسّقه.

يقول الصديق: لقد حنقتُ على هذا الذي يتلذّذ باصطيادِهِ لخطأ وهمي وكشفت له لاحقاً أنّه هو المخطىء لكن بعد أن فترت العلاقة بيننا.

إن الأفكار التي تعشِّش في أذهان الكثيرين عندنا هي أنّ الآخر مخطىء والخطأ لا نعني به الأمور العقائديّة فتلك حسمها الإسلامُ عقلاً وفطرةً وروحاً، إنّما في قيم التربية، التعامل، الحوار، الإدارة وغيرها وغيرها فتخطأة الآخر تبدأ عندنا في البيوت، والمدارس ومؤسسات العمل، ولذلك ترى أنّ كل من يتبوأُ منصباً في المؤسسات المختلفة هو في نظر الكثيرين مخطىء حتى لو كان يصل ليله ونهاره عملاً ونصباً، وإتقاناً وإخلاصاً، ودقّة وحرصاً، ينسجون حوله الشائعات، ويرمونه بالتّهم بغيةَ إظهاره على خطأ رغماً عنه، وتخطأةُ الآخر عندنا تمتدُّ إلى الشعوب الأجنبيّة التي غدت شمّاعة نعلّق عليها أخطاءنا.

فكم سمعنا من يقول: إن الشعوب الفلانية هي سبب مصائبنا، وحين عشنا بين هذه الشعوب الأجنبية والأوروبية بالأخصّ وجدناها قليلاً ما تعرفُ شيئاً عنّا، فهم منغمسون في حياتهم لا يعنيهم أمرنا شيئاً، بل هم أنفسهم ضحايا التيّار الجارف الذي سلكوه وإنني لأرى أنّ من الأحرى أن ندعو لهؤلاءِ بالهدايةِ للإسلامِ بعد أن ندعو الله أن يصلح أحوال المسلمين ويردهم إلى دينه رداً جميلا ويعيدهم كما كانوا

أعـزة بدينـه قبـل أن ندعو على الآخريـن، وإذا كان الإسـلامَ هو أكثر الأديان انتشـاراً في الغـرب فإننـا مـن الواجـب أن ندعو بهدايةِ هـؤلاء إلى الإسـلامِ وليس إلى تجميـد الدماءِ في عروقهـم دون اسـتثناءٍ -إلاّ مـن بغـى وطغـى، فكثـيرٌ منهـم ما يصـدّه عن عبـادة الله سـوى أنّـه كان مـن قـوم كافريـن وحالهـم هـذه كحال بلقيـس ملكة سـبأ حين قـال الله تعـالى عنهـا: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ٤٣﴾[1].

ولي جـارٌ ملحـدٌ قـال لي أنَّه مـع إلحـاده فإنّه منفتـح العقل أمـام الأفكار الأخـرى، ومن هنـا مدخـلُ الحـوار مع هـذا وأمثالـه والخطـأ الكبيرُ يقـعُ على المسـلمينَ الذيـن يتوجّبُ أن ينـشروا الدّيـن بسـلوكهم أولاً، والجـدال الحسـن لقـد وقـفَ أحـد التجـار العمانيين في أفريقيّـة ويُدعـى الشـيخ أحمد بـن إبراهيـم مجـادلاً بطريقةٍ حسـنةٍ ملكَ بوغنـدا حينما أصـدر هـذا الأخـير أوامـره بالقيـام بمذبحـةٍ تماشـياً مـع متطلبـات وطقـوس الديانـة الوثنيـة الأفريقيـة لوبـاري (Lubaare) قائـلاً لـه: «مـولاي إن هـؤلاءِ الرعايـا الذيـن تسـفك دماءهـم كل يـوم بغير حق إنـما هم مخلوقـات الله سـبحانه وتعالى الـذي خلقك وأنعـم عليـك بهـذا المملكـة»، هذا الأسـلوب الرقيـق جعل الملك يسـتمع ويتسـاءل في حـيرةٍ عـن الله حتـى علَّمه الشـيخ مبـاديء الدين الإسـلامي وأربعـة أجزاءٍ مـن القرآن الكريـم قبـل وفاته[2].

إن تقويـم الخطـأ البـيّن أو الـردِّ عـلى التّجنـي الصريـح لا يكـون بمثلـه لقـد شـاهدتُ بعـض الحضـور مـن الطـلاّب العـربِ في أمريـكا وهـم يحتجّـون بالصريـخِ عـلى أحـد الدبلوماسـيين الذيـن يمثّلـون دولتـه التـي تحتـلّ بلـداً عربيّـاً ويطـردون الواحـدَ بعـد الآخـر كـما أنّهـم أثاروا حنـق رئيـس الجامعة وأسـتاذتها والحضـور، نعم لديهـم الحقُّ في قضيّتهـم المصيريـة كـما نرى نحـن العرب ولكـنّ يتوجّب المقـام أن يتم التحـاور بالمنطقِ فالدبلومـاسي قـال للحضـور: «إن الشـعب العـربي مضيـافٌ فحـين تزوره تصبـحُ أنت

(١) سورة النمل: الآية ٤٣

(٢) المؤثـرات الحضاريـة العمانيـة في شرق أفريقيـة في ظـل دولـة البوسـعيديين ، فصـل في كتـاب عـمان في التاريـخ، وزارة الإعـلام، دار أميـل للنـشر ، لنـدن١٩٩٥.

صاحب البيتِ وهو المضيف، ولذلك أتمنى - وهو يوجّه كلامه للطلاب العرب - أن تعاملوني ضيفاً وأنا في بيتكم قاصداً الجامعة» إن رجلاً كهذا يجب التحاورُ معه بالعقلانيّة والمنطق وليس بالفوضى والصريخ.

فالرئيس التركي (رجب طيب أردوغان) حين لم يمنح الفرصة للرد على الرئيس الإسرائيلي انسحب من المنتدى الاقتصادي الذي يعقد في مدينة دافوس (Davos) السويسرية، حينها صفق له العالم واستقبله شعبه، إمّا أن نتحاور بالمنطق أو أنسحب بكرامة هكذا بنى قراره.

ويتناقل البعض مقالاً يُزعم أن كاتبه الإنجليزي قد عاش في الخليج أكثر من ثلاثةِ عقودٍ ثم ذكر الخصائص السلبيّة التي شهد عليها في المجتمع الخليجي، وبعدها تناقلوا ردّاً من أحد العرب عليه ذاكراً سلبيات المجتمع الإنجليزي، وقد امتعضتُ لذلك أيّما امتعاض فإذا كانت تلك خصلته فهل نردُّ عليه بمثلها؟ هذا إن كان المقالُ المزعوم صحيحاً في الأصل.

إن رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم يقول: «لا تكونوا إمَّعة تقولون إنَّ أحسن الناس أحسنَّا وإن ظلموا ظلمنا ولكن وطِّنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا»[1]، وهذا من قوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[2]

إن الحلمَ غايةٌ في الرّفعةِ، وآيةٌ في الجلالِ، وهو مكبحُ النفس عن الإنفعالِ في الحكمِ، وعقالُ العقل عن الإنزلاق في الإثم، كما أنّ الحكمةَ هي تاجُ القرارِ، فهي الحامي عن التهوُّرِ والإنجرار، ولهذا وجبَ التّعقل قبل اتهامِ الآخر بالخطأ، والتروِّي قبل كيلِ التسفيهِ برأيهِ، فكم من إنسانٍ مخطىء لم تردّه الحجّة المقنعةِ إلى الصوابِ بل الأسلوبِ وإن ضعفت حجّته، وكم من مخطِّىء هو أدهى خطأً، وأمرُّ جُرماً ممن يتّهم بالخطأ، وهؤلاء كشأن ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ

(١) سنن الترمذي.

(٢) سورة البقرة: الآية ٨٣.

صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾[1]، كما وجبَ التعاطي مع المخطىء بلسان فكرهِ، ومجرى منطقهِ، فلربَّ ذلك معينه على التفكيرِ في موقفهِ.

كنتُ أطمحُ أن يتغيَّر أمرٌ هامٌ فينا كلّما ظهر جيلٌ جديدٌ من بيننا، هذا المطمحُ هو أن يتحمّل الإنسان منّا أيّا كان جنسه مسؤولية أخطاءهِ، ويُعلنُ عنها، ويأسفُ لها، ويراجعها، ثم يقوم بإصلاحها، إنّما لم أرَ ما أطمحُ إليهِ مترسّماً طريق الواقعِ بعد، وهذه مصيبةٌ ومعضلةٌ عظيمة، أينَ هذا الذي يعترفُ بالخطأ كلّما وقعَ دون أن يسوقَ الأعذار والمبرّرات والدوافع حتى تتراكم قائلاً: آسف ولكن.. ثم كأنّه لم يتأسّف كأنّه لم يخطأ، وكأن ابن آدم ليس خطّاء، قلتُ أنّها مصيبةٌ ومعضلةٌ عظيمة لأنّ لها انعكاساتٍ غير وخيمة، فعدمُ الإعتراف بالمسؤوليةِ خداعٌ للنفسِ، وتمويهٌ للعقلِ، ومكرٌ بالحقيقةِ، ودسيسةٌ للفضيلةِ، وزيفٌ للشخصية، ولو أنّ كلّ إنسانٍ وقفَ معلناً مسؤوليته المباشرة أو الأخلاقيّة عن خطأ وقعَ،أو مشكلةٍ حدثت، أو موقفٍ وخيم نتج لعاشت المجتمعات في رقي حضاري ما بعده رقي، أمّا لو كان العكس أي أن ما حدث نصراً، أو مجداً، أو فوزاً، أو إنجازاً أو كشفاً فلا تحصي عدد الرؤوس التي تظهر، «فالنصرُ له ألف رأسٍ والهزيمةُ لها رأسٌ واحد»

كلٌ يجادلُ في أنّه صاحبُ ما تحقّق، مفتخراً به وهو في الحقيقة لم ينلُ منه طرفاً، وهذه مشكلةُ تربيةٍ وتعليم، فلو تربّى كلّ جيلٍ على إدراك معنى المسؤوليةِ، وتحمّل الخطأ إن وقع، ومواجهةِ الذاتِ، ونقدها لصلح شأنه، فمن الحكمةِ أن نعلم بأنَّ الله سبحانه وتعالى قد حمّل الإنسان المسؤولية قبل أن يظهر كائناً في الوجود حيث قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾[2].

كثيرون ممن يجادلون بغير علم، إنّما يجادلون سفهاً وانتصاراً لأنفسهم كي لا يظهروا

(١) سورة الكهف: الآية ١٠٤.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٧٢

أنّهم قد هزموا أمام النّاسِ، أين هؤلاءِ من مقولة الإمام الشافعي رحمه الله: «والله ما جادلتُ أحداً إلاّ تمنيت أن يظهرَ الله الحقَّ على لسانهِ دوني»، والمرءُ يصبحُ سفيهاً إن جادلَ لغرضٍ في نفسه، أو دافعَ عن خطأٍ ارتكبه، أو نافح عن حماقة، وكم من النّاس عندنا من يرتكبون الأخطاء ثم يتشبّثون بالباطل بكل ما تملكُ قواهمُ، كم منهم من يتسبّبون في مصائب ومشاكل ثم يلقونها على آخرين، معدّدين أعذاراً لاتحصى، وأسباباً لا تعدّ، حتى أصبح من الشائعِ أن ربَّ البيتِ والمسؤول والمعلّمُ وصاحبُ المؤسّسةِ لا يخطؤون إنّما من يخطأ هم من يقعون تحت مسؤولية هؤلاءِ وكأن القمم أو الرعاةُ لا يشملهم «كلّكم راعٍ وكلّكم مسؤولٌ عن رعيّته»، وكأنّهم لم يسمعون اعتراف سيدنا عمر بن الخطابِ أمام جمعٍ من الصحابةِ والنساء: «أصابت امرأةٌ وأخطأ عمر».

أعجبتُ لقول أكاديميّة خليجية في برنامجٍ يناقشُ الإنحراف الفكري لبعض الشباب: أنّ هؤلاء هم نتاجُ تعليمنا وتربيتنا لهم»، فهذا منطلقَ العلاج، الإعترافُ بأساس المشكلةِ.

أن يقف إنسانٌ ما فيقولُ أنني مخطأٌ في الأمرِ الفلاني، واعتذر فهو إنسانٌ يستحقُّ التقدير، فـ«كل بني آدم خطّاء وخير الخطائين التوّابون»[1]،فهو إنسانٌ يحترمٌ ذاته، ويقفُ شامخاً لا ذليلاً ليعترفَ بما اقترفه فالإعترافُ بالذنب فضيلة..

قليلاً ما يعترفُ أبٌ أمام أبنائه، وقليلاً ما يعترفُ مسؤولٌ أمام موظفيه عن إساءةٍ، أو إهانةٍ، أو حماقةٍ، أو سوءُ تصرُّفٍ، أو دسيسةٍ، أو غير ذلك مما يسيءُ إلى الآخرين، ظانّين أنَّ اعتراف الرّجلِ انتقاصٌ لرجولته.. وأيّةُ رجولةٍ هذه التي تتشبّثُ بالباطل؟! واسمع لبعضِ الخطباءِ والدعاةِ وغيرهم ممن يلقون اللائمةَ على الغرب والغربُ وحده يلجُّ في معضلاتهِ التي تشغله عنّا، ووالله إنّي لأتمنى أن تحلّ دعواتنا لإصلاح أنفسنا، ونقدها مكان اتهام الآخرين بأنّهم أساس مشاكلنا، وجرثومةُ تقهقرنا،هذا

(١) أخرجه الترمذي وابن ماجه.

الفكرُ السائدُ، نفي المسؤولية عنّا سائدٌ، فذلك العربي يقول لي: أمريكا هي السبب، فأقول له: اعذرني أن أخالفك، وأعد التفكير فيما تقول، وذلك الآسيوي يقول لي: إن المصيبة تكمن في دولٍ أخرى وأجهزتها الإستخبارية، فأقول له: لا أوافقك الرأي وأضفتُ قائلاً: أن الجسم إن كان قويّ المناعةِ لم تستطع الفيروسات مهاجمته، لكن إن ضعفت أجهزةُ المناعةِ فيه تداعت عليه الفيروسات وسحقته سحقاً.

لقد كان (ديل كارينجي) يحتفظُ بملفٍّ في مكتبه سجّل عليه أخطاءه وحماقاتَه التي ارتكبها على مدار حياته يقول: «وحين أقوم باستخراج هذا الملف وأعيد قراءة الإنتقادات التي وجهتها إلى نفسي أشعر بقدرتي على الإستعانة بعظات الماضي وعبره لمجابهة أقسى وأقوى المصائب التي أتعرض لها، وبعد اطلاعي أكثر من مرة على هذا الملف اكتشفت أن كل هذه الأخطاء كان مسؤوليتي وليست مسؤولية غيرى وفي ظني أنَّ أغلب الناس أو فعلة ما فعلت لأدركوا ما أدركت».

لقد قال نابليون أثناء نفيه في جزيرة سانت هيلانه: «أنا فقط المسؤول الوحيد عن هزيمتي فقد كنت أنا أعظم عدوٍ لنفسي»

ومن الغرب نتعلّم دروساً في الإعتراف بالخطأ، ولستُ أحصي ما أملكُ من أمثلةٍ أو عدد من استقالوا بعد أن اعترفوا بأخطائهم[1]، آمل دائمًا أن يتغيَر فكرُ كل جيل لاحق عن سابقه ليكن أكثر إيجابية، وأكثر استفادة من تجاربه، فأنت لا تحدّث صبيّاً عن واقعةٍ تسبّب فيها أو خطأ ارتكبه حتى يتنصّل على الفورِ منه، ملقياً به

(١) في اليوم الذي كتبت فيه هذا الكلام بتاريخ ٩ نوفمبر ٢٠٠٩م، اعتذر رئيس الوزراء البريطاني علنا لأم بريطانية فقدت إبناها أثناء تفجير لغم في أفغانستان، واتهمت رئيس الوزراء بأن رسالة التعزية التي بعثها إليها كانت مخربشة بشكل سريع حتى أنها لم تستطع قراءتها وأن بعض كلماتها لم تكتمل كذلك لم يكتب الإسم الصحيح لإبنها، فما كان من رئيس الوزراء إلاّ أن خاطبها هاتفيّاً للإعتذار ثم أعلن اعتذاره الرسمي مبدياً أسفه على ذلك ومعلّلاً بأن ذلك خطأ غير مقصود فقط كان صادق النيّة ولم يكن ينوي الإساءة إلى أحد.

إلى أقرب أقرباءه ولا تكادُ تنصحُ شاباً لخطأ حتى يثور مدافعاً، ولا تفهم العمومية من وراء ذلك، ولكن قصد القول وموجزه هو «عدم وجود ثقافة الإعتراف بالخطأ في مجتمعاتنا منذ النشأ»، وهذا حدا بالكثيرين منّا إلى أن يكون مزدوجين، يرتكبون الخطأ، ويتّهمون الآخر بأنّه السببُ فيه والله يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[1] وفي المجملِ فإن سادت ثقافة الإعتراف بالخطأ، واعتبرت فضيلةٌ من فضائل الأدبِ، وخصلةٌ حميدةٌ من خُصل الأخلاق، فإن ذلك سيكون في خير المجتمعاتِ ولطف حضاراتها.

(١) سورة الزمر: الآية ٧.

لا تكن سلبياً:

«يمكنك صنع الفرص بالعملِ لا بالشكوى»

Muriel Siebert

تجمعك الحياةُ بأشكالٍ وأنماطٍ من البشرِ ذوي طبائع وأخلاقياتٍ متفاوتةٍ من هؤلاءِ سلبيُّون كثيراً ما ضيَّعوا قدراتهم، وأضلّوا أنفسهم لأنهم فقدوا أصواتهم في الحياة، والأدهى أنّهم يرون الآخر بالعينِ السّلبيّةِ التي تبحثُ فيه عن الأخطاءِ، وتنقِّبُ فيه عن المعايب، وأكبرُ ما يحطّم المرءَ إشعارهُ بأنّه تافه كما يقال في حين يجيد هؤلاءِ السلبيُّون فنّ اختراعِ العيوبِ وإغلاقِ الأبوابِ على الحلولِ، نظراتهم للحياةِ سوداويّة، وللناسِ سلبيّة، تغلبُ إنفعالاتهم عقولهم، وتسبق ألسنتهم تفكيرهم، فلا يتريّثون في الكلامِ ولا يتأمّلون في العبارة، ولا يكترثون فيما يتركون من آثارٍ مقيتةٍ في القلوب فكلَّ همّهم إبراز وجهة نظرهم السلبيَّةَ، وطرحِ آرائهم المعارضة، وهي مشروعةٌ لو كانت أمينةً تأخذ في الإعتبارِ الوجه الإيجابيَّ والعناصر المشرقة، لكنّ طبائعهم تعكسُ نظراتهم للحياةِ، وانغلاقهم حول أنفسهم، إنغلاقاً يصوِّر ما خارج هذا المحيط الضيِّق بأنّه السواد الكبير، وأن المحيط الضيّق الذي يقعون فيه هو نقطةُ الضوء الساطعة التي تنزّلت فيها الحقيقة، وأُلهمت بالحكمة.

هؤلاء يحبُّون المشي دائماً عكس التيَّار، وعكس المارّةِ وكأنهم لا يخالفون إلاّ ليعرفوا جرياً على قاعدة المثل: «خالف تعرف».

وجدتُ الكثيرين منهم وقد بان التقطيبُ على جبهاتهم، وهم إن اضطروا للإبتسامِ أو الضحك اضطروا متكلِّفين لأن الآخرين الإيجابيين نظروا للأمر من زاويةٍ جميلة.

يقول إيليا أبو ماضي ناصحاً أحد هؤلاء:

أيهـــا الشـــاكي ومـــا بـــك داءٌ
كيـــف تغـــدو إذا غـــدوت عليـــلا
هـــو عـــبء عـــلى الحيـــاة ثقيـــلٌ
مـــن يظـــن الحيـــاة عبئـــا ثقيـــلا
فتمتـــع بالصبـــح ما دامـــت فيـــه
لا تخـــف أن يـــزول حتـــى يـــزولا
و إذا مـــا أظـــل رأســـك هـــم
قـــصِّر البحـــث فيـــه كيـــلا يطـــولا

ويقول المتنبي مسفِّهاً، وضارباً في الحائط برأيهم لأن خبر نواياهم، وعلم طبائعهم:

وإذا أتتـــك مذمّتـــي مـــن ناقـــصٍ
فهـــي الشـــهادةُ لي بـــأنّي كامـــلُ

وقال محذراً سيف الدولة الحمداني منهم:

أُعيذهـــا نظـــراتٍ منـــك صادقـــةً
أن تحســـب الشـــحم فيمـــن شـــحمه ورمُ

فما كان عملُ هؤلاءِ إلاّ البحث عن شاكلةِ المعاني التي قالها شعراء قبل المتنبي كي يتّهموه بالسّرقة، والمعاني كما قال أبو الأسود الدؤلي: «مطروحةٌ على قارعةِ الطريق» لا تكن سلبياً.. فالسلبيُّون أثقلوا على أنفسهم، وأنهكوها بالخذلانِ وحطّموها بالرّسائل السلبيةِ، وبدل أن يغذّوا أنفسهم بالفكرِ الإيجابيِّ المشرق وتستنشق أنوفهم نسائمَ الوجود الجميلةِ، ويتّبعوا نصيحة الرسول صلى الله عليه وسلم النفسيّة في قوله: «تفاءلوا بالخيرِ تجدوه».

في هذا الحديثِ مربطُ العلاجِ النفسي الناجع حيث يعني أن تغذية النفسِ بالرّسائل

الإيجابيةِ، وحملها على التفاؤل هو حافزٌ عظيم لبلوغ الغاياتِ والمطامح، ولكنك تصادفُ في يومك من تسألهُ عن حالهِ فيردُّ عليك في تناقضٍ وامتهانٍ للنفس: «زفت والحمد لله»، وليتهُ شكرَ الله على نعمةِ الصحّةِ وهو صادق.

وكثيراً ما أرى أحد الشباب وكأن هموم الدنيا قد أُلقيت على ظهره فناءَ بحملها، فبدا مقطّب الجبينِ، مهزوز اللسانِ، محطّم النّفس، فأعودُ أسألُ عن حالهِ فإذا بحالهِ قمينةٌ بأن يتصف بها أسعد النّاس، وأسعدُ الناس من وصف النبي صلى الله عليه وسلم حالهم بقوله: «من أصبح آمناً في سربهِ، معافاً في بدنه، عنده قوت يومه، فكأنّما حيزت له الدنيا بأظافرها».

لكن المصيبةَ أن السلبيُّون لا يرونَ أنعم الله فيهم وعليهم وحولهم، بل يرونها في غيرهم، ولا يفكرّون فيما لديهم بل فيما ينقصهم، والشاعرُ بالنقص لن يصل إلى قناعةٍ ورضا واطمئنان.

يقول عالم النفس (وليم جيمس): «إننا نحن البشر نفكر فيما لا نملك ولا نشكر الله على ما نملك، وننظر إلى الجانب المأساوي المظلم في حياتنا ولا ننظر إلى الجانب المشرق، ونتحسر على ما ينقصنا، ولا نسعد بما عندنا».

يقول الشاعر:

من راقب الناس مات همّاً

وفاز باللّذةِ الجسورُ

لا تكن سلبياً.. فالسلبيُّون قانطون يائسون، وهؤلاءِ مناقضون للإيمان، فالله سبحانه يقول: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾[1].

هذه الآية قيلت على لسان سيدنا يعقوب عليه السلام، والذي لم يفقد تفاؤله يوماً حتى استعاد يوسف وأخيه كما استعاد بصره وكافأه الله على روحه الإيجابيةِ بأنعمٍ

(١) سورة يوسف: الآية ٨٧.

عظيمة، متّبعاً كلام الله: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[١]

لقد تربّى بعض السلبيين على ثقافة المثل العربي«اللي ما تلحقه كسره» حيث ينطوي المثل على فكرة إعاقة الناجح المتميّز حين لا يستطيع الآخر مجاراته أو تحقيق الإنجاز الذي يسعى لتحقيقه، وهذه الفكرة لا تزرع في الإنسان الإيجابية في التعامل مع الناجحين والتعلّم منهم واكتساب الخبرة من تجاربهم وإنّما تحضُّ على إعاقتهم وعدم تمني الخير لهم كما يقول أبوفراس الحمداني:

معللتي بالوصلِ والموت دونه
إذا متُّ ظمآناً فلا نزل القطرُ

وفي الغرب مثل يعاكس هذا المثل السالف وهو: (if you can not beat them join them).. ويعني: إن لم تستطع هزيمتهم فانضم إليهم مما يعني أن تكون إيجابياً مع الآخرين المتميزين، إذا نظرنا للمثل من الناحية المحققة للنفعية الإنسانية الخالصة، ولم ننظر إليه من جهةِ الإشتراك في الفساد نظراً لقوة الطرف الأول ونفوذه الذي لا يمكن مقاومة شروره إلاّ بالإستسلام له والسيرِ تحت لوائه، وعلى عكسِ هؤلاءِ فإن المبادرون ليسوا سلبيّين، إذ لا ينشغلون بالمشاكل بل بانتهاز الفرص، حتى مع وقوعِ الأزمات أو المحن فإنّهم يبحثون عن الفرص داخلها وكيفية توظيفها فيما ينفع، وهم في ذلك متّفقون مع المثلِ القائلِ: «الخيرُ من بطنِ الشرّ»، هذه النفسية الإيجابية هي نتيجة قدرتهم على التحكّم الذاتي في استجابتهم للمواقف، والسيطرةِ على انفعالاتهم.

(١) سورة إبراهيم: الآية ٧

لا تحمل فوق رأسك جبال التوافه:

على الإنسان عدم التفكير في توافه الأمور والبحث عن الهدوء بأي ثمن.

دراسة في قسم حماية الذاكرة في معهد مايو كلينك في مينسوتا الأمريكية

عاليةٌ هي جبالُ التَّوافهِ التي نجلسُ عليها نحنُ البشر وكأننا نجلسُ على قمةِ مجدٍ لا نريدُ مفارقتها، نصيخُ لصوتِ التوافهِ، نكترثُ لها ننهزم، نستسلمُ، ننهارُ، ننسى خصالنا، نفارقُ شخصياتنا، نعطّلُ عقولنا لأنّ التوافهَ تتكلّم، ونحنُ يجبُ أن نستمع بإنصاتٍ شديد، فكم أضعنا أوقاتاً ثمينةً ونحن نرقُّ السمعَ لها، ونتتبّعُ أثرها، ونقتفي هسيسها، ونتلمَّسُ الطريقَ نحو مصدرِ طبولها وقعقعتها، أوقاتاً لو كنّا استثمرناها لأثمرت، ولو استغلّيناها لأنتجت، أوقاتاً أضعنا فيها أعمالاً عظيمةً، وأهدرنا فيها طاقاتٍ خلاّقة، توافهٌ نسلّمُ لها قيادَ مشاعرنا، وتوجيهِ قراراتنا، والتأثير على انفعالاتنا وهي في الأصلِ فقاعاتٌ مجوّفة، كبُر حجمها بفضلِ الهواءِ الذي منحناها إيّاه، نعيشُ عليها، وندافعُ عنها، ونختصمُ بسببها، ونتعاركُ من أجلها، وهي ليست سوى توافه.

كم تخاصمَ الناسُ، وخسروا بعضهم البعض، وامتلأت حشاشات قلوبهم ضغائنَ، وأحقاداً، وتحاسداً، وهجراً، ومحاكمَ، وخصوماتٍ ممتدّةٍ ومعاركَ لا تنتهي بسببِ التّوافهْ، والحياةُ التي تُنبت هذه التوافه لا تساوي جميعها عند الله جناح بعوضة، فأين تقع منها كلّ هذه التّوافه والله يأمرنا بتجنّب هذه التّوافه بقوله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾[1].

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١٢.

وجدتُ كثيرين ممن تؤثِّر فيهم التوافه، فتترك فيهم أثراً لا يندملُ إلاّ بمرور الزّمن ربّما، تعمي أبصارهم، وتعطّل عقولهم فلا يعودون قادرين على التمييزِ، ولا تحديدِ ردّةِ الفعلِ، ولا تقييم الحدثِ، ولا تبصّر العواقبِ، وإنّما يظلمونَ أنفسهم وربّما غيرهم برؤيتهم للنصفِ الفارغِ من الكأسْ، فلا يبصروا النصف المليء للكأس، هؤلاءِ وإن ظهروا لك في أوّل الأمر أنّهم شامخو القامات، إلاّ أنّ القلق سرعان ما يستبدُّ بهم، ويستشري بعقولهم، ويستولي على قلوبهم، ثمَّ يدبُّ مرضاً ينهك أجسادهم، هؤلاءِ كالشّجرة العظيمةِ التي عاشت مئات السنين في إحدى غابات الصين كما يذكر (ديل كارينجي) وقد أضحت من أعظم الأشجار وأطولها وواجهت على مدى مئات الأعوام أهوالَ الطبيعةِ المختلفةِ حيث الرِّياح العاتية والعواصف المدمرة والصواعق الحارقة، وبالرغم من كل هذه الكوارث بقيت صامدةً، واقفةً بكل شموخ وكبرياء، كالجبل الأشمِّ وكالطَّود الثَّابت لم يتحرك لها غصن ولم يتزحزح فيها جذر، ثم فجأة، استسلمت لهجوم ضارٍ من صغار الحشرات وهوام الأرض فلم تزل بها تنخرها، وتقرضها حتى نالت منها وأسقطتها، حالُ أولئكَ الناس كحالِ هذه الشجرة، فقد يصمدون لكبار نوائب الدهرِ ومصائبه وعظام الأحوال والمحن، ولكنّهم يسقطون لتوافهِ الأمور، إنّما كيف يستبدُّ القلق بمصلٍّ يوجّه وجهه للقبلةِ، والربُّ الكريم الذي يولي وجهه له يقول: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ٤﴾[1].

ويقول: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ٣﴾[2].

يقول ابن القيم: «في القلب شُعث لا يلممه إلا الإقبال على الله، وفي القلب وحشة لا يزيلها إلا الأنس بالله، وفي القلب خوف وقلق لا يذهبه إلا الفرار إلى الله، وفيه حسرة لا يطفئها إلا الرضا بالله عز وجل».

---

(١) سورة الطلاق: الآية ٤.

(٢) سورة الطلاق: الآية ٢-٣.

وكيف لتابعِ سنّةِ محمدٍ صلى الله عليه وسلم أن تهدمَ روحه التّوافه ونبيّه يقول لإبن عبّاس وهي مقولةٌ للأمّة: «يا غلام إني أعلمك كلمات.. احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإذا اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك بشيء إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفّت الصُّحف»[1].

لا تحمل على رأسك جبال التوافه.. فلِمَ نَدع أنفسنا فريسةً تأكلها التوافه ولِمَ نسلّمها للقلقِ يساقيها السمَّ قطرةً قطرة، ولِمَ نترك الهمومِ كي تقرضَ أوقاتنا والأوقاتُ ثمينة، ولِمَ نكدّر قلوبنا والقلوبُ مضغٌ صافية نقيّة، ولم نخاصمُ من نحبُّ لتافهةٍ لا تسوى ذرةً من أثرهم في حياتنا؟!

أفلا ننظرُ من المنطادِ الذي طارَ بنا فوق الأرضِ فنرى حجمها وهو يصغرُ كلّما ارتفعنا، ويصغر معه حجمُ البشرِ وهم يدبّون فيها حتى يختفون، أهذا حجمُ الأرض التي تقلقنا، والناس الذين يتسبَّبون في همومنا؟!

---

(١) رواه الترمذي.

بياضٌ واسع مقابلَ نقطةٍ سوداء:

> وانْ كانَ لوني أسوداً فخصائلي
> بياضٌ ومن كَفيَّ يُستنزل القطْر
> عنترة بن شداد

من أعظمِ مصائبِ النّاسِ تتبُّع عثراتِ الآخرين واقتناصِ عيوبهم، وهذا يدلُّ على مرضِ القلوبِ، وجهلِ العقول وظلاميّة السرائر، وعمى البصائر.

يروي (كوفي عنان) الأمين العام السابق للأمم المتّحدة قصّةً ذات مغزىً يقول فيها: «كنّا في الخمسينات طلاّباً صغاراً في إحدى المدارسِ في غانا، وفي حصّة اللغة الإنجليزية وضعت المعلّمة أمامنا ورقةً بيضاءَ كبيرةَ الحجم، ثم نقطت في الركن الأيمن منها نقطةً سوداء وسألتنا: ماذا ترون؟ أجبنا جميعاً بصوت موحّد: نقطةً سوداء، فقالت معاتبةً: إذاً فما رأى واحدٌ منكم المساحة البيضاء الواسعة، وإنّما رأيتم النقطة السوداء، وأضافت: هذه طبيعةٌ سيئةٌ من طبائع الإنسان، فالناس لا يرون الخير في الأشياء وفي الصورة البيضاء الواسعة، فتخلّوا عن هذا الطبع في حياتكم».

لقد كان درساً بليغاً حمله معه كوفي عنان أكثر من خمسين عاماً، وهكذا ينبغي أن يحمله معه كلّ إنسان.

المتتبّعون للعثرات كُثرٌ من بيننا، يترصّدون بكَ الطرقات، ينتظرون منكَ زلّة لسان، أو خطأ فعل لينشروها كما ينُشرُ الغسيل على شرفات الشوارع فيجدون في هذا لذّة لأنفسهم، ودواءً يُشفي مرضهم، ويُسكّنُ تحرّقاتهم، يبحثون بين الأسطرِ عن «النقطةِ السوداء» كي تكتحل بها عيونهم، وتستريحَ أفئدتهم، وتهجعَ خواطرهم، هؤلاءِ كثرٌ في كلِّ مكانٍ، وبيئةُ العملِ هي المكان الذي فيه يرتعون، فكم يكثرُ المتجسّسون الباحثون عن «النقطةِ السوداء» والمتتبّعون للزلاّت في بيئاتِ العمل، أولئك الذين ما إن يظفروا بصيدٍ فاسدٍ وجرحٍ عفنٍ حتى يسارعوا بالثرثرةِ عند العامّة، أولئك

الذيـن مـا إن يكتشـفوا عيباً لإنسـانٍ حتى يسـارعوا بفضحـه، أولئك الذين مـا يزلّ لهم صديـق حتـى يهرعـوا في إثخـانِ جرحـه، أولئـك الذيـن يختلقـون الأقاصيـصَ الكاذبة والخزعبـلات الملفّقـة للآخريـن، هؤلاءِ كما قال شـيخ الإسـلام إبن تيميـة فيهم: «بعض النّـاس كالذبـاب لا يقعون إلاّ عـلى جرح».

ومـن أمثلـةِ هـؤلاءِ مديرٌ يتتبّـع عثرات موظفيـه، ويتجسـّس عليهم، مسـتلذّاً بأخطائهم كـي يرصّعها كالأوسـمة بـل كالذباب في تقريـر الأداء السـنوي فكم تـأذّى موظّفٌ من عيونـه، وكـم ضاقت موظّفـةٌ من تتبّعـه، هذا المديرُ انشـغلَ عـن الأخطاء التـي يرتكبها بتتبّـع عثـرات موظفيـه، فـكان ذلـك على حسـابِ مهامّـه لكن الله مكـرَ به، فصـدق فيه قـول بكر بن عبـد الله: «إذا رأيتـم الرجل موكّلا بعيوب الناس، ناسـيا لعيوبـه، فاعلموا أنـه قد مُكِـرَ به».

ولا ينجـو من»النقطـةِ السـوداء» مَـن تتبّعهـا في الآخرين فهـي حتـماً وراءه، تلاحقه أينما يكـون، ويصـابُ بالبـلاءِ كما سـخر من بـلاء الآخريـن واسـتهزأ بعيوبهم، يقـول الإمام مالـك بـن أنـس: «كان عندنـا في المدينـة قـومٌ لا عيوب لهـم فتكلّمـوا في عيـوب الناس فأصبـح لهـم عيـوب وكان عندنـا قـوم لهـم عيـوب سـكتوا عن عيـوب الناس فنسـيت عيوبهم»

إن أصحـاب القلـوب المريضة والجهـلاء هم الذين يسـعدون بالتقاطِ عيـوب الآخرين، التقـاطِ الفتـاتِ مـن الأرض، أو نصـبِ كمائـن لهـم كـما ينصـبُ قطّـاع الطـرق كمائـنَ للوادعـين، أو ترصّدهـم ترصّدَ المفترسِ لفريسـته، فماذا عرف المسـلم المـؤدي للفرائضِ مـن الإسـلامِ حـين يغـدو تتبـع عثـرات الخلـقِ به خُلقـاً، ومـاذا يجني مـن الأجـرِ الذي يطمـع أن يضـافَ إلى كتابـهِ وهـو يُرسـل الجواسـيس في إثرِ غـيره لكي يكيـدَ به.

في الغـربِ يتلهّـفُ الإعلامُ بتتبـع العثرات، وفضح الـزلاّت، فرئيس الـوزراء البريطاني السـابق»جوردن بـراون (Gordon Brown)فُضـح في زلّـة لسـان إثـر محادثـةٍ خاصّـة وصـف فيهـا إحـدى الإنجليزيـات بأنّها»امـرأةٌ متعصّبـة (bigoted woman) وأدى

تعاطى الإعلام مع هذه «النقطة السوداء» إلى رمي حجرٍ آخر في قاربهِ الغارق..!

ذات مرة نشرت صحيفة (الميل The Mail) محادثة خاصة أجراها رئيس الإتحاد الإنجليزي اللورد تريسمان(Lord Treisman)مع طرفٍ آخر قام بتسجيلها وربما «بيعها» إلى صحيفة (الميل Mail)البريطانية، اتهم فيها أسبانيا وروسيا بالتآمر لرشوة الحكّام في كأس العالم الذي أُقيم في جنوب أفريقيا، هذا النشر أدى إلى استقالة رئيس الإتحاد فوراً وأثار انتقاداً وسخطاً واسعين من العامّة على الصحيفة..!!

وإذا كان كذلك الحال في الكثير من الإعلام الغربي، فإن كل صحفي وإعلامي عربي مسلم لا بد وأن تكون المصداقية وتحرّي الحقيقة والنزاهة من أهم صفات مهنته..

إتّباعاً لأمر الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ٦ ﴾[1].

لكن كثيرين منهم يجرون وراء الشائعات بغية السبق الصحفي والإعلامي وهو سبقٌ لا يجلبُ إلاّ الخزي، والعار إلى المهنة، ولا يلحقُ إلا الذميمة والصغار بصاحبه.

كم للإنسانِ من أخطاءٍ والله لو انشغل بها لنسي عيوب الآخرين.. لكنّنا نشأنا في ثقافةٍ تغلّب على أكثرنا خطأ الغير، وتظهرُ عيوبه، وتطمسُ محاسنه، فإذا زلّ في خطأ استقرّت «نقطته السوداء» فلا يرون البياض الواسعَ فيه، فيأخذونهُ على جريرة هذه الزلّة، ولا يغفرون له ولا يلتمسون له العذر، بل يسعون إلى تكبيرها، وينسون فضله عليهم ويجتهدون- يالله من إجتهاد لفضحه أمام العالمين، أمَا والله لو ستروا عثرته، وطمسوا عيبه لرأوا منه الوجه الحسن، والمعشرَ الطيب فلا أحد يصل الكمال، فالكمال لله وحده.

يقول الشاعر:

عائب الناس وإن كان سليماً يستعابُ

---

(١) سورة الحجرات: الآية ٦.

والـذي يمسـك عـن عيـبِ الـورى سـوف يهابُ
مـا دخـول المـرء فيـما ليـس يعنيـه صـوابُ

فَلِـمَ يسـأل المـرءُ فيـما لا يعنيـه، ولم يسـتقصِ مـا لا ينفعـه، ولم يتتبّـع مـا لا يفيـده ففـي الأثـر «يبـصر أحدكـم القـذاة في عين أخيه وينسـى الجـذع في عينه)، ومن سـخر بعيوب النـاس سـخر الله من عيوبـه، ومن تتبّـع عوراتهم، تتبّـع الله عورته، وعجيـبٌ أمرُ بعض النّـاسِ يسـألون عـن أشـياءَ لا تنفعهـم، ويسـتقصون عـن أمورٍ ليـس لهم فيهـا ناقةٌ ولا جمـل، والله سـبحانه يقـولُ ناهياً:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾[1].

فليتَ الإنسـانَ يسـألُ في منفعـة، ويبحثُ في علم، ويسـتقصي في معرفة فلـو فعل لما آذى نفسـه، وآذى الآخريـن، المبـادرُ لا يتقـصى عيوب الناس، ولا يسـأل عن أشـياء لاتجدي لـه نفعـاً، فهـذه الشـواغل تنحـرفُ بـه عـن مسـار العمـلِ الجـاد، المترسّـم للأهـداف الواضحـة، أمّـا من يفعـل ذلك فأصحاب النفـوس الصغيرة التي لا همم لهـا ولا عزائم.

أعجبتنـي حكايـةً قصـيرةً سردها (كوفي عنـان) الأمين السـابق للأمم المتحـدة ذات يوم يقـولُ فيهـا: «حـين كنّـأ أطفـالاً في المـدارس في الخمسـينات مـن القـرن المـاضي، حـين أحـضرت معلمـةُ الفصـل وسـيلةً بيضـاءَ ورقةً بحجـم كبـير لا شيء فيه سـوى بياضها الطافـح، ثـم نقطـت نقطـةً سـواداء في وسـطها، وسـألتنا مـاذا تـرون؟ قلنا: نـرى نقطةً سـوداء، فـردّت: رأيتـم هـذه النقطـة السـوداء الصغـيرةَ ولم تـروا هـذا البيـاض الكبيرِ حولها»

حكايـةٌ صغـيرةٌ، قديمـةٌ لكنّهـا مؤثِّـرة، إذ لم ينسـها كـوفي عنـان لمـا يقـارب النصـف قـرن، فهـو يعلـمُ مـدى قيمـة ذلـك الـدرس، وتلك الحكمـة، ولهـذا اتّخذهـا عنوانـاً له في قيادتـه للأمـم المتّحـدة إبّـان فـترة وجـوده عـلى رأسـها، إنـما هـذا شـأن الكثيريـن في

(١) سورة المائدة: الآية ١٠١.

الجانب المقابل، أولئك الذين لا يرون غير النقطةِ السوداءِ، ولا ترى أعينهم البياض الشفّاف الجميل، هل لأنَّ مقلةَ العينِ سوداء والبياضُ المحيطُ بها مجرّدُ إطارٌ؟!

رؤيتهم لهذه النقطةُ السوداءِ التي قد تتخايل أمام أبصارهم وهي وَهْمْ يقلِّب قلوبهم بشكلٍ فجائي، غريبٍ، مستهجنْ.

يتقلب القلبُ دون أن يستشير العقل، ودون أن يستذكر البياض الساطع، الكاسحْ، ودون أن يتذكّر مقبلاتُ الأمورْ، وحال الحياةِ بعد النقطةِ السوداءِ التي رأوها، هؤلاءِ النّاس إن بدا لهم أمرٌ رأوا فيه النقطة السوداءَ دون أن يروا بياضه، فإذا مرضوا حزنوا للمرضِ، ولم يفرحوا لمحو السيئات أو يستشرفوا الدواءْ وإن ضاقت بهم الأحوال، تذمّروا من المعيشةِ ولم ينظروا لاتساع أرض الله وينبوع الرزق السيّال، الخالد فيها، وإن لم يحرزوا نجاحاً في أمر، نكسوا رؤوسهم ولم يتطلعوا إلى أبواب المحاولات المشرعةِ، وإن صادفتهم مشكلةٌ ما تملّكت أنفسهم فحملوا الدنيا على رؤوسهم فصاروا يضيقون بحملها، ولم ينظروا إلى الممكنات والإحتمالات والحلول، وإن أخطأ في حقّهم عزيزٌ سحقوا سيرته الجميلةَ في قلوبهم محواً وتسفيهاً بغلظةِ القلوبِ، وصلادة الكلمات، ولم يتمثّلوا سيرته الحسنةَ معهم، أو رفقته الطيّبة بهم.

انظر إلى البياض الواسع ولا تنظر إلى نقطة سوداء..فالنقطةُ السوداءُ داءٌ عظيم بُلي به بعضُ النّاسُ أو بلوا به أنفسهم فلم يقدروا على التّخلصِ منها إلاّ بالركونِ إلى الحكمةِ، والعودةِ إلى العقل، ولعلني أذكرُ بيتاً كنتُ قد كتبتهُ في جدار غرفتي خلال أيام الدراسة الثانوية، ألجأ إليه كلّما عنّت لي معضلةٌ، أو مضى لي شأن مخافة الندم والتّحسر.

يقول البيت:

لا تقل فيما جرى كيف جرى

كلّ شيء بقضاءٍ وقدر

وأردّد بيتين آخرين:

دع المقاديـــر تجـــري في أعنّتهـــا
ولا تبيتـــنَّ إلاّ خـــالي البـــالِ
فـــما بـــين طرفـــة عـــينٍ وانتباهتهـــا
يغـــيّرُ الله مـــن حـــالٍ إلى حـــالِ

أمّـا الآن فلربـما سـأتّفق مـع الحكمـةِ الجوهريّـة للقضـاءِ والقـدرِ إلاّ أنّنـي بلا شـك لن أسـتغني عـن المهمّـة السـاميةِ للعقـل، مـن أجـل التمحيـصِ والتدقيـقِ والتحليل.

سـألتُ أحـد الأصدقـاءِ الذيـن رأيتُ فيهم سـعةَ الصـدرِ وأخـذ الأمـور في أوجِ تأزمها مأخـذ التيسـيرِ: مـا الـذي تتمتـعُ بـه كـي لا توتّـرك المشـكلات ولا تقلقـك الصعاب؟ قـال: أفكّـر دائـماً في أسـوأ الإحتمالات فـأرى أن بمقـدوري تحملهـا وحينهـا تهون علي المشـكلةُ فلا تقـضُّ منامـي ولا تـؤذي نفسي.

إن هـذه النظـرة تتطلبُ ما يسـمّيه الإنجليز (helicopter view) نظـرة الطائرة العمودية وهـي تعنـي، إرتفـع إلى أعـلى وانظـر إلى مـا تظنّـه في نفسـك المشـكلةَ العسـيرة لتراهـا صغـيرةً لا تذكـر، ثـم تـرى الجـمال المحيـط بهـا، فتنـزلُ فـإذا أنـت شـخصٌ آخـر، ترى الحيـاةَ بمنظـورٍ أوسـع وحينها سـترى البيـاض الذي يحيط بهـا ومن يعيشـون فيها، ولن ترى قـط النقطة السـوداء.

وقتك مصدر ثروة

«إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ فَلْيَغْرِسْهَا»

حديث شريف

رواه أنس رضي الله عنه

أدمَنتْ مجتمعاتنا التأخير فدفعت ثمنه باهضاً، التأخير لدينا نتيجةً لعدم تقدير الوقت الذاهب هدراً دون وعي بقيمتهِ ودون تقديرٍ لأهمّيته.

نعم إن السرعةَ هي التي تعتبرُ السبب الرئيسي للحوادث المروريّة في إحصائيات المرور، لكنّها في الأصلِ نتيجةً للتأخيرِ في كثيرٍ من الأحيان لا يعي النّاس قيمة الوقت، فيتأخرون للخروج إلى مواعيدهم، أو قضاءَ أعمالهم حتى اللّحظات الأخيرة، فقد قاسوا في أدمغتهم المسافات وقدّروها بالأوقات استخفافاً بمفاجآت الطرقات، فإذا بمعوقات غير محسوبةٍ تظهر لهم فجأةً، فتضيق أنفسهم ذرعاً، حينها لا يجدون ما يحلُّ لهم الأزمة التي أوقعوا فيها أنفسهم سوى الإسراع الحثيث، وهم مرتبكون، مضطربون وهنا تكون المصائب التي تُزهقُ فيها أرواحهم، وأرواح غيرهم، ولو أنّهم بكّروا في الخروج، لساروا في طمأنينةٍ نفسيّة، لا يحثّها تأخيرٌ ولا تدفعها عجلة.

من هنا فإن التأخير هو سببٌ رئيسي للسرعةِ والتي هي مهلكةٌ يلقي البعضُ من الناس أرواحهم وأرواح غيرهم فيها، وإذا نظرتَ إلى أسباب التأخيرِ ستجدُ أن أغلبها يعودُ إلى هدرٍ في الوقتِ وليس استثمار هدرٍ في الكلامِ والثرثرةِ فيما لا ينفعُ العقل، ولا يُثري النفس، وليس استثماراً يفيدُ الإنسانَ، وينفع الأمَّة.

تنظرُ إلى أسباب التأخير فتجدها تعودُ إلى الفوضى في التعاطي مع الوقت، والعشوائية في قضاء المصالح، فكثيرٌ من النّاس يقررون القيام بقضاء مصلحةٍ أو القيام بزيارةٍ بصورةٍ مفاجئةٍ وهذا ما يجعلهم في حرجٍ وعجلةٍ لمواعيدهم الأُخرى.

وعدتُ ذاتَ مرةٍ إنجليزياً وزوجته للقاءٍ في ساعةٍ معيّنةٍ بأحد الفنادق فلمّا وصلت

في الموعدِ تماماً، قال لي على الفور: لأوّل مرةٍ يواعدني أحد ويأتي في وقته، سررت بهذا وأسفت في الوقتِ نفسه سررتُ لأنّه تنبّه إلى حضوري في الوقت كما اتفقنا وأسفتُ لأن كثيرين جعلوه يلصق بنا فكرة التأخير.

ومنذ أيّام كان عليّ أن ألتقي في المكانِ نفسه زوّاراً ألمان فكنتُ أحرصَ منهم على السبقِ للموعدِ فوصل كلانا قبل الموعد بنحو نصف ساعة.

إن الإنسانَ الناجح هو المخطط لوقتهِ والمهتم بقضاءِ مواعيدهِ دون تأخير، حتى وإن ازدحم جدوله بالأعمال، فكم من فارغٍ في الوقتِ يتأخّر، وكم من مشغولٍ يقدّم حضوره لموعده، ذلك لأن الأوّل لا يدرك قيمة الوقتِ في حياتهِ، والثاني يعي تماماً قيمته فلم يُهدر منه ثانيةً.

ذات مرّةٍ كنتُ على موعدٍ مع مسؤولٍ في مكانٍ خارج العمل وهو بالإضافةِ إلى عمله عضوٌ بأكثر من خمسةٍ وثلاثين لجنة، ومع هذا وجدته قبل الموعدِ ينتظرني وقد حضّر لي ما يعتقدُ أنّه مفيدٌ للموضوع الذي كنتُ أقابلهُ لأجله، وعلى العكسِ فقد وعدني أحد المهدرين للوقتِ بالزيارةِ وبعد أن تعدّى الموعد اتصلتُ به فإذا هو لا يزالُ في فراشِ القيلولة.

والمحافظةُ على الوقتِ أساسها المحافظةُ على أداءِ الصلاةِ في أوقاتها قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ١٠٣﴾[1]، فحين يؤدي المسلم الصلاةَ في أوقاتها فإنّه يستطيعُ أن يتعامل مع وقته على أساس التقسيمات الخمس وهي تقسيمات غير عشوائية وإنّما وراءها حكمةٌ إلهيّةٌ سامية، فيتصوّر الأوقات التي بين الصلوات على أساسِ أنّها خمسةُ جداول تفصلها استراحةٌ روحيّة تعطي دفعاً للنفسِ وبركة، وهمّةً وحماسة، وبهذا سيستطيع دون شك أن يؤدي مهامه وأوقاته دون تأخير، إنّما اختلط الحابلُ بالنّابل عند بعض النّاس فأخّروا وقت الصلاة أو تجاوزوها أو لم يصلّوها وبهذا لم يخرجوا بشيء.

---

(١) سورة النساء: الآية ١٠٣.

إن إدارةَ الوقتِ لهي أعظمُ الهبات التي يُرزقُ بها إنسان، فهي إشارةٌ على وعيهِ، وعلامةٌ على حكمتهِ، ودلالةٌ على نضجه، فإنك لتدلِّل على نضوج المرء من طريقةِ تعاملهِ مع وقته، وتقيس مدى علمهِ أو جهله من خلال تعامله مع الوقت، وإنني لأتحسّر حينما أرى أُناساً تهدرُ أوقاتها على الشوارعِ أو المقاهي أو الأسواق فيما لا يجلبُ لهم المنفعة ولا يحقق لهم المصلحة.

أوقاتٌ تمضي من عمرٍ ينقص، عمرٌ لا يعود كمواردٍ ناضب، لذلك كان الوقتُ في الإسلامِ مما يُسأل عنه المسلم، لهذا كان من السلف الصالح أُناساً لهم حكمةٌ بالغةٌ في تقديرِ الوقتِ فمنهم من وصل به الحال إلى اختيار نوعية طعامٍ لا تستهلك عليه وقتاً أطول من نوعيةٍ أُخرى حتى لا يضيع وقته، ومنهم من لا ينامُ إلاّ بضع سويعات وهو مواصلٌ للعلم حتى وقت طعامه، أما لدينا فالطّعام يستهلكُ وقتاً طويلاً، والجلسات الفارغةُ تستهلك وقتاً ثميناً، واللقاءات التي لا تثمرُ عن شيءٍ تبيدُ لحظاتٍ غاليةٍ من عمر الإنسان، والمجاملات تستنزفُ عُمراً غالياً، والإجتماعات المتكررة تطول دونما مبرّر، فتتشعّبُ إلى حواراتٍ جانبيةٍ وأحاديثَ لا تمتُّ لمواضيعها بصلة، فلا يصبح لمواضيعها المقرّرة إلاّ ربع الوقت وحينها يتمُّ التأجيل لإجتماعٍ آخر! وهكذا يضيع الوقت، ويضيع العمر وتتعطّل المصالح، وتتأخر المشاريع، ولو أنّا ركزّنا نقاشنا حول ما اجتمعنا له لاستطعنا تحقيق الفاعلية والكفاءة من وقتنا، ولو أنّا فعّلنا وسائل الإتصال الأُخرى كالهاتف والبريد الإلكتروني لقلّصنا عدد الإجتماعات ولأنجزنا الكثير من المصالح في وقتٍ قصير.

يروى أنَّ أحد الحطّابين كان منهمكاً في قطع شجرةٍ بفأسٍ غير مشحوذ فأخذ ذلك منه طاقةً ووقتاً، فلمّا مرّ عليه رجلٌ سأله: لمَ لا تشحذُ فأسكَ؟! قال له وهو منهمكٌ في عمله: ألا تراني مشغولٌ في عملي؟

وهذا حال كثيرين تراهم يشتغلون دون تنظيم أو تخطيط، وحالهم كحال الحطاب فهذا الأخير لو شحذ فأسه لما استغرق منه العمل في قطع الشجرة كثيراً من الوقتِ

والجهد، وهذا يعني أن الإنسان لو خطط ونظّم وقته لم استهلك إنجاز العمل وقتاً كثيراً، ولاغتنم وقته فيما يفيد.

ترى الشّاب الذي يحسبُ نفسه متحضّراً، وهو يتأنّقُ في طريقة لباسه، وكلام غير أنّه يتسكّع في المقاهي مهدراً وقته، فلا يتورّع إن سألته ماذا يفعل أن يقول: أقتلُ الوقت.

يقول السير أوسبيرت سيوتل (Sir Osbert Sitwell): «في حقيقة الأمر، فإن قتلنا للوقت هو مجرد تعبير مقنع لواحدة من الطرق المتعددة التي يقتلنا الوقت بها»، فما أكثر الأوقات المهدورة في أغلى وأهم مراحل الإنسان، مرحلة الشباب، يقتلون فيها الوقت في المقاهي والشوارع والأسواق والطرقات والمكاتب والوقت يقتلهم..فلا يخدعون سوى أنفسهم، فكم من شابٍ مضى عمره دون هدف، ودون غايةٍ.

الإرتباكُ والإضطرابُ والسرعة هي نتائج للتأخير والتأخير نتيجةٌ لعدم إدارة الوقت بكفاءة، وها نحن ندفع ثمنُ التأخيرِ في شوارعنا، وفي مكاتبنا وفي بيوتنا وفي الكثيرِ من جوانب حياتنا.

نحن والتأخيرُ إذاً قصةٌ رابطةٍ لا تنصرمُ إلاّ بأن نستفيق على هذه الحقيقة وأن نبدأ التخطيط وإدارة أوقاتنا، والإنتفاعِ بأعمارنا.. وإلاّ غرقنا في مستنقع التأخيرِ في عالمِ سريع التغيّر والتبدّل والدوران.

خطوات صغيرة لأهدافٍ كبيرة:

سر التقدّم هو أن تبدأ.
سر الإبتداء يكمن في تقسيم أهدافك الطموحة المعقّدة إلى أهداف يمكن إدارتها ثم البدء بالهدف الأوّل.
مارك توين

لا يمكنُ للإنسانِ أن يدّعي السعادةَ وهو يعيشُ سكونيّة الحياةِ وخمودها وركودها، فالسعادةُ تكمنُ في المتجدّدِ من الفكرِ، والسلوكِ وأنماط العيشِ تجدّداً ذا قيمة، يدفعُ بعقليةِ الإنسانِ إلى الإحساسّ اللّذيذ بقيمةِ الحياة وهنا تكمنُ السعادة،ولقد نظرتُ إلى حياتنا فوجدتُ أغلبها تكراراً لما قبلها يومٌ خلف لأمسٍ سلف، لا جديدَ يطغى، ولا حديثَ يغشى سوى إعادةٌ لما قبلُ وتكرارٌ لما انتهينا عليه.

نظرتُ إلى كثيرٍ من احتفالاتنا ومناسباتنا الإجتماعية المختلفة فوجدتها تمضي على الإيقاعِ والنمطِ ذاتهما، ليس من ثمّةِ إضافة عليهما بل يمكن القول أنّها تراجعت عما أنماطها التقليدية، وكأنّما فرغت أفكارنا من الجديد المبتكر، وفضّلنا الإحتفاظ بالتقليدِ المستقر، وليس في هذا عيبٌ أو خلل إنّما المعضلةُ أن الثقافاتُ تضمحلُّ حين يختفي الإبتكار، نظرتُ إلى أعيادنا فوجدتها مقولة المتنبي أصدق ما يعبّر عنها:

عيدٌ بأي حالٍ عدت يا عيدُ
بما مضى أم لأمرٍ فيه تجديدُ؟!

كحالي يسأل المتنبي عن الجديدِ في العيد.

الكثيرُ من المناسبات ذات برنامج متكرِّر ليس فيه مما يجعلُ المرءَ يتحرّق شوقاً لمرآه، برامجُ الإحتفالاتِ والفعاليات قلّما يكون فيها الجديدِ، والشكوى هي قلّة الدّعم أو عدمه.

تابعتُ إلى الكثير من الأعمال التلفزيونية فوجدتها ذات صيغٍ متكرِّرة، وحبكاتٍ مستهلكةٍ، فلا إبداعَ يثير النّاس، ولا طرح يلفت الحسِّ، ويثير المشاعر، هل تفتقدُ هذه أيضاً إلى الدّعم المادي وقد انهمر عليها؟!

الجديدُ وحده الذي يجعلُ الحياةَ ذات معنى أمّا عدا ذلك فقديمٌ يتكرَّر كلّما أشرقت الشمس، والشمسُ وحدها على غير ظنِّ الكثيرين تشرقُ كل يوم من مكانٍ جديدٍ، يقول تعالى: ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ٥ ﴾[1]، وفي تفسير الطبري: «للشَّمْسِ كُلّ يَوْم مَشْرِق وَمَغْرِب، وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ لِلشَّمْسِ ثَلَاثمِائَةٍ وَخَمْسَةً وَسِتِّينَ كُوَّة فِي مَطْلِعهَا وَمِثْلهَا فِي مَغْرِبهَا عَلَى عَدَد أَيَّام السَّنَة الشَّمْسِيَّة»، والنّاس الذين لا يرون الجديد في الحياةِ يسألون بعضهم: ما هو الجديد؟ فيردُّ أقرانهم» لا جديد تحت الشمس، انطفئ وهج العقول، وأغلقت أبوابُ الإبداعِ، وغفت الأدمغة.

وحين تبارت الأمم التي تتقدّمُ بالجديدِ من مخترعاتها في شتى العلوم والتقنيّة كصنع أكبر طائرةٍ وأكبر سفينةٍ، وأسرع قطارٍ، وأحدث جهازٍ، باريناهم نحن أيضاً بجديدنا في صنع أكبر كبسةِ أرزٍ، وأكبر كنافةٍ، وأكبر صحن حمّص، وأطول شاورما، وهذا ما تفتَّقت به عقولنا، وتفجّرت عنه أفكارنا، لقد عبّر الشاعر الأندلسي إبن دارج القسطلي عن عهدٍ متّسم بالتجديدِ عهد الأندلس فقال:

زمان جديد وصنع جديد
ودنيا تروق ونعمى تزيد
وغيث يصوب وعيش يطيب
وعز يدوم وعيد يعود

كان ذلك في زمنٍ عربيٍّ تتفتّق فيه الأذهان عن التجديدِ، وعن الثراء المعرفي الذي امتدّت أنواره السنيّة في أجواء المعمورةِ، فينبهرُ الناسُ بمبتكرات العقل العربي،

(١) سورة الصافات: الآية ٣٧.

ويحسَبُ شارلمان الذي أهدى له هارون الرشيد الساعة أنَّ بداخلها جنيّاً فيأمر أحد حرّاسه بإخراجه، فأين نحنُ منهم الآن على صعيد التجديد؟!

كنتُ أتابع منذ يومين برنامجاً في قناة (البي بي سي) البريطانية، وفيه كان أحد الرّجال الذين لا يستقرُّ بهم صعيد إلاّ أن يظهروا بالجديدِ قد أعياه التفكير في الجديدِ، وهو في حوضِ السباحة، حتى صرخ كما فعل أرخميدس: «وجدتها» قائلاً: سأعبرُ القناة بين إنجلترا وفرنسا فوق حوض سباحة Swimming Bath، ثم كبرت الفكرةُ في رأسهِ، واتصل بمئات الشركات من أجل الحصول على التأمين بعد أن سجّل حوض السباحةِ في الهيئة المسؤولة عن تسجيل القوارب والسفن بصفةِ قارب.

وأخيراً وجد الشركة التي تأمّنه بخمسةِ ملايين جنيه إسترليني، فعبر القناةَ في تسع ساعاتٍ، وجمّع لصالح إحدى الجمعيات الخيريّة مبلغ عشرون ألف جنيهٍ إسترليني، وليست المسألةُ هنا تنحصرُ في عبور قناةٍ بالتجديف على حوض السباحةِ وإنّما في جديدِ الفكرةِ وفي مقصدها النبيل المساهمة لعمل خيري.

في مجتمعاتنا أناسٌ تعيشُ وتموتُ كالظلال، تفضّل سكونيّة الحياةِ وخمودها وخلائها من الحركةِ، فلا تجدُ في القرى أناسٌ تجتمع لتفكّر في عملٍ جديد، ولا ترى في أحياءِ المدن من يستثمر طاقات البشرِ في عملٍ جديدٍ، ولا تجدُ في المجالس أو المقاهي الجديد الذي يتحدث عنه الناس بل هو اجترارٌ لقديم متداول، حتى الرسائل الإلكترونية التي يتداولها أغلبنا مرّت علينا، وتعبنا من الإطّلاع عليها، ومسحها، وإعادة قراءتها حتى حفظنا بعضها، ولا تجد في المكاتبِ ما يتحدثُ فيه المدراءُ مع موظفيهم عن الجديدِ الذي ينتشلُ العمل من روتينية الإيقاع وبيروقراطية الأسلوب إلى عالم الإبتكار والتحديثن إنّما شمس الكثيرين منّا يجري عليها وصف شاعرنا أبو مسلم البهلاني:

إذا أرسلت شمسٌ شعاعا من الهدى

دعاها فلبت للخمود صعيدُ

أكلُّ مـــراد المـــوت أن نهارنـــا
قصـــيرٌ وليـــلُ الراحلـــين مديـــدُ

وأناسٌ لا يحبّذون الجديد، يطلّون برؤوسهم الرقطاء بين فينة وأخرى منتقدين الجديد المبتكر، يريدون أن يبقى البشر متعلقين في ذكريات الماضي وأشواق الماضي، وربوع الماضي، غير متطلعين إلى الجديد أو متلهفين إلى صعيد، فالأجدر بهؤلاءِ أن يقولوا خيراً أو يصمتوا، أن يجدّدوا عقولهم أو لا يعرقلوا الآخرين.

التجديدُ سمةُ الحضارة والابتكار عجلتها، وعقل الإنسان الذي يضجُّ بالحياةِ هو آلة هذه الحضارة.

إنني لأرثي حياةً ساكنةً، خامدة، يمضي أصحابها من الحياة دون أن يثيروا انتباه أحد، دون أن يتركوا بصمةً، دون أن يبقوا أثراً، يقول (روبين شارما) في كتابه (دليل العظمة):

«إن أفضل الناس ليسوا أكثر موهبة من بقيتهم، كل ما هنالك أنهم في كل يوم قد اتخذوا خطوات صغيرة تقربهم من الحياة التي يريدونها لأنفسهم وتتوالى الأيام، مكونة أسابيع، وتنساب الأسابيع مكونة أشهراً، وبدوت أن يشعروا، يصلون إلى المكانة التي نطلق عليها مكانة فذّة وممتازة»

اطرح قناعك البالي بعيداً:

إنما العلم بالتعلم وإنما الحلم بالتحلم.

ومن يتحر الخير يعطه ومن يتق الشر يوقه.

لا يريدُ بعضُ النّاس خلع الجلبابِ الذي ورثوه عن آبائهم، أو التزحزحِ قيد أنملةٍ عن مسلكِ حياتهم، لا يريدونَ أن يغيِّروا قناعاتهم مهما التفَّ الأقربون النَّاصحون حولهم وأهالوا لهم النصيحةَ، وساقوا لهم الأمثال، بل أن ذلك لا يزيدهم إلاّ تمسكاً بأفكارهم، وتثبتاً بقناعاتهم، وهو لعمري تعطيل للعقلِ، وتهميش للفكرِ، وظلم للنَّفس، فالإنسانُ العاقلُ يزنُ النصيحةَ، ويفكرِّ فيما يُطلعُ عليه من معايب فيأخذه مأخذ الجدِّ، ويجعلهُ في منزلةِ الإحتكام، أمّا الإنسانُ الذي تحكمه العصبيّةُ فإنّه يصدُّ النصيحةَ صدّاً بما أوتيَ من سبيل فلا يتسللُ إلى عقلهُ حرفٌ من حروفها، ولا يسمحُ لنفسه التفكيرَ فيها، وإنّما يواجهها بالهجوم المتواصلِ، بل واتهامِ الآخر على أنّه يريدُ النّيلَ منه وتسفيهِ منزلتهِ، يتشبّثون بقناعاتٍ زائفةٍ يظنّون أنها سماتُ الحقِّ، فلا بطلانَ فيها، ويتمسّكون بسلوكياتٍ يرون أنّها طرقُ المثالِ فلا يغشاها الخطأ وهم في ذلك مخطئون، يكرِّسون الخطأ بعصبيّتهم لآرائهم، وتلك مصيبةٌ يضيفونها لأنفسهم ويظلمونها بها، فهم نقيض الداعي بالرّحمة على من أهدى إليه العيب بقوله: «رحم الله إمرأً أهدى إليَّ عيوبي».

لقد شهدتُ نماذجَ من هؤلاءِ، فمنهم من يظنُّ أن رأيهُ هو الصائبُ ورأي غيره الخطأ، ثم ينزِّه نفسهُ عن خطأ المسلكِ، وضعفِ التفكير، في حين أن القاعدةَ هي ما رسمها الإمام محمد عبده بقوله الحكيم: «رأيي صوابٌ يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصّواب» أمّا صاحبنا فمتمسِّكٌ برأيهِ مهما اجتمعت حوله الآراء التي تقنعهُ بالخطأ، وتسوقُ له البراهينَ تلو البراهين لذلك وهو مكابرٌ، عنيد لا يتزحزحُ

عـن قمّـةَ اعتقادهِ،

ومـن هـؤلاءِ نـماذجُ الأبِ المرتـدي عبـاءةَ الـرأي المتحجِّـر أو الـزّوج الحامـلِ للفكـرِ المتسـلِّط أو الإبـنِ المغترِّ برأيـهِ المكابر، هـذا النموذج من النّـاس إمّا أنّه يعـاني في الأصلِ مـن خلـلٍ في الشـخصيةٍ وعقـدةَ نقـصٍ في تركيبتهـا النّفسـيّة إثـر حالـةٍ مـا في فـترةٍ من حياتـهِ ثـم حـين تواتيـه الفرصـةَ لممارسـةِ السـلطةِ يحـاولُ ردم فجـوةَ النّقص في نفسـيّته بتخطئـةِ الآخريـن الذيـن يـمارسُ عليهم سـلطته، وجلدهـم بـما كان يُجلدُ به من سـياطِ الـكلام، وإمّـا أن يكـون قـد حملـهُ الغرورَ لشـعورٍ بالنّقـص لعدم إمتـلاك ميـزةٍ أو صفةٍ ثـم يحـاول التعويـضَ عنهـا بالتّحكمِ في مصائـر الخلق الذيـن كُتبَ عليهـم أن يكونوا في حِمـاه، ويأتمـروا بأمره، وكلا الإنسـانينِ يمارس إسـتعبادَ الخلقِ، وسـيدنا الفـاروق يقول: «متـى اسـتعبدتم النّـاس وقد ولدتهـم أمّهاتهم أحـرارا «

ومنهـم مـن يـرى أن عـدم النقص المـاديَّ الذي يمـدّه لأهله (زوجتـه وأبناءه) هـو غايةُ الرِّضـا، وكـمالُ الواجـبِ، متجاهـلاً أن هنـاك مـا هو أسـمى وأغلى مـن المـادّةِ ألا وهو الحـب الـذي يجـبُ أن يبثَّه أنسـاماً بـاردةً في قلـوبِ زوجتهِ وأبنائـهِ وأهلـه، يتغاضى عن الحـبِّ، ثم يحاسـبُ الآخريـن على تقصيرهـم في حبِّـه فكيف لفاقـدِ الـشيء أن يُعطيهِ؟!

وهـل يمكـنُ أن يُبادلَ إنسـانٌ بالحبِّ وهـو يعيشُ متمننـاً على من يعيلهـم بالفضلِ الذي يغدقـهُ عليهم؟! أيـن الحكمةَ إذاً مـن عقله.. أين هو مـن المنطق؟!

لقـد خـسر هـذا الصِّنف مـن النّـاس علاقاته بالآخريـن من حيث ظـنَّ أنّها حريَّـةُ رأيٍ، واسـتقلاليةُ سـلوك، خـسر العلاقـات الإنسـانيّة لأنـه بناهـا عـلى أسـاسٍ مـن الهيـكلِ السـلطويِّ كـما يحـدثُ في المنظّـمات ذات العلاقـات العموديّـة التـي لا ترتبـط بعلاقاتٍ أفقيّـة تتوسـع فيهـا الإتصـالات وتـذوب فيهـا الحواجـز، وإنّـما تنحـو نحـو الصبغـةِ التوجيهيَّـة، الآمـرة، خسرهـا لأنّـه لم ينظـر للجانـبِ الآخـرِ مـن حيـاةِ النّـاسِ، حيـاةَ الشـعورِ، ورقَّـةَ الأحاسـيسِ، فعاشـوا معزولين في بيوتهـم وهم بين أهلهم، ومشـوا على أرصفـةِ المجتمـع وهم في وسـطه، هـذا لأنّهم آثـروا التقوقـع في جبِّ أفكارهـم، ومحيط

قناعاتهم التي لم تغيّر فيها تجاربُ الحياةِ شيئاً، ولم تبدِّل فيها المعارفُ حالاً.

مراجعةُ القناعاتِ أساسُ المنطقِ، وركيزة التعاطي مع شؤون النّاس والحياة فكما يقال: «لا شيء ثابت سوى التغيير».

ويقول الراحل الشيخ عبدالله العلايلي: «ليس محافظة التقليد مع الخطأ، وليس خروجاً التصحيح الذي يحقق المعرفة»، ولهذا فقد خسر هذا النوعُ من النّاس الكثير بتشبّثهم بآرائهم، وتسفيههم لآراء الآخرين.

إن رقي الإنسان يتحتّمُ عليه أن يقدِّر آراءَ الآخرين، ويثمِّن معنى العلاقاتِ معهم، ويجعل للآخرين المرتبطين بمصيرهم منزلةً في اتخاذ القرار، والمشورة، والرؤيةِ لا أن يحملهم على رأيه، ويدفعهم إلى الإيمان بقراره، ويفرضُ عليهم قناعاته البالية، فإذا هم خالفوه ذكّرهم بفضله الماديِّ عليهم.

التسامح... تقدّم

هل في الحياةِ متسّعٌ للكراهيةِ؟ أو هل في القلوبُ محلٌ رحيبٌ ضلّت المحبَّةَ طريقها إليها فشغلته دواعي الضغينةِ وأسبابُ البغِض؟

يبدو أن الكثير من طفيليات القلوب تعيشُ على بغض الآخرين، فهي لاهثةٌ متلهِّفةٌ لصنعِ التَّوافهِ من الأسباب كي تكره، حتى لتصبح على شفا حفرةٍ من الكرهِ للآخرين.

لا تكونوا إمعة تقولون إن أحسن الناس أحسنا وإن ظلموا ظلمنا ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا.

حديث شريف
سنن الترمذي

إنّك لتحترزُ في الكلامِ كي لا تزلَّ فتؤخذ على جريرةِ الخطأ القاتل، وتُمقتَ على زللِ اللِّسانِ، وتبغضَ على فرط اللفظِ، وتؤخذَ على جرمِ القولِ غير المقصود.

فكيف بك تحيا إذن، وكيف بك تُقيم العلاقات مع النّاس وهم ينتظرونَ منك الهفوات، ويترصّدون بكَ الأخطاء، ويقلبون ألفاظك، أو أفعالك رأساً على عقب، ويسِّيرون حديثك إلى المقاصدِ التي شعروا بها لا التي عنيت أن تبلغها، ويعكسون وصاياك إلى مذّمةٍ قادحةٍ لهم.. كيف بكَ تحيا مع هؤلاءِ النّاس وأنتَ تتحرَّز أن يفهموا هذا اللّفظِ أو ذاك على هذه الشاكلة أو تلك؟! إنّك كالجالسِ على طرفِ السفينةِ يحاذرُ أن يخطأ فيقعَ منها.

تقولُ القولَ السليمَ من وجهةِ نظرك ثم سرعان ما يفجأك أحدهم وقد طُوي الحديث وشغل النفسَ شاغلٌ آخر ليقولَ لك بأنّكَ قصدته في الحديث وأنت بعيدٌ كلّ البعدِ عن مقصده، وأنك ذممتهُ في قولك وأنت تعني أموراً أخرى ولم يخطر ببالك حينها أمره، ولربما لو جال أمره حينها فقد تناولته بشيءٍ من التعميم وأنت تُسدي

النصيحةِ، وغطَّيت عليه بحيثُ لا يعرفُ المقصدَ من الكلام إلاّ صاحبه وهذه قاعدةٌ دينية حميدة كيف وصلَ الحالُ بالنّاسِ إلياقتناص لحظات الكره، وكأنّهم يصطادون سمكةً ذهبيَّةً، غاليةَ الأثمان، يقتنصون لحظات الكره في الوقت الذي أحرى بهم فيه أن يقتنصوا لحظات المحبّة والصداقة التي تربطهم بالآخرين، بعد أن ندر المحبُّون المخلصون والأصدقاءِ الأوفياء، يقتنصون لحظات الضغينةِ بسرعةٍ فائقةٍ، ولأدنى سببٍ ولأتفهِ شأنٍ، في الوقتِ الذي كان أجدرَ بهم فيه أن يضيفوا لِبناتٍ في صروحِ العلاقات القويَّةِ الراسخة.

في هذا العصرِ الذي وهَنت فيه العلاقاتِ، وانطوى النّاس فيه على شؤونهم الخاصة، وطغت الفرديَّةُ على كثيرٍ من مصالحهم، وهم مع شكواهم من هذا كلّه، ومع شعورهم به وتذمرهم منه يزيدوا بلل الطِّينِ على أنفسهم.

لقد ضاقت قلوبُ كثيرٍ من النّاسِ، وتزمّتوا إلى حدِّ الإفراط في حساسيةِ الشعورِ، فخلت قلوبهم من التّسامحِ الذي تمتّع به أحد الصحابة فقد كان مفتاحه إلى الجنَّةِ تسامح قلبهِ مع كلِّ من أساءَ إليه أو أخطأ في حقّه ولهذا قدّمه النبي صلى الله عليه وسلم كرجلٍ من أهلِ الجنَّةِ لا لكثرةِ عبادته ولكن لسماحةِ خاطره، وصفاءِ قلبه.

يروي (ديل كارنجي) قصَّة رجلٍ أسود جاهدَ كي يعلِّم الناس، فملأ هذا الهدف حياته، وشغل أوقاتهُ، حتى أنّ قلبه لم يكن ليتّسع لشيءٍ سوى هذا العمل الخيري الذي لا يعودُ عليه بريعٍ ماديٍّ وإنما برضىً نفسي، وذات يوم ثارت ثائرةُ البيضِ على السُّودِ فاقتيد إلى حبل المشنقةِ ووضع الحبل في رقبته، إلاّ أن أحد البيضِ طلب من جماعته أن يتركوا للرجلِ الأسود فرصةً أخيرةً للدفاعِ عن نفسهِ، فتحدّث الرّجل الأسودُ عن مشروع حياتهِ الذي نذر نفسه من أجله، مجاهداً عبر الوسائل المشروعةِ لتعليم الناس وأشهد بعضهم على أعماله السابقةِ، فدفعهم كلامه إلى إطلاقِ سراحهِ بل وتجميع مبالغ لإعانتهِ على مشروعه، وحين سأله أحد الناس فيما بعد: ألا تشعر بالكُره نحو هؤلاءِ النّاس الذين وضعوك على حبل المشنقة؟! ردّ عليه: لا وقت لديَّ

للكراهية..نعم.. لو شغل النّاس حياتهم وهمومهم بأعمالٍ عظيمةٍ كعملِ هذا الرّجل فلن يكون لديهم وقتٌ للكراهيةِ، لو شغلوها بالأعمال الخيريَّةِ، أو غيرها من الأعمالِ المفيدةِ، الصالحةِ فلن يكون لديهم الوقتُ للكراهيةِ إذ لا يكرهُ إلاّ الشاعرون بالنّقصِ في قلوبهم، ولا يكرهُ إلاّ صغارُ النُّفوسِ، ولا يحملُ الضغينةَ إلاّ ضيَّق الصدرِ ذلك الذي ليسَ له في الحياةِ إلاّ قلبٌ يكره، ليس له في الحياةِ أهدافاً عظيمة ومشاريعَ هامّة يريد تحقيقها.

يقول أحد رؤساء الوزراء البريطانيين: «الحياةُ أقصرُ من نقصِّرها والكراهيةُ أحد أسباب تقصير الحياة».

نقطةُ تحوُّل

> **لا يمكنك عبور البحر عن طريق التحديق في الماء.**
>
> **طاغور**

التّجديدُ أهمُّ عنصرٍ من عناصرِ الشّعورِ بالحياة، فكيفَ لبركةٍ من الماءِ أن لا يأسنَ ماؤها إلاّ بتجدّد هذا الماء، وتبدِّلهِ بماءٍ آخر؟! هكذا هي حياةُ النّاس.

التّجديدُ يُضفي حياةً أخرى قد تختلفُ كليَّةً على الحياةِ السَّابقة.. حياةً قد تنفصلُ في شكلها ومضمونها عن حياةٍ سابقة، وما ذلك إلاّ لأن أصحابها وقفوا عند نقطةٍ تحوُّلٍ، وقرّروا أن يغيِّروا تاريخهم، بعد وصولهم إلى مرحلةٍ من المراحل، ولم يكونوا محتاجين سوى لتحليلِ وضعهم، تحليلاً عقلياً، وحقَّقوا التوازن الدقيق في أمورهم على شاكلةِ قول المتنبي:

ووضعِ الندى في موضع السيفِ بالعلا

مضرٌ كوضعِ السيف في موضع الندى

أمّا من ارتضى سكونيَّةَ الحياةِ، وهمود الرُّوتين اليوميِّ الرّتيب، وجريانِ الأحداثِ في مسارٍ لا يتغيَّر ولا يتبدّل فذلك إنسانٌ راكدُ العقلِ، آسنُ الفكرِ، ميِّتُ النفسِ، خاملُ الجسدِ، مهزومُ القرارِ، لا يعيشُ إلاّ ليأكل، يقودهُ جسده في كلِّ مكانٍ لأنّ الجسدَ قد تعوّد الطّرق ذاتها، ولا يتحرّك دماغه، فهو لا يستفزّهُ بأسئلةٍ، ولا يوقفهُ عند قرارات حازمةٍ، صارمة.

سألتُ أحدَ الشَّبابِ وقد كنتُ أعهدهُ في مرحلةٍ مبكِّرة من التعليم صبيّاً مجتهداً مثابراً، سألتهُ وهو يعملُ في وظيفةٍ زهيدةٍ، متواضعةٍ، وكنتُ أشهدُ عملهُ في شركةٍ كبرى وقضى ردحاً من الزّمنِ فيها مثابراً ثم حينما ابتعثَ إلى الخارجِ صوّغت له نفسه أن يتركَ الأهدافَ الكبرى إلى أهدافٍ دُنيا، وغاصَ فيها، حتى وجدَ نفسه وقد

أُعيدَ بعد أن أقيل.. وهاهو يعملُ في وظيفةٍ مملّة، سألته: هل لديك فكرةٌ لتنتقل إلى عملٍ آخر؟ لكنَّ إجابتهُ أبانت عن نفسهِ الخاملةِ، الهامدة، قال: أنا راضٍ بالوضع، فنحنُ بطبعتنا كسالى نحبُّ الإجازات، وهذا العمل يمنحني الإجازات الكافية.

لقد حكم على نفسهِ إذنِ بالتقوقعِ في دائرةٍ يوميَّةٍ مكرورةٍ، لا جديدَ يثيرُ فيها حِسَّاً، ولا لونَ يضيفُ إليها بُعداً وعلى النقيضِ من هذا أخبرني صديقٌ بأنّه وصلَ إلى مرحلةٍ ما فشعرَ بأنّه لم يعد لديهِ ما يضيفه لعمله أو لحياته، فقرَّر أن يواصلَ دراستهُ كي يغيِّر وضع مسارهِ اليوميِّ، وطبيعةَ عمله، وها هو الآنَ يتبوءُ مكانةً مرموقةً بسببِ هذا القرار.

وكتبَ إليَّ صديقٌ إنجليزي ردّاً على رسالتي التي أستفسرُ فيها عن أخباره بعد أن كنتُ أعيشُ معه منذ أكثر من ثمانيةَ عشرَ عاماً، قال: لقد قرّرت أن أغيَّر حياتي بتغيير مهنتي، فقد كنتُ أعملُ في مستشفى لذوي الإعاقات، عدتُ إلى الجامعة ودرستُ نظم المعلومات وأخذتُ العديد من الدورات، وأنا الآن أترأسُ فريقاً وأُؤلف كتاباً حول الحاسب الآلي.

فرقٌ بين هذينِ وذاك.. ذاك يحبُّ عملاً فيه إجازات ويدعو ربّه «اللّهم لا تغيَّر عليَّ عملي حتى لا أصابُ بصدمةٍ عصبيَّة»، وهؤلاءِ الذين وقفوا عند نقطةِ تحوُّلٍ وقرّروا أن تتغيَّر حياتهم عندها وعلى ذاتِ الشاكلةِ أناسٌ يستهويهم التكرار، والمضيِّ على ذاتِ النّسقِ ليلَ نهار، وهؤلاء كالقائلون

«إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ»[1]، فحياتهم رتمٌ واحد، دورةٌ مكرورةٌ، لا يفكرّون في تغييرها لا يسألون أنفسهم لِمَ يسلكون ذات الطرقِ يوميّاً، ولِمَ لا يغيّرون، لا يفكّرون في طريقةِ إنجازِ أعمالهم لم لا يغيّرون من من عاداتهم التي اعتقدوا أنّها هي الصواب، وترسّخ هذا الإعتقادُ في أنفسهم، ومضوا عليه، دون تفكيرٍ ؟

(١) سورة الزخرف: الآية ٢٣.

لِمَ لا يغيّرون من هيئاتهم، إذ كيف سيظهرون لو أنّهم غيروا في ملبسهم غير متجاوزين للأعراف الإجتماعية فكم من ملبسٍ هو أجدى وأسترُ من ملبسٍ آخر، لكنّهم يرفضونه بحجّةٍ أنّ سلفهم كان يلبسه، لكنَّ السلف كانت له ظروفه الإجتماعية والإقتصادية والعملية، وهم لهم ظروفهم المختلفة، فلم لا يفكرون؟ أناسٌ لا تزالُ منذ أن أدركت الرّشد تمضي إلى خيّاطين وحلاّقين معيّنين.. ماذا لو غيّروا؟!

يترددون إلى ذات الأماكنِ يزورون الوجوه نفسها، يردِّدون العبارات، يمارسون الأنشطة اليوميّة نفسها يؤدون الأعمال نفسها، الهوايات نفسها.. ماذا لو بدّلوا؟

أناسٌ يقضون الصلاة كما تعلموها من آبائهم، فماذا يضيرهم لو بحثوا، وغيّروا بعض العبارات التي هي أجدى من بعض، أو أضافوا أدعيةً، أو أحلّوها مكان أدعيةٍ؟!

أناسٌ تلبّثوا بفتوى معيّنةٍ في معاملاتِ الحياةِ، وسلوكيات الإنسان وليس في العقيدة ومضوا عليها وتغيّرت الحياةُ، وتبدّلت ظروفها وهم متمسّكون، ولربّما صاحبُ الفتوى ذاته قد تراجعَ عنها، وبدّلها وهم لا يعلمون لأنّهم لا يريدون أن يعلموا الجديد نعم.. ليس المعنى هنا أن الفتوى تصاحب بالضرورة التطوّر فالثوابتُ لا جدلَ فيها، ولكني أقصدُ أن يطّلع الإنسانُ على الأمور لتتضح أمامه، فلا يحلُّ محرّماً، ولا يحرّم حلالاً بحجّةِ عدم التغيير.

إن نقطة التحّول وحدها مفصلُ التجديدِ في حياةِ الإنسان، وهي ليست بالضرورة نقطة تحوُّلٍ مفصليٍّ كبير، بل قد تكون نقطة تحوُّل بسيطة لكن أن تملأ نقاط التّحوُّل المعاش اليومي في أشياء صغيرة، فمن شأن ذلك أن يبعد ما يسمى (الملل) ويطرد الإكتئاب فما مشاكلُ الإنكفاءِ وانحسارُ الإبداعِ، ونضوبُ التفكيرِ إلاّ نتائج للروتين المكرور.

كتبَ (هنري ديفيد ثورو): «إن ألف ضربةٍ لقطع أغصانِ شجرةِ الشرِّ تعادل ضربةً واحدةً لقطع جذورها»، وهذا لا يتمُّ إلاّ بنقطةِ تحوُّلٍ جادةٍ، تبرهنُ على قدرة الذات

على إحداثِ التغيير على منهج قوله تعالى: «إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ»[1]

والنّاس تشتكي من سرعةِ تقادمِ الأيام، ومرور السنين لأنّهم يعيشون الرّوتين اليومي الإعتيادي الذي لا جديد فيه، أمّا لو صاحبه التغيير المستمر، ولازمه التجديد الدائب فلن يشعروا بذلك وحين يذهبُ المرءُ إلى مكانٍ ما لأول مرّةٍ فإنه يجدُ المسافةَ بعيدةً والزّمنَ بطيءْ، أمّا حين يعود فالمسافةُ قصيرةٌ، والزّمنُ سريع.. فكيف ذلك؟

في الحقيقة لا المسافة ولا الزّمن قد تقلّصا وإنّما السبب وراء ذلك، أن في الذهابِ تغيير، واكتشافٍ جديد، أما في العودةِ فلا جديدَ في المسافةِ والأمكنةِ عندها يمضي الزّمنُ سريعاً والمسافةُ تتقلّص وهذه كلّها معالجاتٌ عقليّة ليس إلاّ.

إن أغلب النّاس لو طرحوا عنهم الرّوتين اليومي الممضِّ(المرهِق، الصعب)، لو سألوا أنفسهم لم أفعلُ ما أفعلهُ منذ سنوات، لم أتمسّك بهذه العادةِ ولا أغيّرها لم هذا اللّبس دون سواه، لم هذا الرأي دون غيره، لم هذا الصديق دون آخر، لم هذا الطريق دون بديله، لم هذه الهيئة دون غيرها؟ لو سألوا أنفسهم لوجدوا إجابات قد تعزّز ممارساتهم، أو تغيّرها، إنّما الهدفُ من وراءِ ذلك هو السؤال الدائم الذي يقف وراء نقطة تحوُّل. يروي (ستيفن كوفي) نصيحةَ والدٍ لولده بقوله: «أي بنيَّ، لا تعيش حياةً كالتي عشتها، إنني لم أفعل الشيء الصحيح تجاه والدتك، ولم أحدث تغييراً حقيقياً، أي بني عدني بأنك لن تعيش حياة كالحياةِ التي عشتها».. فكم من أباءَ لدينا يقولون لأولادهم: «نريدكم أن تكونوا مثلنا» ولا يقولون لهم: «نريدكم أن تعيشوا حياةً أفضل منّا».

في نقطةِ تحوُّل تتغيّر فيها شؤونٌ، أمورٌ تجدّدُ من حياةِ الإنسانِ، وخيراً له أن تكون «نقطة التّحول» هذه إيجابيّة وليست سلبيّة، الفرق هنا، أن التّحول الإيجابي يقوده

(١) سورة الرعد: الآية ١١.

العقـلُ والعاطفـة، أمّـا السـلبي فتقـودهُ العاطفـةُ والشـهوة الإنسـانية التـي لا يحكمهـا عقـلٌ، ولا يقودهـا فكر، فـلا ينتظرُ الإنسـانُ الأزمـات والعقد والمصائب كـي تُملي عليه نقطـة تحوُّلـه بـل أن يبـادر هـو بالتغيير فليـس «هناك أقـوى من فكـرةٍ قـد آن أوانها» كما يقـول فيكتـور هيغو.

مراجعات:

> كل ما يستحق أن نفعله، علينا فعله الآن.
>
> **Ralph Stayer**

إدراكُ الخطأِ وتلافيهِ من شِيمِ الإنسانِ النّبيهِ الحصيف، ذلك الذي تكشَّفت له الأمورُ، وتوضّحت له الأسبابُ فلم تأخذه العزَّةُ بالإثم.

لكن لا يجبُ الوقوفُ عندَ حدودِ الكشفِ والإدراك بل إن المراجعة هي خطوةٌ تاليةٌ يجبُ القدومُ عليها كضرورةٍ لازمةٍ من أجلِ التغيير. إنَّ المراجعات من شأنِ الإنسانِ المتجدّدِ ذلك الذي لا يرتضي للجمودِ ديدناً، ولا للرتابةِ عادة.

ذلك الإنسانُ المنفتحِ على الإحتمالات وليس المنغلقِ على المسلّماتْ عدا تلك التي تؤسسِّ إيمانهُ بالله وتوثّقُ صلتهُ بخالقه، إن من يؤمنُ بضرورة المراجعات في شؤون حياتهِ، وفي مناهجِ تفكيرهِ، وفي طرق سلوكهِ هو الإنسانُ المتفتّحِ الذي يستحقُّ الإحترام، هو الإنسانُ الذي ينظر إليه على أنّه رجلُ المواقف حيث لا تزمُّتَ ولا مغالاة ولا إفراط ولا إضرار ولا عناد، ذلك الذي يتبنّى في موقفه مقولة هيرقليطس: «لا شيء دائم سوى التغيير»

الإنسان الذي يقبلُ مراجعةَ أفكارهِ وسلوكياتهِ هو إنسانٌ نبيلٌ صادقُ النيّةِ للتغيير، أمّا ذلك الذي يتشبّث ببعضِ الأفكارِ ويراها مسلّمات لا جدالَ فيها فهو جامدُ الفكر، خامدُ النفس.

لا نتحدّثُ قط عن أمورِ العقيدةِ فتلك محسومةُ الأمر قال تعالى:

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[1]

---

(١) سورة الحشر: الآية ٧.

إنّما الحديثُ عن بعض ما يتّبعه الإنسانُ واهماً فيمضي عمره في اتباعِ سراب، ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤﴾[1].

ليس عيباً المراجعة، وليس عيباً الإعترافُ بالخطأ إنّما العيبُ الرضى بالجمودِ، والقبولُ بالإنغلاقِ.

يقول المفكر الراحل عبدالله العلايلي: «ليس محافظة التقليد مع الخطأ وليس خروجا التصحيح الذي يحقق المعرفة».

العيبُ أن لا يرتضي الإنسان المراجعة حين تتكشّفُ له حقائق، يقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ١١٤﴾[2].

والضررُ أن يستمرأ الإنسانُ الخطأ مع مكابرتهِ، وعنادهِ، وصلفه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِ﴾[3].

إنّ من يتقبّل المراجعة، بغيةَ الإصلاحِ هو الإنسانُ الحكيم الذي متّعه اللهُ بالحلمِ، وسعةِ الصدر، وبُعدِ النظرِ إلى جانبِ حكمته، ورجاحةِ عقله، ولهذا يعْمَدُ إلى الطرق الوسطى السليمة التي تمكّن له معالجةِ الأمرِ وفق قاعدة «لا ضرر ولا ضرار».

وفي هذا يروى عن سيدنا عمر بن الخطاب أنه كان يعسُّ ليلةً فمرَّ بدارٍ سمع فيها صوتاً فارتاب و تسوَّر فرأى رجلاً عند امرأة وزق خمر فقال: «يا عدو الله أظننت أن الله يسترك وأنت على معصيته؟ فقال: لا تعجل يا أمير المؤمنين! إن كنتُ أخطأتُ في واحدةٍ فقد أخطأتَ أنتَ في ثلاث: قال الله تعالى: ولا تجسسوا وقد تجسست، وقال: وأتوا البيوت من أبوابها وقد تسورت، وقال: إذا دخلتم بيوتا فسلموا وما سلمت، فقال سيدنا عمر: هل عندك من خير إن عفوت عنك؟ قال: نعم، والله لا أعود،

---

(١) سورة الكهف: الآية ١٠٤.

(٢) سورة التوبة: الآية ١١٤.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٠٦.

فقال: إذهب فقد عفوت عنك»[١].

إنما مصيبةُ بعض النّاسِ أنّهم لا يقبلون مراجعة أنفسهم، والتفكير فيما هم يعتقدونه جازمين أو يتبنّونه من مذهبٍ مسلّمين أو ينهجونه من مسلكٍ راضين.

المراجعة لا تعني بالضرورةِ التغيير فقد تحتملُ زيادة اليقين أو التغيّير في الإتجاه، من منّا لم يمرّ بمراحل كان يتبنّى فيها بعض المواقفِ والآراء التي كانت في اعتقاده حينها لا تقبلُ التشكيك أو الجدل أو الطّعن لكنّنا نراها اليومَ برؤيةٍ أُخرى تختلفُ مظهراً وجوهراً، بل نكادُ أن نسأل أنفسنا مستنكرين، أوَ كُنا نحن بالفعلِ من يعتقد أو يتبنّى ذلك؟!

قال جبران خليل جبران:

أراجعُ نفسي هل أنا ذلك الذي

عهدت بأمسي أم أنا رجل ثان

يقول صديق: حدثت خصومةٌ بيني وبين أحد الأقرباءِ، فبعث لي: أنّه يريدُ أن يزورني لينهي القطيعة، فرحّبتُ بذلك إلاّ أنّني اشترطتُ أن أراجعَ معه أسباب الخصامِ لأنني لم أعرف سبباً له وذلك من منطلق اعتقادي بأن معرفتي للسبب سيجنّبني فعله في المستقبل، لكن الطرف الآخر أبى ذلك مشترطاً عدم رغبته في فتح صفحةِ الماضي، حتى أقتنع على مدى الأيام بضرورةِ ذلك فراجعنا الأسباب ووجدناها من التوافه.

إن المراجعات في تاريخِ الأمم والشعوبِ لهي مما تحتّم مراحلُ العصرِ وتغيّراتهِ، وهذه سنّة الحياة، فالإستقرار الذي تتمنّاهُ المجتمعات ليس استقراراً بمعنى السكونُ والجمود وإنّما الطمئنينةُ والسلامُ والأمان، ولعلّ من أعظمَ أدوات إدارةِ المؤسسات في هذا العصر هي (التغذية الراجعة Feedback) فهذه من أهم العوامل التي تتيح للمؤسسة الوضع الذي تسيرُ عليه، وهذه الأداة تستلزمُ النقدَ الصريح الأمين الذي

(١) ورد في الرياض النضرة.

يحلّل الوضع وفق رؤيةٍ متمكّنةٍ، هذه التغذية الراجعة هي التي اتخذها الإسلام شعاراً منذ أن تولى أوّل خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث قال سيدنا أبوبكر الصديق: «أما بعد، أيها الناس فإني قد ولِّيت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني، وإن أخطأت فقوِّموني».

إن الإعانة هنا رد فعلٍ للإحسان، والتقويم رد فعلٍ للخطأ وكلا الأمرين تغذيةٌ راجعةٌ وهذا بالفعل ما يحدثُ في المؤسسات والشركات الكبرى في العالم تلك التي تطبق الإستراتيجيات والخطط ثم تعتمدُ على التغذيةِ الراجعة في الدّعم أو التعديل..!

ليس عيباً أن يراجع الإنسان مسلكهُ أو الدول سياستها إنّما العيبُ أن يتشبّثا بالخطأ بحجّة المحافظِة على التقليد، قال تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[1].

ليس عيباً المبادرة إلى الإصلاحِ حين تتوجّبُ الضرورة إنّما العيبُ المكابرة، فكم من بشرٍ يكابرون على الحق وهو واضحٌ وضوح الشمس في رابعةِ النهار، المراجعة تستلزمُ التغيير والتغيير لا بد أن يُلمس على الواقع، وإلاّ ما فائدة مراجعةٍ دون نتيجة، كما يقال: «نسمع جعجعةً ولا نرى طحيناً».

إن الإنسانَ صاحبُ المبدأ القويم، والخط الثابتِ هو ذلك المتعاملِ مع كلِّ مرحلةٍ بما تقتضيهِ من التفكيرِ والتقرير والتدبير وهو على عكسِ إنسانٍ يزوّق الكلام وينمّق العبارة، ويفخّم الخطاب فلا يرى النّاسُ له فعلاً، ولا يتلمّسون لوعوده واقعاً، إن نقد الذات هو عاملٌ صحيٌّ للتقويم والإصلاح، فمن منّا لا يحتاجُ إلى نقدٍ، ومن منّا الذي تنزّه عن الخطأ، إنّما ليس نقداً ذلك الذي يجلُدُ الذاتَ أو يشمِّتُ الآخر، ذلك النقدِ الذي لا يريدُ الإصلاحَ وإنّما يقصدُ تفريغ شحناتِ الحقدِ وإثارةِ الفتنةِ والبغضاء.

النقدُ البنّاءُ نقدٌ معلِّمٌ يتّصفُ بالتوازنِ، والحكمةِ والنيّةِ الصادقةِ، وأدب البيانِ،

---

(١) سورة الزخرف: الآية ٢٢.

ورفعةِ اللّسانِ عن اللّغطِ والهذيان، النقدُ الذي يتوسّل المراجعة، وينشدُ التقويم ليس ذلك الحامل للسَّوطِ يجلُدُ به، أو دناءة اللّفظِ يحقِّر به، أو فضاضةَ القولِ يقرّعُ به .

للمراجعةِ أُصولٌ ومباديء تبدأُ من نقدِ الذات أو تذكرةِ الآخَرِ ثم إجراءُ التغيير فالتطبيق ثم المراجعة فالتعديل فالتطبيق وهكذا تستمرُّ عجلةِ الحياةِ في تجدّدٍ دائمٍ وإن توقّفت الحياة.

إني رأيتُ وقوفَ الماءِ يفسِدَهُ

إن ساحَ طابَ وإن لم يجرِ لم يطبِ

النظرةُ نحو المستقبل:

> عبر قرون كان هناك رجال وضعوا خطواتهم الأولى في دروب جديدة، دون أن يكون لهم من عتادٍ سوى رؤيتهم.
>
> **Ayn Rand**

إذا كان المستقبل هو الذي نخطو له فكثيراً ما نفكّرُ فيه، وقليلاً ما نعمل له، إننا نكرِّر الحكايّة مرّاتٍ ومرّات، نفعِّل قدرتنا على التّذكرِ ولكن قدرتنا على الخيالِ شبه معطّله،وفي هذا يقول (جورج هنري لويس George Henry Lewes): «لم يحقق أي إنسان إكتشافاً عظيماً دون أن يمارس الخيال».

كثيراً ما نعيدُ حكايات الصبا والطفولةِ وهي وإن كانت ذات علاقةٍ عميقةٍ لها وقعها اللّطيفُ في أنفسنا إلاّ أنّنا أشبعناها طحناً وعجناً، وكلِّ ما نتحدثُ عنه هو الماضي،نتوقُ لكل شيءٍ ماضٍ لأنَّ له نكهةً حتى لو كانت مُرَّةً لأنه فعلٌ منجز، أمّا حين يأتي الكلامُ عن المستقبلِ فحديثنا عنه غائمٌ، مشوّش، عامٌ مشتَّت بينما المستقبلُ هو الأرضُ التي سنضعُ فيها أقدامنا في اللّحظات القادمة.

يحسبُ البعضُ دائماً أن المستقبلُ هو القادمُ البعيد يحسبونه هو السرابُ المرئي، لا يوقنُ به غير ظامىء، في الوقت الذي يعني فيه المستقبل الساعات القادمة إن لم نقل الثواني.

لقد أعجبتني فكرةُ أحد المعاهد اللُّوجستيه البريطانية وهو معهد تشارترد للدعم اللّوجستي والمواصلات The Chartered Institute of Logistics and Transport، ففي عام ٢٠٠٦ حان احتفاله بمرور ثمانين عاماً على إنشاءه، ولكنّهوهذه هي الخطوة المحفّزةِ للخيالِ آثر ألاّ يذكر إنجازات المعهد خلال ثمانين عاماً ماضية كما تفعل أغلبُ المؤسسات والناس وإنما أن ينظر إلى ثمانين عاماً قادمة فأصدر تقريراً

بعنوانٍ مثير هو «العودة إلى المستقبل (Back to the Future) وقد كانت فكرةً رائعة أن يفكّر في المستقبل بالنّظر بصورة فوقيّةٍ من عام ٢٠٨٦ إلى ثمانين عاماً مرّت وهي لم تمر بعد.

نعم.. التنبؤ صعبٌ جداً وخاصّة عندما يكون حول المستقبل كما يقول (يوجي بيرا)، ولكنّنا أفرطنا إذ تركنا الحبل على الغارب، فأسلمنا قيادنا لقول الشاعر: «دع الأيام تفعل ما تشاءُ»، وهو إذا كان يفصح عن مقصده في عجز البيت حين يقول: «وطب نفساً إذا حكم القضاءُ» فإننا اتبعنا الأول أكثر من إتّباعنا للثاني.

انظر للحكاياتِ التي تلوكها مسلسلاتنا التلفزيونية والإذاعيّة حين تدور حول محورٍ واحد، قضايا لا تخرجُ من إطار الماضي، قصّة تلو أخرى، قصص مغلقة لا تشرع أبوابها نحو المستقبل، واسمعنا حين نتحدث فإنا نقلّب الماضي تقليباً مملاً.

أجل نقرُّ بأن الماضي هو منبعٌ للكثير من الحكايات، فهو مطويات التجارب، وسلسلة الأحداث ومخزنُ الصورِ، ولكن ما فائدةُ الماضي إن لم يكن مُلهماً؟

يقول المسرحي سعدالله ونوّس: «ما فائدة التاريخ إن لم يسمح لنا بالتنبؤ» نعم.. ما فائدته إن لم يفتح للعقلِ أبواب الخيال الماضي قاعدة، الماضي تجارب استدلاليّة يمكنها أن تؤسس لقادمٍ آت، لأن طبيعة الإنسانمهما تغيّرت العصور، وأنماط وسلوكيات المعيشة تظلُّ محافظةً على طبائعها الجوهريّة وإن تغيّرت بعض النظرات والآراء والتّوجهات، منذ أكثر من ثلاثة قرون كتب (إسحاق نيوتن): «أبدو لنفسي كما لو أنني صبي يلعب على شاطيء البحر، تلفت إنتباهي من فينة إلى أخرى حصاة أنعم أو صدفةٍ أجمل بينما يمتد محيط الحقيقة أمامي ناظريَّ دون اكتشاف» ذاك كان في عصر قصيٍّ، لا تتوفرُ فيه وسائل المعرفة الحديثة كمثل هذا العصر، ولكنّ بالرّغم من توفرها في مجتمعاتنا العصريّة فإننا نفتقدُ إلى الروحِ التي تتوقّدُ حماساً إلى صنع جديد، أو إبتكار حديث..

ولذلك نتركُ التفكير في المستقبل جانباً، والمستقبل كما يقول جلالة السلطان المعظّم:

«هو الـذي ينبغي أن يكـون مدار تفكيرنـا وتخطيطنا».

إن العيـشَ في المـاضي هـو مـا يعرقـلُ حركـة المجتمعـات، ويثبّط تقـدّم الأفـراد، وبلادة العقـول، وفي ذلـك يقـول (ديـل كارنيجـي): «إن العيـش في المـاضي مـن أهـمِّ أسـباب الشـيخوخة المبكـرة» فالشـيخوخة هنا ليسـت مقرونـةً بهرم الجسـدِ وإنّما ببـلادةِ العقلِ، وسـكونيّة التفكـير، وجموديّـة الهمـم، ولذلـك أقـول في موضـوعٍ اختارتـه وزارة التربية التعليـم ليكـون ضمن كتـاب المؤنس المقرر للشـهادة العامـة بعنوان (صناعة المسـتقبل) لا يمكـنُ للمـرءِ أن يفكِّـر في المسـتقبل أو يرنـو إليـه وهـو محـاصر في فكـرة جامـدةٍ، أو طاقـةٍ معطّلـة، أو رؤيـةٍ مبتسرة، لا يمكنـه أن ينتظر كـي ينطلق نحو فضاءات المسـتقبل لمسـة الفضل الإلهـي كي تحيل سـكونيته البليـدة إلى التفاتات سـماوية تغـيّر التاريخ دون أن يغـيّر مـن نفسـه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1].

مـن منّـا الـذي يمـضي يومـه، أسـبوعه، شـهره، عامـه، وفـق مخطّـط مسـتقبلي واضـح الأهـداف، مخطّـط ليـس مبنـيٍّ على الرغبـات فحسـب وإنّما عـلى الإمكانات والوسـائل التـي يمكـن الحصـول عليها؟!

نعـم.. هـو تحـدٍّ ولكنّهـا ليسـت مهمّـة مسـتحيلة في الوقـت ذاتـه، وذلـك لو اسـتطعنا توظيـف الأوقـات المهـدورة مـن أعمارنـا، واسـتثمرناها في هـذا التخطيـط بـدلاً مـن هدرهـا بـلا طائل.

هـل نفتقـدُ إلى الحـماس، أم للطريقـة إننـا كلّـما افتتحنـا مشروعـاً مـن المشروعـات، أو احتفلنـا نظرنـا إلى المـاضي في كلماتنـا، وسـطّرنا الإنجـازات التي مـرّت والتـي أتينا على ذكرهـا مـرّاتٍ ومـرّات، فلـماذا لا يكون للماضي ثلثاً لإرضاء أنفسـنا والمسـتقبل الثلثين في كلامنا؟!

لقـد تقدّمـت الأمـم لأنّ أفرادهـا يفكـرون في المسـتقبل بجديّـةٍ عمليّـة، ولذلـك أنتـج تفكيرهـم العمـل من أجـل تحقيق الأهـداف التـي خططّوا لها بينما يسـكننا نحو صوت

(١) سورة الرعد: الآية ١١.

شاعرنا الجاهلي وهو ننوحُ على الأطلال، أقول إن لم نتحرّر من النّوح على الأطلال، واسترجاع الماضي مرّةً بعد مرّة فإننا لن نتقدم، كما إن الإنسان إذا ظلّ يدور حول ماضيه دائماً وأبداً، فلا جديدَ في قوله، ولا حديث في فعله، ولا جدّةَ في طرحه ولا مبتكرَ في فكره، ولا مُبهرَ في أُسلوبه فإنّه إنسانٌ منتهٍ، خرج من دائرة الحياةِ اليوميّة المعاصرة، فالتجديدُ في الفكرِ، ومتابعةُ ما يحدث من حولنا، ومراقبة تغيّرات الطبيعة، وأحوالِ الإقتصادِ، وتبدّلات السياسة وطروحاتِ العلم، وسلوكيات البشر، وفرص المعيشةِ، هي المرتكزات التي يبني عليها الإنسان تخطيطه، ويضع عليها تصوّراته للمستقبل والمستقبلُ هو الساعةُ المقبلة، اليومُ/ الشهر/ العام/ الأعوام القادمة، وهذا الكلامُ لا ينطبقُ إلاّ على إنسانٍ حيّ، يريدُ أن يكونَ لعيشهِ معنى، ولحياتهِ قيمة، ولإسمهِ أثر.. أمّا ذلك الذي يحبُّ العيشَ في دُجن الظلامِ، وأرصفةِ الهوامش، وصناديق النسيانِ فهو يعيش لكي يأكل، لا يأكل لكي يعيش، وهو ينامُ لكي يحلم، لا يحلمُ لكي ينام وهو يجمعُ الأصداف والحصى لكنّ نظره قاصرٌ عن النّظرِ إلى محيط الحقيقةِ الذي امتدَّ أمامه كما رآه نيوتن، يجمعها ليصوِّبها نحو البحر ثانيةً لأنّه ساخطٌ على كلِّ شيءٍ، منهزمٌ من كلِّ شيء، ولعمري ما عاشَ ولا بقى إنسانٌ ساخطٌ، منهزمٌ على ظهرِ هذه الأرضِ، إنّما العيشُ لمن جعل المستقبلَ منارتهُ، فحفّز لها خيالهُ وأعمل لها فكره، فهو مستمتّع بكل لحظةٍ يحياها لأنّها من نتاج فكره، وليست من فتاتِ الآخرين.

تغيير القناعات:

> كل عمل جديرٌ بالقضاءِ هذا أوانه.
>
> **Ralph Stayer**

تنقضي أعمارُ بعض النّاس وهم متشبِّثون بقناعاتٍ معيَّنة، تحوَّلت في نظرهم إلى ما أسموه مبدأ إنّما قد يكونُ هذا المبدأ ليس ضمنَ السياق الإجتماعي الملتزم بالأعرافِ والتقاليدِ، أوليس ضمن الخُلُق الديني الذي نشأ عليه المجتمع، قد يكونُ إذن مساراً شخصيّاً متفرِّداً وغريباً، وحتى لا يُفهم هذا الكلامُ لغيرِ مقصدهِ، أقول: لا ضيرَ أن يكونَ لكلِّ إنسانِ سيرةٌ متفرِّدة، ومواقفَ متميِّزة، وسلوكيّات تطبعَ شخصيته بطابع الخصوصيّة، هذا أمرٌ حسن، بل أن حكمةَ خلقه أن يكونَ مستقلاً يقول تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾[1].

لكننا نتحدَّثُ عن مراجعةِ هذه القناعاتِ التي قد تكون ترسّخت في العقلِ وتراكمت في الضميرِ بفعل فاعل في زمنِ الطفولةِ غير الواعيةِ، وبالتالي نشأت نفسه على هذه القناعة وهي قناعةٌ تستغربها من أناسٍ ربما قد عهدت فيهم الرشد ورجاحةَ العقل، فتبهرك سلوكياتهم في أمرٍ ما، فتراه غير منسجمٍ مع شخصيّاتهم، ولربما لو كشفت عن صدورهم لقالوا لك أنّها ليست قناعة وإنّما مجردُ أهواءٍ أو رغباتٍ، لكن دوامهم عليها، وإصرارهم على تكرارها يجعلك تصفها بـ «القناعة الشخصية»، وقد لا تستغربها من آخرين لأنّها تنسجم مع السلوك العام في حياتهم إنّما تستهجنها في نفسك ولا تجدُ لها مبرّراً سوى غياب الحكمةِ عنها تستغربُ مثلاً أن تجد بعض الناسِ يصرّون على معالجةِ الخطأِ بالخطأ ويمضون على ذلك طوال حياتهم، وتستغربُ من آخرين إنكارَ الآخر وإقصاءِ رأيه، أو معالجةِ الزلّةِ من الآخرِ

(١) سورة مريم: الآية ٩٥.

بخصامِ مستحكم الحلقاتِ لا يستطيعُ أحدٌ أن يفكَّ مغاليقها التي حشوهم غيضاً وضغينةِ، أو فعلِ سلوكٍ شاذٍّ لا يتناسقُ مع مسارهم العام أو أنَّ هذا السلوك يسبِّب لهم وربما لآخرين أذىً نفسيّاً وجسديّاً، أو لا يستنكفون عن الحماقةِ مهما أدركوا أنّها خرابٌ نفسيٌّ، ودمارٌ عاطفيٌّ لا يحقق لهم إحتراماً وتقديراً لدى الآخرين، أو يدّعون المعرفة ويباهون النّاس بعلومهم فلا يوقضهم ما أيقض لقي غُلام أعرابي أبا العلاء المُعرِّي الشاعر..

فقال له: من الشيخ يكون؟ قال أبو العلاء: أنا أبو العلاء المُعرِّي شاعركم المعروف. فقال الغلام: أهلاً بالشاعر الفَحْل ذي القول الجَزل والرأي الفضل، أأنت القائل في شعرك:

إنِّي وإن كنتُ الأخير زمانه
لآتٍ بما لم تستطعهُ الأوائلُ

قال أبو العلاء: نعم أنا القائل ولا فخر، فقال الغلام: قولٌ طيِّب، وثقةٌ بالنفس واعتداد، ولكن الأوائل قد وضعوا ثمانية وعشرين حرفاً للهجاء فهل لك أن تزيدَ عليها حرفاً واحداً؟! فسكت أبو العلاء.. وقال: والله ما سكتُّ في حياتي كمثل ذلك السكوت. ما فعله الغلام هو خلخلةُ الثِّقةِ المفرطةِ عن أبي العلاءِ، وتمزيقِ غشاءِ القناعةِ السميك الذي أحاط به نفسه بأنّه « الشاعرُ المعروف» القادر على الإتيانِ بما قصر عن إتيانه الأوائل.

إنّما لا يزحزحُ قناعات بعض النّاس مزحزح، لا إدراكهم الخطأ، ولا اعترافهم في دواخلهم بالعيب الذي يعانوه، ولا بما يسيرون عليه من نقصانٍ ملحوظٍ أو كبرياءٍ واضحٍ، أو خُلُقٍ شاذٍّ بيِّن، أو نصيحةٍ ثمينةٍ تُهدى إليهم، أو مُحرجاً يرمي لوخز وجه الحياءِ فيهم، يغلقون أسماعهم عن المثلِ القائل: «رحم الله امرأ عرف قدر نفسه»، ولو عرفَ المرء قدر نفسهِ لأنزلها المنزلةَ التي تستحقها، ولتلبّس بالشخصيةِ التي يجب أن يكونها، يقول المفكر الراحل عبدالله العلايلي في واحدة من شعاراته الجميلة: «ليس

محافظة التقليد مع الخطأ، وليس خروجا التصحيح الذي يحقق المعرفة».

إن مراجعةَ الإنسانِ لخصلةٍ أو سلوك، أو فكرةٍ أو مبدأ أو خُلقٍ أو رأي هو فضيلةٌ، والفضيلةُ كما يُعلم واقعةٌ بين رذيلتين.

وهنا يأتي دور العقل الذي يجب أن تُطلق طاقاته في التفكيرِ الذي يولّد قناعات ويرسّخ أخرى ترسيخاً سليماً لا يرتكز على إرث السلف في جميع شأنه وإنما على إجتهاد الخلف، التفكيرُ وحده هو القادرُ على زحزحةِ القناعات المتلبّدةِ التي أحاطت العقل بفطرياتٍ دبقةٍ لا يسهل إزاحتها إلاّ بالإجتهاد في المعرفة، والتخلّي عن كبرياءِ النّفس.

بالأفعال تتحقق الإنجازات:

> **أنا معجب بسرعة الفعل، المعرفة ليست كافية، يجب أن نطبّق. القدرة غير كافيةٍ دون فعل .**
>
> **ليوناردو دافنشي**

تتخدّر العقولُ، وتُعمى الأبصارُ، بخطابات مضلِّلةٍ، أو بأحلامٍ لا يُصاحبها في الواقعِ إنجاز، إمّا لأنها شطحاتٌ لا تمتُّ إلى الواقع المنظور بصلةٍ أو لأنّها مجرّد أحلامٍ لا تكلِّف الحالمَ إلاّ وقته فلا يبذلُ لها جهدا، ولا يستهلك لها رفدا، وإذا كان الخيالُ الذي يكتنفُ الآتي أو القابلُ للحدوث ولو بعد زمنٍ أو المكتنف ما يُنظر إليه على أنه مستحيلٌ في اللحظة أقول إذا كان الخيالُ جميلاً، فإن بعض الخيالِ توهانٌ وتضليل إذا كان ضرباً من المستحيل، يقول إبراهيم ناجي:

قد يكون الغيبُ حلواً

إنّما الحاضرُ أحلى

الحاضرُ أحلى لأنّه واقع، والمرءُ إن لم يكن واقعياً يغرّد خارج السرب ويهيمُ في البراري، وهذه معضلة كبيرة يواجهها بعض النّاس الذين لا ينظرون إلى الواقع بعينٍ متفحِّصةٍ، ثاقبةٍ، واعية بل إنّهم ليسبحون في خيالاتهم الجامحة التي من الصعب تحقيقها في تلك اللحظة، فإن عرض عليهم أمرٌ قالوا: لو كان كذا، أو كذا، ولو أنّ كذا أو كذا مما يمكنُ تحقيقه لكان ذلك أمراً مشروعاً ومحبَّباً، أمّا أن تكون محض خيالٍ أو منجزٍ بعيد المنالِ فإنهم عندئذٍ لا يكونون واقعيين.

تعجبني واقعية الإنسان الذي يرى أن كل يومٍ تشرقُ فيه الشمس قد يكون آخر يومٍ في حياته، وهو اليوم الذي يحقق فيه ما كان قد خطط له! الإنسان الذي يتعامل بواقعيةٍ مع نفسه، فيشحذُ قواهُ، ويجمع قدراته وهذا ما فعله «ستيف جوبز steve jobs صاحب شركة appel الذي أُصيب بمرضٍ خبيثٍ حَسِبَ أن فيه نهايته، لكنّه

خرج بعد ذلك إنساناً واقعياً، لم تشغله الأوهامُ، ولم تلهه الأحلام فوجّه نصيحته للآخرين بأن يكونوا واقعيين في حياتهم.

قال لي والد طفلٍ لم يكن يمتلك موهبةُ الغناءِ حين طُلب منه ذلك: لقد قلتُ لإبني أن بعض المواهب لا يصنعها الإنسانُ وإن كان يمتلك العزيمة والإصرار فهي فطرةٌ وهديّةٌ من الله، في حين فقد يمتلك موهبةً أو قدرةً أُخرى لا يمتلكها صاحب الصوت الرخيم لقد كان إبنه الصغير يردِّد عبارة: «ليس صعباً على...»، وذلك لتحفيز نفسه، وهي عبارةٌ إيجابيَّةٌ لكنّها غير واقعيةٍ في بعض الأمور، ولذلك فقد يضرّه الإيمان المطلق بهذه العبارة إن لم يكن مرناً كما يقول المثل «لا تكن رطباً فتعصر، ولا يابساً فتكسر» وهذه دعوةٌ إلى الواقعية.

إن بعض النّاس يتشبّثون برأيهم حتى وإن كان ذلك الرأي لا يتماشى مع الواقع، ولا يتناسب مع معطياته، هؤلاءِ لا ينظرون إلى الأمورِ من جوانبَ شتى، فإما الأسودُ أو الأبيض.. ونحن هنا نتحدثُ عن أمورِ الحياةِ بعيداً عن الأمور العقدية التي قال الله سبحانه وتعالى فيها: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾[1]، هؤلاءِ الذين يرون الدخول من بابٍ واحدٍ حتى وإن كان فيه مضرّةٌ لهم وحسداً على عكس ما نصح سيدنا يعقوب عليه السلام بنيه ﴿وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾[2].

فكم من أُناسٍ ذهبوا ضحيَّة الرأي المتشبِّثِ بالصوابِ وقد كانوا في وهم، وكم من أُناسٍ ضلّلوا بأفكارٍ وأوهام حسبوا لها جذورا في الواقعِ وهي محضُ تضليلٍ وبهتان وفي المقابل فإن الواقعيين يبحثون دائماً عن الأبواب المفتوحةِ ولا يبحثون عن الباب الواحدِ فقط، ولعلّ مصيبةُ الكثيرين في أنّهم غير واقعيين في طرحهم، مضللين في

(١) سورة الحشر: الآية ٧.

(٢) سورة يوسف: الآية ٦٧.

زعمهم وادعاءاتهم، ذلك لأنهم آثروا البقاءَ جامدين دون حراك، ولو أنّهم تحرّكوا لتحرّكت أعينهم، وتفتّحت أذهانهم، واستنارت أنفسهم.. بعضُ هؤلاءِ يرى في الغربِ مجرّد عالمٍ إباحيٍّ منحط، لا قِيم له بسبب انتشار البغي والفجور وأشكال الإباحية، وهذه نظرةٌ في عموميتها غير واقعية وغير منصفة وأبلغُ دليلٍ على ذلك ما نحيا عليه من منتوجات الغربِ، وما نتلقاهُ من علومٍ ومعارف في جامعاته.

نعم.. في الغربِ مساويءَ وانحطاط وانحلال ولكن هذا لا يعني أنّ مستنقع الغوايةِ قد كبّل الغرب من التقدّمِ والإبتكار والإبداع، في المقابل يرون أننا نحن الأقوياء بكلمةِ لا إله إلاّ الله، أقولُ نعم نحن الأقوياءَ بإيماننا ولكن هل نترجمُ إيماننا بالله إلى واقع؟!

هل فعّلنا القيم التي تكتنفها هذه الشهادة إلى سلوكيات؟!

هل هي مجتمعاتنا نزيهةٌ أيضاً من المساويء؟

هل أصلحنا عيوبنا لنتفرغ لعيوب الآخرين؟!

هذه هي الشعارات المضلِّلة التي خدّرنا بها البعضُ منذ الصّغر دون النظرِ في الإعتبار بأن المسلم يجب أن يكون منفتحاً وأن يطلب العلم كما جاء في الأثر حتى من الصِّين، أي يطلبه من ثقافات مختلفة.

إنما هي شعارات تحجبُ العقل عن الواقع.. شعاراتٌ يصفّق لها البعض ممن لا يدركون خطرها، وسمُّها المخدر الذي جعلنا نرسفُ في أحلامنا قروناً من الزمنِ دون أن ننظر إلى الواقع بعينٍ بصيرةٍ تجعلنا نستيقظ لنرى الحال الذي أصبحنا عليه.

الواقعية تستلزمُ مواجهةِ الواقعِ والتعاطي معه بمسؤولية عالية هذا ما أراه، ولا تعني التّهرب منه وإدارة الظهر له، والواقع يتغيّرُ يوميّاً وعلينا أن نكيِّف أنفسنا للتعاطي معه وفق منهج الوسطية والإعتدال الذي وصفه الدكتور(عصام البشير) بقوله:

«هذا المنهج الذي يقدم الإسلام نهجاً يرتبط بالزمان والمكان والإنسان موصولاً بالواقع مشروحاً بلغة العصر منفتحاً على الاجتهاد والتجديد لا على الجمود والتقلي

جامعاً بين النقل الصحيح والعقل الصريح مستلهماً للماضي معايشاً للحاضر مستشرفاً للمستقبل، ثابتاً في الكليات مرناً في الجزئيات، محافظاً في الأهداف متطوراً في الوسائل، مرحباً بكل قديم نافع، منتفعاً بكل جديد صالح، منفتحاً على الحضارات بلا ذوبان مراعياً الخصوصية بلا انغلاق، ملتمساً الحكمة من أي وعاء خرجت مرتبطاً بالأصل ومتصلاً بالعصر».

الواقعية تستلزم أن تتفتح العقول على الثقافات الأخرى، والآراء الأُخرى يقول المهاتما غاندي Mahatma Gandhi عام (١٩٥٨)[١]:

«لا أحبُّ أن تسدَّ الجدران المنيعة بيتي في كل جهة، وتغلق نوافذي، إنّما بدلاً من ذلك، أحبُّ أن تهبّ ثقافات الأرض المختلفة في بيتي قدر المستطاع لكنني أرفض أن تقذفني أيّاً من هذه الثقافات خارج بيتي».

ولهذا فإن بعض الناسِ يرون أن الإنغلاقَ هو الحلُّ الوحيد أمام الدفق الهائلِ من الأفكار والآراء وصور التعبير المختلفةِ، والثقافات الأُخرى.

الواقعية تستلزم أن يصل الإنسان بعد تجارب إلى محصلةٍ يرى فيها إمكانيات نفسه، وقدرات عقله، وجسده، فيتخذ قراره مما كان ينشدُ نيلهُ إن كان مستحيلا لأنه لا يمتلك القدرات لنيله، بدل أن يهدر عمره وطاقته في طلب المستحيل، يقول الشاعر أحمد شوقي:

بصرت بالراحةِ الكبرى فلم ترها
تُنالُ إلاّ على جسرٍ من التّعب

أما بعض الناس غير الواقعيين فيرون أن الراحة يمكن أن تنزل بين ليلةٍ وضحاها وهم نيامٌ في الغرف الباردة، وحين ينتبهون يرون العصاميين من أقرانهم قد حققوا نجاحات وإنجازات فلم يملكوا سوى الحقد عليهم وحسدهم، فهذا غايةَ ما

(١) Simms, A., (2006), The strange story of footloose money, Radical economic, Spring 2006 Issue number 28.

يستطيعون فعلهم لأنهم لم يكونوا واقعيين كما كان هؤلاء.

غير الواقعيين يربطون أنفسهم بسرابٍ فيجرون وراءه وكلّما أوشكوا أن يصلوا إليه ظهر بعيداً لهم فلم يتوقّفوا ولم تصح عقولهم بل استمروا في الجري وراء السّراب كأنهم عطشى يحسبونه ماءاً.. وهكذا يمضي العمر بهم دون أن يصلوا إليه.

هؤلاء لا يريدون أن ينتبهوا للحقيقة لأنها ثقيلةٌ عليهم كما يصف ذلك (فاروق جويدة) في قوله: «سئمت الحقيقة.. لأن الحقيقة شيء ثقيل، فأصبحت أهرب للمستحيل» غير الواقعيين يملّكون الظروف قياد أمرهم، وكأنّهم مسيّرون بما يحدث لهم طوال العمر، غير مخيّرين بما يمكن لعقولهم أن تختاره»

«فللعقل أسماع وعَاة و أبصار» كما يقول (الحلاج)، فجميلٌ أن يكون الإنسانُ واقعياً يرى الأمور من مختلفِ الجوانبِ غير متزّمتٍ لرأي وغير متعصبٍّ لحجّةٍ إذا لم تمسّ الثوابتَ في دينه.

يقاسُ الإنسانُ حسبَ مقتضى المنطق بعملهِ لا بقوله، فمن القولِ هرَجٌ ومرج، فإذا جاءَ وقت العمل تخبّط الكلامُ، وعرجت الأقدام، فالإيمان «ما وقَر في القلبِ وصدّقه العمل».. لهذا فمن النّاسِ من يكون لسانهُ أطولُ من يدهِ التي تقصرُ عن تبجّحِ لسانهِ.

ذات مرّةٍ أقعدنا أحد أصحاب المدارس الخاصّة ليعزف لنا قدحاً في المدارس المنافسة ومدحاً في مدرسته، واحترافيّة منهجه، وأفضلية طريقته على سائر المدارسِ، وبالرغمِ أن لسان الرجل قد كشفه قبل أن نعايش مساوىء احترافيته فيما بعد.. إلاّ أننا آثرنا أن نتبع طريقه القصير في الكذب..لنرى أين سينتهي، فانتهى إلى خلاصة تتوافق مع مقولة: «فاقدُ الشيءِ لا يعطيه»

المتنبي حذّر سيف الدولةِ ممن يظّنُ فيهم الفضائل وهم بعكسِ ذلك قائلاً له:

أعيذها نظراتٍ منك صادقةً

أن تحسبَ الشحمَ فيمن شحمه ورمُ

ومـــا انتفـــاعُ أخـــي الدنيـــا بناظـــره

إذا اســـتوت عنـــده الأنـــوار والظلـــمُ

وقـد تحـدّث معـي أحد النـاس ممتعضاً عـن عملٍ مـن الأعمال فقلـتُ له: أُنظـر من وراء العمـلِ، وسـل عن أخلاقه، ومسـالكه وأفعاله يغنيـك ذلك عن التعجّـب والإندهاش، فهـل يُرجـى خُلُقـاً مـن إنسـانٍ لا خُلُـق لـه، وكيـف ينتظـر العمـل الصالح من إنسـانٍ فاسد..

أمرتـــك الخـــير لكـــن مـــا ائتمـــرتُ بـــه

ولا اســـتقمتُ فـــما قـــولي لـــك اســـتقمِ

إن مـن النّـاسِ مـن لا يصـدق قولـه فعلـه، فهـو لا يقـدّر قيمـة الكلمـة التي يندلـقُ بها لسـانه، ويخرجهـا جنانـه.. وهـي التـي تكبّه عـلى وجهـه في النـار إن كانت كلمة سـوء.

ووالله إن الله ليكشـف المنافقـين، وهـذه شرعـةُ السـماء، يقـول تعـالى في سـورة البقـرة: «وَمِـنَ النَّـاسِ مَنْ يَقُـولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَـوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُـمْ بِمُؤْمِنِينَ يُخَادِعُـونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُـوا وَمَـا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَـهُمْ وَمَا يَشْـعُرُونَفِي قُلُوبِهِمْ مَـرَضٌ فَزَادَهُـمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَـذَابٌ أَلِيمٌ بِـمَا كَانُـوا يَكْذِبُونَ».

لقـد كانـت الإزدواجيـة سـبباً في دائهم، فما يقولـوه عكس مـا يفعلوه، وقد يشـفى الداءُ حـين ينتبـه الإنسـان منهـم مـن غفلتـه ويعـود إلى رشـده، فكـم مـن النـاس مـن فعلوا ذلـك، وسـاعدهم نضجهـم إلى العـودة إلى جـادة الطريـق.. أخـبرني أحـد الأخـوة من دولـةٍ عربيـة يقـول: كنـت كذلـك الشـخص الـذي يشـير إليه أحمـلُ أفـكاراً بعيـدةً عن ثقافتنـا، ومعتقداتنـا.. أمّـا الآن فقـد عرفـت الصواب مـن الخطأ.

هـذا أمـرٌ طبيعي أمّا أن يحسـب البعـض أنّه يخادعـون النّاس بأقوالهـم، بينما تنبّـأُ أفعالهم عكـس مـا يقولـون فلهـم سـوءُ العاقبـة، حينـما طُلب منـي أن أتحـدث أمـام اليافعين في ملتقاهـم قلـت لهـم جملةً من الرسـائلِ منها أن الكلمـة أمانة فإذا خرجـت فقدتموها دون رجعـة، فاعرضوهـا عـلى العقلِ كـي يتفحصهـا قبـل أن تسـلّموها لألسـنتكم.. فتنالوا

مـن شرّها مـا لا يحمـد عقباه.

إن لابـس الثـوب ليسـت مخافتـه مـن المخـرز يشـق ثوبـه بـل مـن تفـكك نسـيج ثوبـه، حـين ينسـلُّ خيط مـن الخيـوط، ومصيبة كل جماعـة ليسـت في خارجها بـل فيمن يكون داخلهـا ويبـثُّ سـمومه في شرايهـا وطعامهـا..! ومصيبـة البيـت ليسـت خارجـه بل في أهلـه إن لم يصونـوا عرضـه وحرمتـه، ومصيبـة الإنسـانِ ليسـت في غـيره بـل في نفسـه الأمّـارةُ بالسـوء، هـو الداخلُ إذن أخطـر من الخارج.. وهـي مقولة قالهـا الفاروق عمر بـن الخطـاب رضي الله عنـه: «إن هزمـت فليـس لقـوةٍ في عـدوك وإنّما لضعـفٍ فيك».

إن الحـل لا يكـون بالتلفـت يمنـة ويـسرة لاتقـاء السـهام المرميّـة وإنّما بتحصـين النفسِ بالخـير.. فالخـير كامـنٌ فيهـا وإنما يحتـاج إلى تقويـة وتعزيـز «الخـير فيَّ وفي أمتـي إلى يوم القيامـة»، والحـذر مـن النفـس أولاً ثم مـن الدائرة القريبـة، ولقـد ابتليت الأمّـة بأُناسٍ غرّتهـم أنفسـهم، وانحرفـوا عـن جـادّة الصـواب هـم مـن الذيـن قـال الله تعـالى فيـه: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾[1]، توافـرت لديهـم المقـدرة والوسـيلة عـلى الإغـواء، وبـث السـموم، ووجـدوا مـن يـروّج لأفكارهـم عـن غفلةٍ، وسـذاجة، أو عـن تعمّـدٍ وقصد.

ومـع الإيـمان بـأن ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾[2]، إيمانـاً جازمـاً.. فإن الله أمرنا أن ننتبه لمكـر الماكرين.. وأن لانكونَ توابـعَ لهم، حمّـالي رسـائلهم، مروّجـي أفكارهم.

---

(١) سورة المنافقون: الآية ٤.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٥٧.

على كف القدر:

هناك أناس يسبحون في أتجاه السفينة.. وهناك أناس يضيعون وقتهم في أنتظارها.

يتحججُ أغلبنا بالقدرِ في تعاطيهِ مع مقتضياتِ الأحوالِ، ومستلزمات البقاءِ والمآلِ وفي لبِّ الحقيقةِ يكمنُ الإهمال وليس بين القدرِ وما يتحتّم على الإنسانِ قضاءه، وتفرض معطياتهِ اتباعه والأخذِ به من تضاد.

إنّما يعلّقُ أغلبنا أمرَ حياتهِ على قدره كيفما شاءَ واتّفق وكأنّه مخلوقٌ لا عقلَ له ولا تدبير، ولا تصرّفَ ولا تفكير، ولا وعي ولا إرادة، تسمعُ عبارة ناطقٍ: «هذا هو قدري» وكأنّما اطّلعَ على الغيب، فرأى مسارَ قدره، وليس يعني أن يفسّر إيمانه بالقدرِ خيرِه وشرّه وهو ركنٌ ثابتٌ من أركانِ الإيمان، حين يربطه بتقاعسهِ عن العملِ، وتكاسلهِ عن السعي نحو الأفضل «فالمؤمنُ القوي خيرٌ وأحبُ إلى الله من المؤمنِ الضعيف»[1].

أغلبنا يهملُ صحّته ولا يأخذُ بالأسباب التي تبقيه صحيحاً سليماً لا تعوزه اللياقة البدنية فإذا أُصيب بداءِ السكري بدأ في ممارسة رياضة المشي والتقليل من الأطعمة السكرّية، وذات الدهون وغيرها مما يرفعُ يرفع من درجة المرض، أغلبنا لا يكترثُ لتوالي الأيام، وحدوث المتغيرات على الصعيد الجسدي لديه مع نمو سنّه، أو ممارسته لعادةٍ ما حتى يحدث حادثٌ ما يجعله يستفيق من غفلته، وينهضُ من غيبوبته، فإن كان مهملاً لنفسهِ يجري وراء الأشغال وجمع الأموال غير مكترثٍ بالكشفِ السنوي على أقلّ تقديرٍ للمخبوءِ غير الظاهرِ من تغيّرات في جسدهِ فإنّهُ يبدأ في تقريعِ نفسه، ولومِ غيره على التقصير، وإن كان معتاداً على التدخينِ فإنه يتحجج بأن قدرهُ في

(١) أخرجه مسلم.

الحياةِ أن يعيشَ مدخّناً، حتى إذا أصيب بداءٍ عضالٍ أو أصابته جلطة نسفَ كلّ مقولاته السابقة عن قدرهِ فأوقفَ التدخين الذي لم يعد قدره بعد هذه الحادثة.

أغلبنا لا يربط الأسباب بالمسببات، لا يربطُ الطالبُ الإهمالَ في دراستهِ، والخمول في مذاكرتهِ، بالرّسوب في امتحانهِ، والضعفِ في محصّلاته، لا يربطُ الموظف تسيّبه من عملهِ، وعدم تفانيه وإخلاصهِ فيه، بعدم ترقّيه وتأخّرهِ في مستواه الوظيفي.. لا يربطُ اللاعبُ خسارته بمستواه المتدني، وضعف لياقته البدنية أو أفضلية الطرف الآخر عليه وإنما يربطه بظلم الحكم، وضعف أداءِ زملاءه.. لا يربطُ المتأخر عن الموعد بعدم تخطيطه الجيد للموعد، وإنّما يربطه بالزحمةِ في الشارعِ كأقربِ سبب.. لا يربطُ المسؤول تفريطه في عمله، وفشلهِ في قراراته بسوء إدارته، وقلة خبرته، وضعف كفاءته.

في ثقافتنا يرسخ في البعض ما يقوله الشاعر الشعبي:

على كف القدر نمشي ولا ندري عن المكتوب

عبارة كنت أرددها صدق من صاغ معناها

متى يحالفني الحظ ويصحح وضعي المقلوب

يعدل قسوة الأيام وغلطة ما ارتكبناها

لقد حمّل الشاعرُ وحمّله معه كثيرون القدرَ والحظ مسؤولية تصحيح وضعه المقلوب وتعديل غلطة ما ارتكبناها، ولهذا وقف يندبُ الحظّ، ويشكو قسوة الأيام دون حراكٍ منه أو مبادرةٍ على التغيير.

في ثقافتنا يعتقدُ البعض خاطئاً بما عبّر عنه الشاعر:

ومن ظن أن الرزقَ يأتي بحيلةٍ

فقد كَذَبته نفسه وهو آثمُ

يفـوتُ الغنـى مـن لا ينـامُ عـن الـسّرى

وآخـر يـأتي رزقـه وهـو نائـمُ

إن مثل هـذا الـكلام ليثبّـط الهمـم، ويمنـع الإنسـان عـن السّـعي عـن العمـل وربـطِ أسـباب النمـو والتقدم بقدر سـعيه وهذا مـا يأمر به تعـالى: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥﴾[1].

البعـض يـسيء فهـم القـدرِ في قـول المصطفـى عليـه السـلام «أن مـا أصابـك لم يكـن ليخطئـك، وأن مـا أخطـاك لم يكـن ليصيبك»[2] ويحسـبُ إمّا عن نشـأةٍ نشـأها أو حجّةٍ تسـتّر بهـا أنَّ كل خطوةِ إقـدامٍ وإحجـامٍ، وحركة أيادٍ وأقـدام إنّما هي أمرٌ مقدّرٌ مرسـوم لا قـدرة لـه فيـه ولا إرادة لهـذا تخبـو في نفسـهِ روح المبـادرةِ، وتـذوي في عضلـه عزيمـة الهمّـة فيصبـحُ فاتـراً ضعيفـاً، مهلهـلاً عليـلا..! وهـو في هذا غـير صائب.

ينقـل لنـا العـالِم (أ.كريـسي) في كتابـه (العلـم يدعـو للإيـمان) قصّـة مُمتعـة عـن سـمك السـلمون فيهـا مـن العـبرةِ والحكمـة لهـذا الإنسـان فيقـول: «أنّ العلـماء اكتشـفوا مـن خـلال دراسـتهم لحيـاة هـذه الأسـماك، ظاهـرة غريبـة مُذهلـة، فهـذه الأسـماك تولد في النهـر، ثـمّ تذهـب لتعيش سـنوات في البحر، ثـمّ تعود إلى النهـر الذي ولـدت فيه، وإذا نُقِلَـت مـن هـذا النهـر إلى نهر آخـر متّصل بـه، فإنّها تسـبح عكـس التيّار حتّـى تعود إلى النهـر الـذي ولـدت فيـه. إنّهـا تعرف مـكان مولدهـا، وترتبـط بـه، وتبحث عنـه، حتّى تعـود إليـه لتعيـش فيه».

هـذا يعني أن السـمك لم يستسـلم لواقـعِ حالهِ وإنّما سـعى جاهـداً عكس التيـار لتغييره حيثـما يكمـن معاشـه الأفضـل، فَلِـم تتخثّـرُ دمـاءُ الهمّـةِ في الإنسـانِ ويسـتكين لهزالـةِ الواقع.

---

(١) سورة التوبة: الآية ١٠٥.

(٢) رواه الإمام أحمد وصححه الألباني.

يقول جبران خليل جبران:

قـــدرٌ وهـــل يشـــكى القـــدر

مـــا الحـــزمُ إلا مـــن صـــبر

إن مـن يرمـي الزّمـنَ، ويشـكو قسـوة الدّهـرِ، ويندبُ الحـظّ، ولا يفهـمُ معنـى الإيمان بالقـدرِ هـو الضعيـف الإرادة، الخائر العـزمِ الذي لا يتحقـق له مطمح ولا يقـومُ له على أرض الواقـعِ إنجـاز، ويبقى الفـوز للمبادر.

Menu
Edit
Help
ACCOUNTING
HOME
DEAL
INCOME
CHARGE
REPORTS
BUDGET
PROFILE
4/4
3/4
2/4
1/4
Tel. 1011 3
* Send E-mail
IDEAS
ACTION
PLAN

ما لا يَعني:

مَا شَيْءٌ أَحَقُّ بِطُولِ سِجْنٍ مِنْ لِسَانٍ.

من الأثر

مما يجلبُ العواقب الوخيمة على المرءِ زلّةِ لسانِه، أو سقطةَ لفظِه بسبب هذرِه، وكثرةِ كلامه، ولغطه.. وخوضِهِ فيما لا يعنيهِ من أمورِ النّاسِ، وأعراضهم، وخوّاص شؤونهم، لأن ذلك مؤذٍ للآخرين، وجارح لمشاعرهم.

فكما يقال: «جرح اللّسان أشد وطأة من جرح السِّنان» وهذرُ الإنسانِ في أمورٍ لا تخصّه، وشؤونٌ لا تعنيه إنتقاصٌ لقدرِ نفسهِ، وإنزالٌ لكرامته، فهو لا يخوضُ في شؤون الغيرِ إلاّ عن نقيصةٍ يحسُّ بها، ودونيَّةٍ يشعرُ بها، إنّما الشريفُ، العفيفُ هو من يصونُ نفسه عن التدخّلِ فيما لا يعنيهِ، يقول صلى الله عليه وسلم:»من حسن إيمان المرء تركه ما لا يعنيه»، وحينما سأله معاذ بن جبل رضي الله عنه:يا نبي الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فأجاب عليه النبي صلى الله عليه وسلم بسؤال تقريري فقال له: « ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكب الناس على وجوههم أو على مناخيرهم في النار يوم القيامة إلا حصائد ألسنتهم؟!،فإذا كان أطيب عضوين في الإنسان هما قلبه ولسانه، فهما أخبثُ عضوين أيضاً إن جرى عليهم الخبيث من القول، والفاحشُ من الكلام».

وإني لأعجب من هذه اللّذة التي يجدها البعضُ وهو يخوضون في شؤونٍ لا تعنيهم، وكأنّما ليس في الحياةِ من الشؤون التي تستحقُّ نقاشها، والحديث حولها، وتداولها سوى أعراضُ الخلقِ، وشؤونهم وتتبّع عوراتهم، إنّها لذّةُ المرضى أولئكَ الذين يداوون عللهم بعلل أشدُّ فتكاً، كمن يهربُ من مشكلةٍ يعانيها إلى الخمر، أو إلى التدخين فهو «كالمستجيرِ من الرّمضاءِ بالنّار»

لا يجدون حلاوةً أكبر من الإنتقاص من شأن النّأس، والتطرق إلى عيوبهم.. وفي المقابل يعلون من رفعةِ شأنهم أنفسهم.. ووالله لو انشغلوا بعيوبهم لأغنتهم وشغلتهم عن غيرهم، ومنعتهم عن تقصّي أمورهم، وتتبّع عوراتهم، وقد شهدتُ من النّاس من لا يلذُّ له حديثٌ سوى الإنتقاص من هذا وإلصاق العيوب على ذاك.. وهو والله مليءٌ بالعيوبِ غير أنّه لا يتّعظ بمقولةٍ حكيمٍ كالشافعي حين قال:

لسانك لا تذكر به عورةَ امريءٍ
فكلّك عوراتٌ وللناس ألسنُ
وعينك إن أبدت إليك معايباً
لقومٍ فقل يا عينُ للناسِ أعينُ

مثل هؤلاءِ رجلٌ لا يظهرُ في مقابلةٍ إلاّ وهو ينتقصُ من شأنِ الآخرين ويقلّل من عطاءاتهم، ويسفّه من جهودهم، حتى أنّه لم يستطع ذات مرّة أن يكبحَ جماح نفسه دون أن يكتب رسالةً إلى أحدهم مسفّهاً، ومنتقصاً فأذاع ذلك المرسَلُ إليهِ الرسالةَ إلى أقرانه فما كان منهم إلاّ أن أهالوا سهامهم على المرسل معدّدين عيوبه، ومنتقصين من شخصه، فهل سيتلقّى الردود التي لا يودّها لو صان نفسه عن القدحِ في الآخرين؟ وشابٌ آخر لا يحلو له سوى انتهاك عرض النّاس حتى أسقطته لسانه عند قريبٍ من امرأةٍ يقذفها بلسانهِ، ويتهمّها بكلامه.. فأسلمته لسانه إلى عواقب لم يكن يحسبُ لها في ظنّه.

إن الكثير من المجالسِ والمقاهي والمكاتب والمنتديات في مجتمعاتنا لا يهنأ لها مقعد، ولا يطيبُ لها حديث، ولا يأنس لها فضاء إلاّ بالخوضِ في شؤونٍ لا تعنيها، عمّارها أناسٌ لا شغل لهم سوى إجراء اللّسان في مذاهبَ لا يكون من وراءها الخير بل السمُّ الزعاف، ولو اشتغلَ الموظفون بالحديث عمّا يطوّر أدائهم، ويحسّن عملهم لكان ذلك خيراً لهم.. كذلك لو اشتغل الجلاّس في شتى المجالس والمقاهي فيما يضيفُ إلى النفسِ من خلائق، وفضائل، ومعارفَ، وعلوم لكان ذلك أفضلُ

وأجدى، ولو انشغل أرباب البيوت وأفرادها في اقتصاد المعيشةِ، وتحقيق الأهداف، واكتساب الشمائل لاغتنوا وارتقوا..ولو اشتغل روّاد المنتديات فيما يضيفُ يصلح من أنفسهم ويقوّم من أخطائهم لاستفادو لكنّ الكثير، الكثير من مجالسنا، ومكاتبنا وبيوتنا ومنتدياتنا غارقةٌ في شؤون لا تعنيها، وأمورٍ لا تخصّها، وهي لا تتطرقُ إليها على سبيل التّعلم، وإنما على سبيل التّهكّم، فكم من النّاس من وقعَ في المحظورِ أمام أهلُ الشأنِ فقامت القائمة بينهم، وكم منهم من هتك أعراض الآخرين فبلغهم اللّغط فساءت العشرة، وتعكّر الصَّفو.

ووالله لو كلّ واحدٍ منّا اتبع هذا الحديث لسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إيَّاكم والظن فإن الظنَّ أكذبُ الحديث ولا تحسَّسوا ولا تجسَّسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا كما أمركم، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره التقوى هاهنا قالها ثلاثاً وأشار إلى صدره بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله»[1].

هذا منهاجُ طريقٍ نيِّر لا شائبةَ فيه، وكم شهدتُ على من يتظاهرون بالدّينِ، ويدّعون الثقافة، ويزعمون العلم، ويتفاخرون بالأدبِ وهم يحطّون من أقدار الخلقِ، ويرفعون من شأنهم، لا يرون في العبادِ إلاّ عيوباً، ولا يرون في أنفسهم إلاّ كمالاً، يحكمون على هذا من مظهره، ويقدحون ذاك لصورته، ويشمّتون آخر لجهله.. ولا يعلمون أن: «ربّ أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبرّه»( )، ولا يدركون أن التقوى في القلب كما جاء في الحديث الشريف السابق.. أولئك ما عرفوا أبسط قيم الدّينِ والثقافةِ، والعلم، والأدب تركُ المرءِ مالا يعنيه.

وإنني لأقدّر أناساً تراهم في المجالسِ صامتون، آذانهم صاغيةٌ، لا يخوضون مع الخائضين، فإما نطقوا بخير أو سكتوا أولئك صانوا أنفسهم عن الخوضِ فيما لا

(١) رواه مالك والبخاري ومسلم.

يعنيهم، وترفّعوا عمّا يؤذيهم هم المستحقون للتقدير والإجلال، ولو أن مصالحنا، وبيوتنا ومجالسنا ومنتدياتنا عمرها ما يعنينا لتقدّمنا ولكننا آثرنا أن نشغل الفراغ بالحديث فيما لا يعنينا، فتأخّرنا وتلك واحدةٌ من مصائبنا الكبار.

تحديد الأهداف:

> رأيت السرى فرضاً إلى سر من رأى، فبادرت والتوفيق حظ المبادر.
>
> إبراهيم العاملي

تحديد الأهدافِ هو الغايةُ النبيلةُ التي يجب أن يسعى لها الإنسان الرشيد، لا يمكنُ لإنسانٍ يريدُ أن يعيش الحياةَ بواقعيةٍ أن يحيا بلا أهدف، لا يمكنه أن يتّخذ الحياةَ محضُ صدفٍ، ومواقف، وأحداث ليس لاعباً مؤثراً فيها، وإنّما ضحيّة من ضحاياها، ورقماً هامشيّا من أرقامها.

فهل أغلبُ الناس يتّخذون أهدافاً في حياتهم..؟!

الظنّ لديَّ أن أكثرهم يجهلون كيف يمكن تحقيق هذه الأهداف، وما هي الخطوات التي يجب أن يقطعونها للوصول إلى أهدافهم، هذه معضلةٌ كبيرة..

كثيرٌ من النّاس تمضي حياتهم بلا أهداف واضحةٍ، صريحة، بعضهم يتلذّذ بإنحشاره في وظيفة رتيبة، تدرُّ عليه راتباً ضئيلاً، وقد فرض بخموله وتكاسله الحياة البائسة له ولمن يعيلهم، لقد قتل الهمم الوقّادة التي لا شكّ دفينة في نفسهِ، وشتّت نشاطهُ في باقي جسده، واسترضى حياةَ الدّعةِ وفوق ذلك فإنّه يحبّط غيره، ويُثنيه عن الوصولِ إلى غايتهِ وتحقيق أهدافه.. راسلني أحد الأصدقاء المقربين من الولايات المتحدة الأمريكيّة وقد كان في برنامج دراسي/ تدريبي، يطلبُ مني تشجيعه وهو محبطٌ من كلامٍ بعثه له من قال عنه أنّه صديق يقول له فيه: لماذا تركت وظيفتك المحترمة، وراتبك الجيّد وسافرت دون أن تتمكن حتى من إصطحاب أسرتك كي تلقى الضنى والمشقّة في برنامجك هذا، فرددتُ عليه بالقول: أعذرني فإنني لا يمكنُ أن أسمي هذا صديقاً فهو رجلٌ محبط، وكان أجدرُ به أن يبعث إليك بكلمات التحفيز والتشجيع.. ولكنّه لربما عاش بلا هدف، أو لا يدري كيف يصل إلى أهدافه، أو أنّه

متخاملٌ، متكاسلٌ مرتضى لحياةٍ خاملةٍ، رتيبة، ولهذا يريدُ للآخرين أن لا يسعوا وراء أهداف لهم.

ها أنتم ترون في الشوارع أناساً أنعم الله عليهم بالصحّة والعافية، ترونهم ذوي أجسامٍ قد لا يهدّها العملُ الشاقُ، ولا يرهقها الشغل المتواصل.. ولكن مع ذلك يستجدون النّاس، يبتعدون حتى عن الأعمال الصغيرة، ويرتضون بالأعمال المهينةِ التي لا تجلبُ لهم سوى الإحتقارِ والشماتةِ من النّاس.. وها أنتم ترونَ الشباب الضائعَ، المهدورَ في المقاهي، فتتمنون لو أنّهم كانوا يتنافسون ميدانِ عملٍ، وكفاحٍ من أجلِ تحقيق الأهدافِ، وليس الجلوس الخامد في المقهى، والتّكدسِ بلا عمل، وإنني لأمنُ بأن الشّاب أو الشّابةِ الذين يدركون واقعية الحياةِ لا يستطيبون هذه الجلسات التي تضيعُ العمرَ فيما لا يحقق لها هدفاً، حتى إذا مضوا في أعمارهم نظروا خلفهم فرأوا كم بدّدوا من أوقاتٍ، وأضاعوا من أعمارهم بين ردهات المقاهي، أو الملاهي، أو غيرها من أماكن اللّهو الفاسد.

إن الثقافة الشائعة عندنا هي أن الهدف لدى الكثيرين منّا مجرّد حلم يقظةٍ يحلم به الواحد منا، ولا يغادرُ هذا الإطار.

نعم.. إن الهدف حلمٌ ولكنّه حلمٌ يجب أن نعمل له، ونسعى إليه، فذلك أبو المسك كافورٌ مؤسس الدولة الإخشيدية دخل مصر عبداً أسود يشترى ويباع ثم بعد عشر سنوات أصبح حاكمها، هكذا كان حلمه الذي سعى إليه، في حين تحقّق لصديقه العبد الآخر الذي كان يشتهي الطعام فأصبح يملك مطعماً.

وإنني حين أرى هجاء المتنبي له، وقد جاء منه:

لا تشتري العبد إلاّ والعصا معه

إنّ العبيد لأنجاسٌ مناكيدُ

أُنكرُ على المتنبي هدفاً قد لا يكونُ صالحاً له وهو أن يحصل على ولاية ما وحرمه منها كافور.. فذلك لم يكن ربّما هدفاً يصلح له حيث لم يحققه له سيف الدولةِ قبل

كافـور هـذا الهـدف بينـما تحقـق لـه الهـدف الأول الـذي سـعى إليـه وهو الحصـول على المـالِ خاصـة بعـد قصّة بائـع البطيخِ حينما رسـم المتنبـي هدفاً بـأن يكون عنـده أكثر من مائة ألـف دينار

يقـول (ديـل كانيجـي): «إن كل إنسـانٍ موجّـهٌ لمـا خُلق لـه، وإنّ من يضع نفسـه في غير محلّهـا يفشـل لا محالـة» وأعتقـدُ أن هـذه معضلـةُ الكثـير من النّـاس: وضع أنفسـهم في غـير محلّهـا، فهم لا يتفكـرون في مقولة: «أنت مـا تعتقدهُ عن نفسـك» ومقولة: «حياتك اليـوم محصلـة لأفكارك السـابقة»، فالإعتقـادُ في الموهبةِ، والقدرة والإيـمان بها شرطٌ هام لتحقيـق الأهـدافِ الواقعيـة، ولعـل مقولة: «رحـم الله إمرأ عرف قدر نفسـه»

هـي مقولةٌ تأسيسـيّة على الإنسـان أن يلتـزم بها، فمعرفة قـدر النفس هي ذاتهـا الإعتقاد بـما تملكـه مـن القـدرات والهمـم والمواهـب.. ولـو قـدّر النـاس أنفسـهم لوضعوها في محلّهـا الصحيح.

لقـد رأيـتُ أناسـاً يقفـزون مـن عمـلٍ لآخـر، كـما يقفـز العصفور مـن غصـنٍ لآخر لا يـكاد يطيـب لهـم عملٌ حتى يثبـون لغيره، ورأيـتُ آخريـن لا يقتنعون بعمل ما يتناسـقُ مـع مواهبهـم وقدراتهـم، وإنما يتشـبّثون بأعمال لا تتناسـبُ مع طبائعهـم، ولا مواهبهم ولا قدراتهـم، فـلا تثنيهم نصائـح المخلصين، ولا تردّهم شـماتةُ الشـامتين.

شروط الأهـدافُ اختـصرت في عـالم الإدارة في هـذه الكلمـة «SMART» وهـي أن يكـون الهـدف دقيقاً ومحـدداً Specific، وأن يكـون قابلاً للقيـاس Measurable وقابلاً للإنجـاز Achievable، وواقعـي Realistic، وأن يكـون لـه بعد زمنـي Time، وحين نعـودُ إلى المنهـلِ الثقـافي الأصيـل نجـدُ أن الإسـلام قـد اتبـع أهدافـا محـدّدة، واقعيـة، مقاسـة، قابلـة للإنجـاز ذات بعد زمني محـدّد، فإقامة القاعـدة المتمثل في إرسـاء العقيدة في مكّـة إسـتغرق ثلاثـة عـشر عامـاً، وبنـاء الدولـة الإسـلامية اسـتغرق عـشرة أعوام، وفيهـا تـم إرسـاء العنـاصر الأساسـيّة لقيـام دولة إسـلامية تملـك كل العنـاصر اللازمة لتكـون قاعـدة رصينـة وصلبـة للأزمنـة التي تـأتي بعدها..

ثم جاء التوجيه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[1].

تحديدُ الأهدافِ من واقع حياتنا الثقافية، من أصول ديننا، لكننا نضيعها لأنّنا لا نقدّر أنفسنا تقديراً جيّداً وبالتالي لا نضعها المكانة التي تستحق بل نضيعها في أهدافٍ غير واضحةٍ، ومرامي مشتّتة، وصدفٍ غير محسوبةٍ، ومواقفَ غير مخطّط لها.

حينما استضافتني إحدى المدارس منذ أشهرٍ لإلقاء محاضرة حول كتابي القادم المتعلّق بالقيم المعطّلة في المجتمعات العربية.. أدهشني أن يتحدّث أحد الطلاّب عن الأهدافِ بهلاميّة وضبابيّةٍ فأثار سخرية زملاءِهِ وشماتتهم، فقلتُ في نفسي: هذا ممن لا يؤمنون بواقعية الأهدافِ ويفضّلون التهويم في فضاءاتها الحالمة.

يقول رجل الأعمال المعروف/ صالح كامل، صاحب مئات الشركات في برنامج قيم السوق: «درستُ حينما كنتُ صغيراً تأمّلت في جيراننا الأغنياء، فسألتُ نفسي كيف أصبحوا أغنياء؟ فوصلت إلى استنتاجٍ بأنهم رجالُ أعمال لا موظفون في الحكومة وحينها بدأت أول الطريق لأصبح رجل أعمال من بيع صنفٍ من الأكلات، ثم العظام التي تستعمل للعب» وهكذا حتى أصبح اليوم مالكاً لشركات كبيرة وعديدة وفي الأخير، هذه بعض الوصايا المتواضعة لتحقيق الأهداف وهي.. الإيمان بقدرات النفس وأن الإنسان قادر على أن يحقّق أهدافاً حقّقها غيره.

فقد كان سيدنا أبوذر الغفاري يسأل النبي صلى الله عليه وسلم الولاية، فيقول له: «يا رسول الله ولِّني -أي اجعلني أستلم منصب- فقال: يا أبا ذر إنك امرؤ ضعيف لا تولين على اثنين ولا تحكمن في مال يتيم»، وأن الإنسان يكون موقناً بواقعية الأهداف.

---

(١) سورة المائدة: الآية ٣.

يقول الشاعر أحمد شوقي:

بـــصرت بالرّاحـــة الكـــبرى فلـــم ترهـــا

تُنـــالُ إلاّ عـــلى جـــسرٍ مـــن التّعـــب

وأن يبحـث الإنسـان عـن العمـل الذي يرضيـه ويتفق مـع مواهبه وقدراتـه ولا ينخرط في عمـل «ليـس لـه ناقةٌ فيـه ولا جمـل» كـما يقال..كذلك عليـه تتبـع السـوانح، وإنتهاز الفـرص إن حانـت، كما يقول الشـاعر:

إذا هبّـــت رياحـــك فاغتنمهـــا

فـــإن لـــكل حادثـــةٍ حديـــث

ومـع ذلـك نقـول: أن عليـه انتهـاز الفرصـة إن هبّـت الريـاح.. ولكن لا يجـب عليه أن يسـكنَ مـع سـكون الريـح، بـل عليـه أن يبحـث عـن الفرصـة السـانحة، وأن لا يتعلل بترديـد بيـت الشـعر القائل:

مـــا كلُّ مـــا يتمنـــى المـــرء يدركـــه

تجـــري الريـــاح بـــما لا تشـــتهي الســـفن

وإنّما يردد مؤقناً ومؤمنا بالقول:

تجـــري الريـــاح كـــما تجـــري ســـفينتنا

نحـــن الريـــاح و نحـــن البحـــر و الســـفن

إن الـــذي يرتجـــي شـــيئاً بهمّتـــهِ

يلقـــاهُ لـــو حاربَتْـــهُ الانـــسُ والجـــن

فاقصـــد إلى قمـــم الأشـــياءِ تدركهـــا

تجـــري الريـــاح كـــما شـــائت لهـــا الســـفن

كـما عليـه التّثقـف العميـق، والإطلاع الواسـع فيما يجـد أنّه يسـعده ويتوافق مـع طبائعه فيـه، ولا يركـن للحـظ فـإن الحـظَّ كلمـةٌ هلاميـة، فـإن الإنسـان مجـازى بحسـب همّته

وعمله، يقول تعالى:

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾[1] وعليه أنّ يحذف من قاموسه كلمة «لفشل» بل يحوّلها إلى «تجربة» ويسعى لها مهما طال به العمر، فالإنسان الواقعي يجب أن يسعى لأهدافه بالطريقة المثلى وبكفاح مرير

ولعل الحديث الشريف التّالي هو الذي يوضّح أن على الإنسان أن يصل لهدفه حتى لو قامت القيامة، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها».

(١) سورة النجم: الأية ٣٩.

شبحُ الخوف السلبي:

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾.

سورة التوبة

يعيق الخوفُ الإنسانَ من التقدّم ويشكّل عقبة أمام طموحاته وقدراتهِ ومواهبه، فكم من أفسدَ عليهم الخوف ملكاتهم، وكم من أضاع عليهم مواهبهم، وكم من عطّل عليهم آمالهم، وهو في حقيقتهِ خوفٌ غير مبرر لأنه غير مبني على حقائق واضحة.

الهاجس السلبي هو المسيطر على الإنسان السلبي أكثر من الهاجس الإيجابي إن كان الإنسان مهتزاً في ثقته لنفسه، متذبذباً في تفكيره، لهذا يسود الخوف نفسه، ويتحكم في مشاعره فيشّل حركته، ويقيّد أفكاره.

ومن المؤسف القول أن مفردةُ الخوفِ قد تغلغلت في ثقافتنا حتى أصبحت صفةً من الصفاتِ المكوّنة للشخصيةِ ظاهرةً أو باطنةً بحسبِ الظروف، فهي على أطرافِ الألسنِ بمناسبةٍ أو غير مناسبة، بشعورٍ أو لاشعور.. وهي مما يثبّطُ الإقدامَ، ويشجّعُ على الإحجام في تحقيقِ الطموحِ والمرام.

فإذا تحدّثَ أحدنا عن منجزٍ يريدُ إنجازهُ قالَ: «أخاف الفشل» وإذا أراد المضيّ في أمرٍ تردد قائلاً: «أخاف أن لا يتحقق»، وإذا فكّر في القادمِ قال: «أخاف من المستقبل»، وإذا ذكرُ الأب أو الأم أولادهما قالا: «نخافُ على أولادنا»، الخوفُ مزروعٌ بإيجابيتهِ وسلبيّتهِ في النفس فإن كان في معاني الخوفِ ما هو إيجابي.

كقولهِ سبحانه وتعالى في التنزيل العزيز «واذكُرْ ربك في نفسِك تضرُّعاً وخِيفةً « فهو وسيلةٌ لطمئنينةِ النفس بخضوعها لإرادةِ خالقها وطاعته، أمّا الخوف السلبي الذي نحنُ بإزاءهِ فهو الذي يزعزعُ النفس، ويصيبها بالتوترِ الدائمِ والقلقِ المؤذي، والهلعِ

من القادمِ المجهول مثل الخوف من المستقبل والفشل والفراق والفقدان والتغيير.

وإذا كانت مفردةُ الحبِّ ضعيفة، أو تطلُّ على استحياءٍ، لأنها ارتبطت في الفهم الجمعي بمعانٍ غير تلك التي تتقصدها في جوهرها فإن مفردة الخوفِ حضرت بقوّة، زادها في ذلك الإعتقاد بأن الخوف وسيلةٌ للخضوعِ والإذلالِ الذي هو بدورهِ يروّض النفسَ، ويجلبُ الطاعة ويُسهلُ القِياد، فعُلِّمنا الخوفَ من الله أكثر مما علّمنا حبّه، فإذا ذُكر الله اقترنَ في الكثيرِ من الخطاباتِ والمواعظ والنصائحِ بالخوفِ منه، والزجرِ من معصيتهِ، والوعيدِ من عذابه، ولم يقترن بحبّهِ سبحانه، والرجاءِ في مغفرتهِ، وإذا كانت النفس تحتاجُ إلى زاجرِ الخوف الإيجابي لصونها من الغفلةِ والإنحرافِ، وأثره في إصلاحها فقد أبانَ الله ثوابَ الخائف الإيجابي في قوله سبحانه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾[1] وقال تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾[2].

إنّما محبّةُ الله هي أيضاً دافعٌ لرضاه، والإنتهاءِ عن معصيته، فمن واجبِ المحبوبِ على الحبيبِ أن يبرَّ به، وأن يجري في مجرى رضاه ويسعى في مساعي طاعته.

الخوف السلبي هو خللُ النفسِ، واهتزاز ثقتها بإرادتها الحرّة، وتململها في اتخاذ القرارات، وذلك مبعثهُ التربيةُ الزاجرة، المتوعدة التي تقرعُ بالعصا، وتجلدُ بالسوطِ، وتقسو باللفظِ، وتغلظُ بالتهديدِ والوعيدِ.

فإذا قال قائلٌ: أخافُ من المستقبلِ.. فإن مبعث الخوفِ عدم البناءِ السليمِ من أجل مستقبلٍ واضحِ المعالم، بيّنِ الطرقات، جليِّ الأهدافِ والمرامي، كمثلِ القائلِ: «أخاف على البيتِ أن تتهدم أركانه، ويهوي سقفه»، فذاك الذي شكك في رصانةِ القاعدةِ، وقوة الأركانِ وصلابتها.

وإن قال قائل: أخافُ من الفشل فذاك هو الذي يمضي مكبّاً على وجهه لا يرى أمامه لأنه لم يشأ أن يؤسس للنجاحِ تأسيساً صحيحاً، ولم يكلف نفسه عناءَ التخطيط، فهو

---

(١) سورة الرحمن: الآية ٤٦

(٢) سورة البينة: الآية ٨

يريدُ أن يجازفَ بغير هدى، ويمضي دون دليل دون وسائل تعينه على تحقيق النجاح فكيف لا يراودهُ الفشل، ولا يتخايلُ أمامه شبحُ التراجع والهزيمة.

أمّا من يؤسس للنجاحِ، ويستعين بوسائلهِ، ويستحضر عوامله، فإن الخوفَ أبعدَ ما يكون عن نفسه التي يملؤها التفاؤلُ بتحقيق المراد.

لقد كان الخوفُ السلبي في مجتمعاتنا سبباً في بطءِ التنمية والتطور الإنساني فيها، فالخوفُ على المناصبِ الوظيفية أنتج التسلّط وممارسة النفوذ، وهذا ما تؤكّده دراسة بعنوان»السلوك التنظيمي وإدارة الموارد البشرية-الدافعية والقيادة» قام بها د.عبدالسلام أبوقحف (٢٠٠٥) ووردت في كتابه إدارة الأعمال الدولية حيث جاء في محصلتها أن: «نتائج الدراسات الميدانية التي أجريت في معظم الدول العربية أظهرت أن نمط السلوك القيادي المتسلط هو النمط الأكثر شيوعاً في الإدارة العربية حيث تتم عملية اتخاذ القرارات في أعلى المستويات الإدارية كما تتمركز السلطة والقوة في هذه المستويات ويتصف الهيكل التنظيمي بالبيروقراطية الشديدة وتتم الرقابة الداخلية بشكل روتيني فضلاً عن الاعتماد على العلاقات الشخصية وصلات القربى لشغل المناصب الإدارية العليا»

والخوفُ من المستقبلِ سائدٌ في مجتمعاتنا وقد أشارت لذلك دراسة الأبعاد الثقافية لجيرت هوفستيد Hofstede, G. بمؤشر ضعيف للعالم العربي في «بُعد تجنّب المجهول Uncertainty Avoidance»، وهذا ما يجعل الأغلب في مجتمعاتنا يرفع شعار «عمل واحد في الحياة» فهو يخافُ من الإقدام في تجربةٍ قد يكون مصيرها الفشل، راضخاً للمثل السائد «إصبر على مجنونك حتى لا يأتيك من هو أجن منك»..!

ولو رُبِّي وعلّم على الجرأةَ والإقدام، والشجاعةَ والمبادرة، والأخذ بالأسباب، وتهيئة العوامل الدافعةِ للنجاح لخاضَ غمار التجاربَ تجربةً تلو أُخرى، ولما رضخَ لما يقتلُ مواهبه، ويوهن قواه، ويبدد طاقاته لغير فائدة، والخوفُ على/ ومن الأبناءِ يسودُ التربية في مجتمعاتنا وهو خوفٌ عاطفي منه ما هو مبرر ومنه ما هو سلبي

لهم، فالخوفُ على الأبناءِ يقيّدُ حريّتهم ويلزمهم ذات الأفكارِ والعادات التي نشأوا عليها حتى وإن كانت لا تصلحُ في زمانهم إلاّ أن الخوف يدفعهم للحصانة من الزلل والخطأ بالتمسك بها، وفي هذا يذكر تقرير مركز الدراسات المستقبلية بباريس إلى:

«أن الشبيبة لم يعد لهم أن يصبحوا على نحو ما كان آباؤهم، أن عليهم أن يكتشفوا عالماً جديداً، وأن يحكموا عليه، لكي يبنوا منه عالماً أحسن في أثناء حياتهم»[١]

وهو ما يطابق قول سيدنا علي كرّم الله وجهه: «ربوا أبناءكم لزمان غير زمانكم»

وأصبح الخوفُ من تمرّد الأبناء وإبقائهم في ربقة السلطة الأبوية هو الزمام الذي يقاد به الأبناء بسلاسةٍ ويُسر، فانتشرَ التخويفُ من الساحرِ والطبيبِ والإبرةِ والشرطي من أجل ديمومة السيطرةِ على الأبناءِ، وقتل روح التمرد لديهم.

والخوف في مجتمعاتنا أوهن قيمة المبادرة فجاءت الأمثال الشعبية معبرة عن ذلك، يقول إحداها «العين بصيرة واليد قصيرة».

والخوف من المعلّم والمسؤولِ وكل صاحبِ سلطةٍ ومنفعةٍ هو المقدّم على محبته وتقديره في أكثرِ الحالات، وهذا يدلُّ على خلل في الثقافةِ سائد، وإشكاليةٍ لا يمكنُ المضي قُدماً دون معالجتها وفق معادلةٍ متوازنةٍ تأخذُ من البُعد الإيجابي والسلبي للخوف.

من هنا فإن خوفك إلاّ من الله لا مبرر له إذ يعيقك عن المبادرة، والتحرر منه هو الطريق الأسلم للمبادرة والإقدام على تحقيق الإنجاز وذلك وفق الخطوات التالية:

إيمانك الواثق بالله والإعتقاد يقينا بأنه لا يصيب الإنسان إلاّ ما كتب الله، يقول تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾[٢].

اعتقادك الراسخ بأن الرزق ليس بيد البشر وأنه بيدِ الله سبحانه وحده ولهذا لن

---

(١) نبيل سليمان: وعي الذات والعالم.

(٢) سورة التوبة: الآية ٥١.

تخاف على قطع أحد البشرِ رزقك.

عن أبي العباس عبد الله بْنِ عَبَّاسٍ قَالَ كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللهِّ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا فَقَالَ: «يَا غُلاَمُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ احْفَظْ اللهَّ يَحْفَظْكَ احْفَظْ اللهَّ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللهَّ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهَّ وَاعْلَمْ أَنَّ الأمة لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُّ لَكَ وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُّ عَلَيْكَ رُفِعَتْ الْأَقْلاَمُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ»[1].

التوكّل على الله فهو سبحانه نعم المولى ونعم الوكيل، وأن من توكّل على الله فهو حسبه، لهذا فالخوف ينتفي ويتلاشى لأن الإنسان يضع كامل ثقته في عناية الله ورعايته له، يقول تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[2].

مواجهتك لهاجس الخوف بالحقائق أقوى الوسائل لطرده من نفسك، خاصة حينما تمر بمواقف قد مررت عليها سابقاً، يقول (اليانور رزفلت): «أنت تكتسب القوة والشجاعة والثقة من كل تجربة واجهت فيها الخوف. بامكانك أن تقول لنفسك «لقد مررت بهذا من قبل، بامكاني التغلب على هذا والمرور منه.. فيجب أن تفعل الشئ الذي تخشى فعله».

لا تعط المواقف أكثر من حجمها الطبيعي، فإن كانت صغيرة فإن هاجس الخوف لديك سيجعلها كبيرة فتسيطرُ على تفكيرك وتمنعك من البحث عن حلٍ لها، أما إن فكرت فيها بعقلانية ووضعتها في نصابها الصحيح، وفي حجمها الطبيعي فإنك ستكون مرتاح الخاطر وأنت تبحث لها عن حل ملائم، فالتجارب الإنسانية تثبت أن أكثر تخوفات الإنسان لا تتحقق وأن ٨٠ إلى ٩٠٪ مما يخاف وقوعه لا يقع.

ثقتك بنفسك وبما تؤمن به من مباديء راقيه، ومُثلٍ نبيلة يبعدك عن الخوفِ من وقوع المحظورِ الذي تخشى وقوعه، لأن من يحمل القيم السليمة، الواضحة التي لا

---

(١) رواه الترمذي، وأحمد، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٧٩٥٧).

(٢) سورة الطلاق: الآية ٣.

شـائبة فيهـا كالأمانة والصـدق والنزاهـة وتقدير الـذات يصبـحُ طريقه واضحـاً منيراً.

لا تخـش مـن التغيير، والتجربـة، والإقدام على الفعـل الجديد بحجّة أنك تخاف الفشـل، فبقائـك في مكانـك سـيعقيك من تحقيـق آمالك، وطموحاتـك أمّا إقدامـك فهو الخطوة لـك لتشـتيت مخاوفـك التـي سـتجدها فيـما بعـد أنهـا كانت مجـرّد فقاعـات فكـما تقول (هيلـين كيلـر): «تجنـب الخطـر ليـس أكثـر أمانـاً عـلى المـدى البعيد مـن التعـرض له.. فالمخـاوف سـتلاحقك في جميـع الحالات»

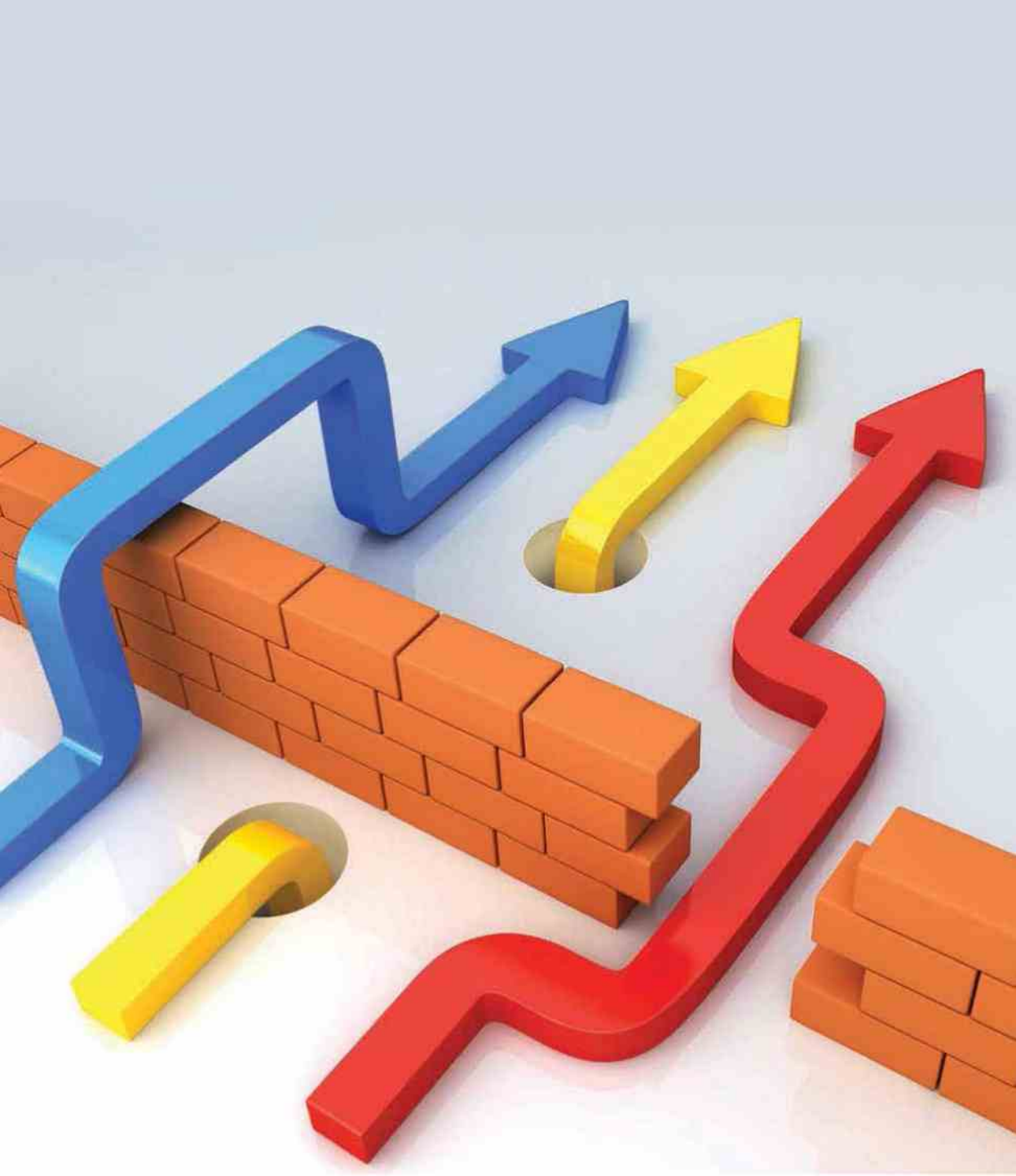

التخطيط طريقك للغايات:

سر التقدم هو البدء، والسر وراء البدء هو تجزئة الأعمال المعقدة.

إلى مهام صغيرة تسهل إدارتها وبعد ذلك البدء بأول مهمّة.

Mark Twain

أغلبنا بعيدون عن التخطيطِ المنظّمِ في الأمور الأهمِّ، كلّ شيءٍ يُقضى في الدقائقِ الأخيرة،أسماءُ المواليدِ تعلَّق حتى ما بعد الولادةِ وكأنَّ الأمر مصادفةً قد حدث وليس بعد تسعة أشهر.

مشتريات الأعيادِ والمناسبات تؤجّل حتى الأيّام الأخيرة أو ليلةَ المناسبة أمور السّفر تُركنُ حتى اللحظات الأخيرة.

ما يتعلَّق بتشطيبات المنازلِ يُبحثُ عنها في ساعتها، المصالحُ تُقضى في الأوقات الضيِّقة، وتُحسبُ المسافات لقضائها بالكيلومترات والدقائق وكأنها مسألةٌ حسابيَّة تحلُّ على الورق.

الزواجُ لدى كثيرين يحدثُ بشكلٍ مباغتٍ دون تخطيطٍ وكأنّه كأي مشروعٍ لا يستحقُّ التخطيط في الحياة.. أغلبُ الأشياءِ في حياتنا يُقضى دون تخطيطٍ مسبق.. وسيكون أمراً مبهراً واستثنائياً إن تم التخطيط له آنفاً.

ما يفعلهُ أغلبنا هو الجري وراءَ الأمورِ السطحيَّةِ في الحياةِ في حين يتم تجاهل أو إهمال التخطيط في الأمور الأساسيّة في الحياة.

يقول ستيفن كوفي في كتابه العادة الثامنة من الفعالية إلى العظمة:

«إذا كنت تقوم فقط بالتخطيط اليوم فقط خارج الإطار الكبير المكوِّن من قيمك وأهدافك المتعلقة بكل دورٍ من أدوارك في هذه الحياة وخارج إطار التخطيط الأسبوعي فسوف تقضي وقتك في إطفاء الحرائق وإدارة الأزمات، سوف تصبح الأمور الملحّة هي الأمور المهمّة بالنسبةِ إليك وستصبح مدمناً على القيام بها سوف

تقضي حياتك المتوتّرة غارقاً في الأمور السطحيَّة».

يقول أحدهم: «لقد كان والدي صاحب همّةٍ عاليةٍ لا تتركُ له وقتاً للراحةِ ولا متّسعاً للإسترخاء، فقط كان يومه يبدأ بعد صلاةِ الفجر إلى اللّيل، يشتغلُ هنا، وهناك لكنّه كان بعيداً عن التخطيط، فيومه في الأغلب لا يُثمر، فما يبنيه اليوم يعود لهدمه في الغد».

هذه مشكلةُ أغلب النّاس، يجرون وراءَ قضاء المصالحِ دون غايات وذلك لأنّهم لا يخططون مسبقاً لها ولهذا تضيعُ هدراً ويصدقُ عليها المثلُ القائل: «تمخّض الجمل فولد فأراً»، كثيرٌ من النّاس يتركون حياتهم للصُّدف هم على شاكلةِ من «إذا الريحُ مالت مال حيثُ تميلُ» فتمضي أعمارهم دون تحقيق إنجازِ لأنّها مضت عشواء متخبّطة لا تعرفُ عن الأولوياتِ شيئاً.

أحد العربِ سافر إلى الغرب مصطحباً أسرته من أجل الدراسةِ، حاصلاً على موافقة عمله لإجازةِ عامٍ واحدٍ فقط دون راتب، وهناك تفاجأ بأن عليه أن يدرس عامين لأجل الحصولِ على الشهادة المطلوبةِ، ومع هذا استمرَّ وهو ينفق على البيت المستأجر آلاف الجنيهات لإصلاحه وكأنه سيقيم فيه عشرةَ أعوام، ومرّ العام وطلبت منه جهة عمله العودة، عاد بلا شهادة بعد أن أضاع عاماً كاملاً من عمره وأنفق فيه عشرات الآلاف من الجنيهات.

وعند مروري على بيتٍ وسط وادٍ سألتُ كيف لصاحبِ هذا البيت أن يغمض له جفن في بيت بوسط وادٍ فقيل لي: أنّه أثناءَ البناءِ أحاط به الوادي فما كان من صاحبه الذي كان متواجداً إلاّ أن صعد على السطحِ يطلبُ النّجدة.

مثل ذاك وهذا كثيرون يضيعون أوقاتهم وأعمارهم وأموالهم بسبب من عدم التخطيط أو ضعفه.

أناسٌ كثيرون يسافرون من أجلِ قضاءِ غايةٍ دون تخطيط فيفشلون. منهم الذي يسافرُ إلى دولةٍ أُخرى فيريدُ أن يحصلَ على مُرادهِ في اليومِ نفسهِ دون أن يضع في تفكيرهِ أن

يبيت ليلةً، أو يمكث أياماً لاختيار المناسبِ، ومقارنةِ الأسعار، ومعرفة طبيعة الباعةِ وكيفيّة التعامل معهم وغير ذلك، يتعجّل في الإختيار ويتعجّل في الدّفع ليفرَّ عائداً على عجل حاملاً غنيمته، ثم حين يعود يكتشفُ النقائص والعيوب.

ومنهم من يسافر للسياحةِ دون تخطيط وهناك يلقى الأمرّين بدل الرّاحة والإستمتاع..

ومنهم من يعتمر أو يحجَّ برفقةِ قافلةٍ لا يعرفُ عنها شيئاً فيلقى الضنى والكّلف..

وهكذا يمضي النّاس في أمورهم دون تخطيط في حين فإن تفكير ساعة كما يقال يوفّر ساعتين عند التنفيذ، وتقول عبارة إنجليزية If you fail to plan you plan to fail وتعني إذا فشلت في التخطيط فقد خططت للفشل.

كثير من النّاس يتخبّطون في يومهم، فتسألهم ما هو الجديد؟ فيردون عليك: لا جديد تحت الشّمس، بينما لا تشرق الشمس إلاّ على جديد، فلسانُ حال اليومِ ينادي عند بزوغ فجره الإنسان قائلاً: «يا ابن آدم أنا يوم جديد وعلى عملك شهيد فاغتنمني فإني لا أعود»

فكيف يغتنمُ الإنسانَ يومه إلاّ بالتخطيط المسبق؟!

سألت ابنة ب(يتر دراكار) أب الإدارة في العالم والدها: كيف يمكن لي أن أنجز أعمالي المتراكمة على مكتبي، في الوقت نفسه عليَّ الإهتمام بطفلي؟ فقال لها: اسألي نفسك: What is the direction ما هو الإتّجاه؟ حينها تستطيعين ترتيب الأولويات وفق ذلك الإتّجاه، وقضاء أعمالك بكلِ أريحيَّ.

إذن فمعرفة الإتّجاهِ هو مفتاح السر، ولعلّه سرٌّ قديم بدء مع خلق الإنسان، يقول تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾[1].

يعشش الخوفُ من التخطيطِ في أذهان الكثيرين، ولذلك قائل قائلهم «أنفق ما في الجيب، يأتيك ما في الغيب»، ويقدمُ البعض على الأمور إقبال الذي أغمض عينيه وأصمّ سمعه، كالهاوي من أعلى قمّة وفي اعتقاده بأن فراشاً وثيراً سيستقبله.

(١) سورة الإنسان: الآية ٣.

تقول القاعدة: «ليس هناك فشل في الحياة ولكن هناك خبرات وتجارب» ولهذا حين سئل أحد المديرين الناجحين عن سر نجاحه في الحياة قال: «القرارات الصائبة» فقيل له: «وكيف تأتي بالقرارات الصائبة» قال: «من الخبرة» فقيل له: «وكيف أتت الخبرة» فقال: «بالقرارات الفاشلة» التخطيط لا يعني التّمسك بحذافير ما تم التخطيط له تمسّكاً أعمى بل إنّ المرونةَ مطلوبةٌ مع بزوغ الفرص السانحة الأفضل، أو مراجعة الخطط الموضوعة هو أيضاً أمرٌ هام، فالكثير من المؤسسات تبتعثُ موظفيها دون حاجةٍ تنظيمية، ودون دواعٍ تتطلبها ضرورات العمل وخططه الإستراتيجية وإنّما يحدث الأمر عشوائياً خاضعاً لرغبات شخصية وتوجّهاتٍ لا ترتبطُ بالمنظّمة وهنا فإن الموظف لم يزد شيئاً على وظيفته بل يصبحُ عبئاً على جهةِ عمله ويصبحُ الأمرُ معاناةٌ للإثنين، ولا يعني التخطيط أن لا تحدث أمورٌ خارجةٌ عن الإرادةِ أو الحسبان بل يحدثُ منها الكثير في الطريق، وهذا أمرٌ مسلّمٌ به، ولكن التخطيط كذلك لا يقتصرُ على الأمور اليومية بل التخطيطُ في أصله يؤسس للأمور الأساسية في الحياة، تلك المرتبطة برسالة الإنسان وقيمه واعتقاده، فمن كانت إحدى قيمه مساعدة الآخرين فإن تلك قيمةً متينةُ في إطار التخطيط وفي إطار التخطيط العام يأتي استثمار الفرص.

لقد قام ديننا الحنيف منذ نزول الوحي على تخطيط، ونهض وفق خطّةٍ قويمة حتى أضاع المسلمون التخطيط البنّاء وانخرطوا في جدالات سقيمة، وانشغلوا بمسائلَ في العلم والحياةِ لا ترتبطُ بتخطيط قويم تأسسّ عليه الإسلام.

واليوم يبّين سلوك أغلب المسلمين فقدان التخطيط في حياتهم إلاّ القلّة منهم.. أولئك العصاميون الذي نظروا إلى مواقع أقدامهم قبل أن يضعوها، ولذلك أبصروا على يقين، ومضوا على بصيرةٍ فنجحوا.

التسامح خلق المبادر:

﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾.

سورة فصلت

تأمّلتُ كلمة التسامح فوجدتها عذبةً في اللِّسان سلسلةً في المنطوقِ، رقيقةً، ذات رنينٍ جميلٍ في السَّماعِ، لكنّها ثقيلةً على النّفس، يقبلها العقلُ كلمةً مجرّدةً لكنّه يجدُ كُلفةً في تطبيقها واقعاً.

فماذا الذي يمنعُ كثيراً من البشرِ من تطبيقها، ورفضِ التخلُّقِ بها، وتحبيذِ الغلظةِ، والحدّةِ، والغضبِ، والكبرياءِ بديلاً عنها، إن المسامحَ كريمٌ كما يقالُ في المثل وكرمهُ هذا يصدرُ من نفسٍ زكيّةٍ، واسعةٍ لا تضيقُ مع أغلاط الناسِ، ولا تتكدّرُ مع سقطاتِ أنفسهم ولا تهيجُ لإستفزازاتهم. إنّه كريمٌ لأن الكرمَ هو بذلُ العطاءِ في وقت الشدّةِ، والشدّةُ هنا حينَ يُغلظُ الناسُ في قولهم المهين، ونقدهم المشين فيقابلهُ هو بعطاءِ التسامحِ والعفو، وهنا يعلو بمكانتهِ فوقهم مكانةً ويسمو بخلقهم مرتبةً يحسده عليها النّاس.

إن مصيبةُ أغلبُ البشرِ في أنّهم غير متسامحين، يهيجونُ للكلمةِ الخارجةِ دون قصدٍ عن مسارها، ويؤّلونها كما تصوّر أنفسهم الضيّقة، وعقولهم التي لا تحملها حقيقةَ أن عظمةِ النّفس تكمنُ في التّسامحِ فهو خُلقٌ لو تحلّى به المرءُ لعلى منزلةً، وارتفع قامةً بين النّاس.

ولو نظرت لأكثرِ خصوماتِ النّاس لقلت: إنّهم لو كانوا متسامحين لما تخاصموا.. ولو عفوا لما كابدت قلوبهم من الضيقِ، والبغضِ، والحقدِ والمشاكساتِ ما كابدت، ولعاشوا كبارَ النفوسِ، لا تغيبُ الإبتسامةَ عن شفاههم، ولا يفارقُ البِشْرُ وجوههم. يقول سيدنا علي رضي الله عنه: «من لانت كلمتهُ وجبت محبّته، وحلمك على السّفيهِ يكثرُ أنصارك عليه».

ويفهمُ أنّ من أنزلَ نفسه إلى مرتبةِ السّفيهِ حطَّ من قدرِ نفسهِ وخلطَ الناسُ عندها بينه وبين السّفيهِ.

يخبرني أحدُ الأصدقاءِ أن رجلاً جاءه مدفوعاً بكبرياءٍ زائفةٍ، ونفسٍ مغرورةٍ، يأمرهُ بفعلِ شيءٍ لا توافقهُ نفسه على فعلهِ وحين يئسِ منه هذا الرّجل رأى من رفضهِ إهانةً لشخصه، فوجّه إليه كلمةً مُهينةً، لكنّ الصاحبَ الذي يُخبرني ردّ عليه بالكبرياءِ الصادقِ، والأنفةِ الأصيلةِ: سامحك الله، ولقد كانت هذه الكلمة كالسهمِ الجارحِ على قلبِ ذلك الموهوم بعزّةِ نفسهِ، وحين أسمع رجلٌ سيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه بعض ما يكره، ردّ عليه: لا عليك إنّما أردتَ أن يستفزّني الشيطانُ بعزّة السلطانِ، فأنالُ منك اليومَ ما تنالهُ مني غداً، إنصرف إذا شئت.

إن الواحدَ منّا إذا استطاعَ أن يستبدل الغضب بالحلم، والعجلةَ بالأناةَ فإنّه لا شكَّ سيكونُ في مأمن، فإننا نستطيعُ أن نقرّر ردّةَ أفعالنا بشرطِ أن نتمهّل في الردِّ، وحينها سنفكّرُ بشيءٍ هام وهو أن لا نؤذي أنفسنا فإذا أيقنّا بذلك توقّفنا عن ردّة الفعلِ المنتقمةِ وانتصرنا لأنفسنا بالتسامحُ يقول الله العفّو الكريم:

﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾[1].

كثيرٌ من الناسِ يترصّدون الأخطاءَ من أقربِ الناسِ إليهم، لا تعرفُ أنفسهم التّسامح إن أخطأ فيهم أحد، ولا تركنُ إلى العفوِ إن نالها أحدٌ بغير قصد..

هؤلاءِ يكونُ التعاملُ معهم كما يورد ديل كاينجي عن فقرةٍ وردت في نشرةٍ صادرة ذات يومٍ من الشرطةِ الأمريكية في إحدى المدن، تقول: «إذا سوّلت لقومٍ أنفسهم على أن يسيئوا إليك، فامحُ من نفسك ذكراهم، ولا تحاول الإقتصاص منهم، إنّك إذا تبيّت نيّة الإنتقام تؤذي نفسك أكثر مما تؤذيهم»، هذا هو بالفعل ما سيحصلَ للنّفس فالمنتقمِ يؤذي نفسه قبل أن يؤذي الآخرين.

قصَّ عليَّ أحد المقرّبين يقول: أنّه كان يطلبُ القُربى من أناسٍ، لكنّ بعضهم كاد

---

(١) سورة الشورى: الآية ٤٠.

لـه المكائـدَ كـي يُثنيهِ عـن مقصدهِ، ويـردّه عـن مبتغاه، ونفسـهُ تجاهدُ كـي تظفـرَ بآمالهِ، وتحقيـق أحلامـهِ فيمـن كان يراهـا الإمـرأة التي يسـتطيبُ لها قلبهُ، ويسـعدُ بها معاشـه، فلـمّا أن مكّنـه الله وحقّـق لـه مـا أرادَ لم يجـد في نفسـهِ ذرّةً مـن غـرورِ الإنتصـارِ عـلى الرّافضـينِ، وإنّـما سـامحهم وعفا عنهم، فصـارت بينه وبينهـم أُدمةً طيّبة، وسـيرةً حميدة.

إنـك لتكسـبُ النّـاس حـين تعفو عـن زلاّتهـم، وتغفـر لأخطائهـم، وتفسّرها عـلى أنّها غـير مقصـودة، وأنّهـا لـن تنتقص من شـخصك شـيئاً، وأن تعلـم أن الشـيطان ينزغ بين النّـاس ويدخـل في دمائهـم فـلا تركـنُ إلى وساوسـهم وأغلـبُ النـاس يقـرؤون الآيـة الكريمـة: « إِنَّ بَعْـضَ الظَّـنِّ إِثْـمٌ»، فيقولـون: إنّ بعـض الظـنِّ فقـط هو إثـم.. محاولين تعضيـدَ ظنونهـم التـي لا تدخـل في باب الإثـم، لكن أحـرى بهـم أن يتمثّلـوا بالآيةِ من أوّلهـا فيقرأوهـا كاملة، حيـث يقـول الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾[1]،

إذن فـإن أكثـر الظّـنِ مبغـوضٌ، يـوردُ ابـن كثـير في تفسـيره للآيـةِ مقـول سـيدنا عمـر بالخطـاب التـي قـول فيهـا: وَرُوِّينَا عَـنْ أَمِـير الْمُؤْمِنِينَ عُمَـر بْـن الْخَطَّـاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّـهُ قَـالَ: «وَلَا تَظُنَّـنَّ بِكَلِمَةٍ خَرَجَتْ مِـنْ أَخِيك الْمُؤْمِـن إِلَّا خَيْرًا وَأَنْتَ تَجِـد لَهَا فِي الْخَيْر مَحْمَلًا».

أتذكّـر أن رجـلاً كان يتحـدّثُ في برنامـجٍ إذاعيٍّ عن قيمةِ التسـامح، ثم حين ذُكِرَ إسـمه تذكّـرتُ موقفـاً لهـذا الرّجـل يُقصيـهِ عـمّا يتشـدّق بـه مـن التسـامحِ، لقـد هاجـم من لم يوافقـهُ في فكـرهِ ومعتقـدهِ وظـنّ به ظنّـاً غير حميد، فـإذا كان التسـامحُ مطلوبـاً عند غير أتبـاعِ العقيـدةِ الإسـلاميةِ فما بالك بالمسـلم.. والقاعدة التي تؤسـس لذلك هي ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ

(١) سورة الحجرات: الآية ١٢.

﴿ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾[1]، وهي تأتي سبحان الله بعد النّهي عن الظنِّ والتجسّس والغيبة التسامح إذن ليس شعاراً يُرفع وإنما واقعاً يُمارس مع المخالفين أولاً على نطاقٍ واسع وهذا ينطلق من التوجيه السماوي، ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾[2].

ويؤسفني أن أرى أُناساً يدّعون التسامحَ وهم أغلظُ النّاس قلوباً إن تعرّضوا لما يغضبهم لأنفسهم وليس للحقِّ، ويتّخذون من التسامحِ شعاراً برّاقاً فإذا خالفهم أحدٌ في الرأي خرجوا من العباءة الزائفة التي كانوا يتلفعون بها فإذا بهم على حقيقتهم دون مواربةً ضيّقوا النفوسِ، مستعجلون في التُّهمةِ، متهوّرون في الظّن، وهكذا فلن تعرفَ حقائق الناس إلاّ عند التجارب فهي التي تُظهرهم على حقيقتهم.

التسامحُ خُلقٌ عظيم لا ينالهُ إلاّ عظيم النّفس، واسعُ القلبِ، ذلك الذي يثق بنفسهِ عند الأهواءِ والمغرياتِ، فلا تستفزّه كلمةٌ طائشة، ولا فعلٌ متهوّر، وهو ثابتٌ كالجبلِ الشامخِ، الأصم أمام صغار النفوسِ، وأقزام القامات، أو هو عفوٌّ عند قدرتهِ على الإنتقامِ، أو متسامحٌ لما خالف رأيه من الآراءِ.. هكذا ينالُ المرء عظمته، ويعلو شأنه...

وهذا ما يجبُ أن يكون عليه المبادر.

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣.

(٢) سورة النحل: الآية ١٢٥.

فشل النجاح:

«إن لي نفساً توّاقة، كلما حصلت على شيءٍ تاقت إلى ما بعده»

عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه

إنّها لفكرةٌ تثيرُ الإهتمام بل والإستغراب، كيف يكون النجاحُ طريقاً للفشل، هذا هو الإنطباع البديهي الذي يقابلُ عبارة: «لا شيء أكثرُ فشلاً من النّجاح»، نعم فالنّجاحُ وإن كانت له محطّاتٌ هي عبارةٌ عن أهدافٍ وإنجازاتٍ تم تحقيقها ونيلها، إلاّ أنّه في الحقيقة دربٌ متواصلٌ من العمل! العملُ الدؤوب وحده يضمنُ استمرار النجاح. لا شيء أكثرُ فشلاً من النجاحِ إذن حينما يستسلمُ المرء لأهدافها حقّقها أو لإنجازاتٍ ظفر بها، أو لمطامحَ حازها يصيبه الغرور، ويظنُّ نفسه أنّه قد وصل إلى الغايات العليا التي لا تفوقها غاية، ولا تعلو عليها قامة، وحينها يتوقّفُ عقلهُ عن الإبتكارِ، وعضله عن الإشتغالِ، وفكره عن التّدبر فتموتُ فيه الحماسة لأنّه في نظرِ نفسه قد حقّق ما كان يصبو إليهِ، ووصل نهايةَ المضمار، والمتّصفون بهذه الصفات كثيرون في مجتمعاتنا فلمجرّد ما يظفر الإنسانُ بما كان يريده وظيفةً أو زوجةً أو بيتاً أو بعضها أو جميعها، أو لمجرّد أن يحقّق نجاحاً في مشروعٍ معيّن، فإنّ قواهُ تخمد، ونشاطه يذوي، وحماسته تبهت، فتجدهُ مترهّلاً لا شغلَ له، وكأن دوره الحيوي في هذه الحياة قد انتهى، وتجدهُ غارقاً في المقاهي، مواظباً على جلساتها، وكأنّها هي احتفالاته المستمرّة بالنّجاحْ وتجدهُ يتخّذُ موضع المدافعِ عن نجاحاتهِ، المنافحِ عن إنجازاته، مهدراً قواهُ في الردّ على هذا، ودحض حجّةِ ذاك.

إن من البلاءِ الوخيم أن يشعرَ متقاعدٌ أنّه راضٍ عن نفسهِ، ويقفُ عند حدودَ التقاعدِ، معطّلاً كل القوى التي كان تحرّكه، ومجمّداً كل الأفكار التي كانت تثري حياته، ليستسلم لأسباب الإسترخاءِ ويشعر بالإكتفاء، فلا يواصلُ العملَ بأيّة

طريقةٍ تكفلُ له استمرار نجاحاته السابقة.. وكم أستمعُت إلى بعضِ من ينتقد أداء الآخرين، ويُثني على أداءه من منطلق شعوره بأنّه قد نال من المعرفةِ حظّاً وفيراً، ومن الحكمةِ نصيباً كبيراً أرثي عليه.

وقد شاهدتُ واستمعتُ أحد هذه النماذجَ في أحد البرامج وهو ينتقدُ هذا وذاك، ويمتدحُ إنجازاتهِ وإنجازات جيله، وحينما سأله المذيعُ عن ماهيّة النقد، تأرجح في كرسيّه وتوتّر، فاختلط عنده الحابلُ بالنّابل فلم يدرِ ما يقول.. ولو تواضع هذا الرجلُ لنجح ولتحدّث بأريحيّةٍ، ولسان حاله يقول: إن التّواضع سرّ النجاح المتواصل.

يروي لي أحد المسؤولين عن التدريب في إحدى المؤسسات أنّ كثيراً من المدراء يرفضون الدورات التدريبية محتجّين بأنّها يجب أن توجّه للموظفين الصغار، لقد شعر هؤلاء المديرون بالرّضا عن أنفسهم والإكتفاء.. وهذا ما يجعلهم بليدين غير منتجين، متوقفين عن نقاط معيّنة، ينظرون إلى الخلف، نحو نجاحاتهم، ولا يرون أن في اكتساب المعرفةِ نجاحاً متواصلاً ألم يقل سيدنا عمر بن عبدالعزيز: لا يزال المرء يتعلم ويتعلم فإذا ظن أنّه قد علم فقد جهل؟!

مثل هذا النموذج المغرور حينما رأى أحد الناجحين وهو مستمرٌّ في نشاطه وحيويته لم يستطع أن يكتم حسده وغيرته فقال له حاقداً: أتأخذُ زمنك وزمن غيرك!

يروي (روبين شارما) في كتابه (دليل العظمة) قصته حينما ذهب إلى مطعم إيطالي مشهور، يتهافتُ عليه الناس، لكن الخدمة فيه سيئة جداً يقول: طلبت من النادلة أن تتكرم وتلتقط صورة لنا ونحن نتناول العشاء فردّت بإجابةٍ جافة مقتضبة «ليس لدي وقت» يضيف شيءٌ لا يصدق! مشغولة لدرجة أنه ليس لديها خمس ثوان لكي تسعد أحد عملاءها!! ويعقّب: إنّهم لا يعرفون أن الإستسلام للنجاح هو بداية نهايتهم..! ويخبرني أحد الأخوة قائلاً: إشتريت جهازاً من إحدى الشركات المرموقة في البلد، وحينما أصابه عطل، توجّهت إليهم فقالوا أن عليّ الذهاب شخصياً إلى

ورشة إصلاح الأعطال في منطقةٍ أُخرى وهذا يذكّرني حين أعدت جهاز نظم المعلومات خاصتي إلى الشركةِ التي زعمت إصلاحه، فأوجدت فيه خللاً لم يكن فيه سابقاً، وبالرّغم أن هذه شركة ناجحةٌ في بداية طريقها إلاّ أن خدمتها سيئة فقد أنكروا أنّهم سبّبوا الخلل، مما يعني اتهامهم للزبون، وبعد أن أدبرتُ عنهم تلقيت رسالة نصيّة على هاتفي «شكراً على اختيارك لنا زرنا مرةً أخرى «فهل لي أن أعودَ إليهم وهم بهذا السوء من الخدمة؟! هؤلاء يراهنون بنجاحاتهم لأنّهم يفرّطون في جودةِ الأداءِ.

عقّب وزير الداخلية البريطاني Alan Johnson ذات مرة على بعض المؤسسات المعنية في حماية أفراد المجتمع قائلاً: «هذا نموذج للرضا الذاتي الذي نسعى للقضاء عليه أينما كان»، وما أكثر المؤسسات التي تشعرُ بالرضا الذاتي فتفشل في أهدافها، وتضيعُ قيمها.. وما أكثر المؤسسات الحكومية والخاصة التي تسبب رضاها الذاتي في تدهور خدماتها، وكثرة أخطاءها، وضعف أداءها.. نعم لا شيء يمكنُ أن يردي الإنسان إلى مهاوي الفشل كاستسلامه للنجاح.

لقد تعلّمنا من نبيّنا الكريم أن الإنسان لا يقفُ عند حدود الرضا والإستكفاء بل يواصلُ ما يديم نجاحه وفلاحه، لقد كان- صلى الله عليه وسلم- يصلي من الليل حتى تفطرت قدماه، فقالت له السيدة عائشة - رضي الله عنها-: «هوِّن عليك، لقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فيقول صلوات الله وسلامه عليه: أفلا أكون عبداً شكوراً.. والشكر ديمومةٌ للنجاح لأن الشاكرَ العظيم يقول:

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾(١)

فكم من الناس من يتوسّد ماضيه، فلا يستذكرُ سوى نجاحاته التي يتبجّح بها وكم منهم من يتلذّذ بعبارات: نحن قمنا بكذا، وفعلنا كذا، وهم يلوكونها مراراً وتكراراً في كلّ مناسبة حتى ملّ الناس منهم واجتنبوهم نعم للمرء أن يفتخر بنجاحاته ولكن

(١) سورة إبراهيم: الآية ٧.

عليه أن لا يستسلم للشعور بالرضا الذاتي، والغرور، فالنّجاحُ هو أن تستمرَّ بالعنفوانِ والحيوية، والمثابرة، والتواضع «فإن جاءتك الساعة وفي يدك غرسة فلتغرسها» كما جاء في الحديث الشريفلأن النجاح أن توصل العمل الحسن الدنيوي بالآخرة حتى آخر نفسٍ في حياتك..حينها يكون نجاحاً أصيلاً وليس مؤقّتاً.

الرضا الذاتي.. معضلة المبادر

> الرضا يكمنُ في الجهدِ لا في المكسب. الجهد التام هو النصر التام
>
> أنديرا غاندي

يحسب بعض النّاس يحسبُ أنَّ القمَّةَ هي ذروةَ ما بلغوهُ، ولذلك يغشاهم ويخدّرهم «الرضا الذاتي complacency» وهو داءٌ سلبيٌّ في هذه الحالة.

القمّةَ في نظر البعضِ أن تحقِّق بعض الإشتراطات الأساسيّة للمعاش الحياتي ثم تنزوي بعيداً، خامداً، تضعُ القدمَ فوق القدم لا تحبِّذ شُغلاً، ولا تطيقُ ثقلاً ولا تمتهنُ عملاً وما ذلك إلاّ جهلاً، وهو ما يحدثُ لكثيرٍ من المتقاعدين أولئكَ الذين رأوا أنّهم وصلوا القمّةَ، وما يعني التقاعدُ لهم سوى شهادة الكفاءةِ على منجزاتهم، بينما هو الإنحدار للجانب الآخر من القمَّةِ إن هم اختاروا هذا السّبيل، واستسلموا لمنجزاتِ مرّت.

لقد أعجبني صديق في كفاحهِ إذ أنّه بالرّغم من مسؤولياته العديدة في جوانب مختلفةٍ في الحياةِ أسريّةٍ كانت أم وظيفيّة يواصلُ طِلاب العلمِ قائلاً: ليس للعلم قمّة

ومردّداً قول المتنبي:

إذا غامرت في شرفٍ مرومٍ
فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموتِ في أمرٍ حقيرٍ
كطعم الموتِ في أمرٍ عظيمِ

ولهذا فإن هذا الصديق لا تهدأ له نفس، ولا يقرُّ له جفنٌ حتى يكتسبَ شيئاً ما يضيفُ إليهِ معرفةً وجدَ ذات مرّةٍ متّسعاً في مدينةٍ من مدن دولةٍ غربيَّة لبعض

السّاعات اعتذرتُ له فيها عن إنشغالي لقضاء بعض الأعمال، وحين سألته كيف قضى وقته، قال لي: لقد أجريت إحصائيّة إقتصاديّة بعد أن مضيتُ إلى العديدِ من المحلاّت التجاريّة وقابلتُ العديد من العاملين فيها، كل هذا حدث في بضعِ ساعاتٍ وفي مدينةٍ غربيّة ولم يكن ذلك غريباً على رجلٍ لا يقنع بما دون النجوم.

وتحدِّثني طالبةٌ في إحدى الكليّات تقول: «كنت أرى الحارس الكبير السنِّ يقرأ فكنت أعجبَ بإهتمامه بالقراءة، ثم غاب فسألت عنه فقيل: إنّه يختبر للشهادةِ العامّة، فازددتُ إعجاباً به»

وفي إحدى المناطق رأيتُ عمارةً بارزةً في فضاء فكانت عملاقة مقارنةً بغيرها.. قلتُ في نفسي: ربَّما يخالجُ الإعجابُ نفس صاحبها لأن هذه العمارة هي أعلى قمّةٍ في المكانَ، ثم بعد فترةٍ من الزّمن قامت عمارةٌ أخرى أعلى منها بثلاثةِ أضعاف فحدّثت نفسي بمثل ما حدّثتها للعمارةِ الأولى ثم قلت: ما هو شعور صاحب العمارة الأولى الآن؟!

إن منظر هاتين العمارتين كالنّاسِ، إذ ينتابُ أحدهم الشعورُ بأنّه قد وصل القمّة التي لا يطاولها أحد، فإذا به يرى أنّ أحداً قد بزّه، وطاوله فأصبح قزماً أمامه فإمّا أن يواصل كفاحه مثابراً، وإمّا أن يرضخَ مستسلماً أو يتفرّغ للحسدِ والغلِّ ورمي الآخر بما شاء من الإتّهامات، وقد يتعذر البعض بالقناعة.. إنّما القناعةُ هي قرينُ العملِ والكفاح وليس قرينة الخمول والدعةِ والكسل، وإنني لأشفق على الكثيرين من الشباب والفتيات مضيّ العمرِ في المقاهي، أولئكَ الذين يجسّدون مثلاً غير حميد لأبناء أمّتهم بإهدارهم الوقت، والوقتُ جوادٌ غير محدود العطاءِ إن مُلأ بالعمل.. إنّه لمنظر محزن، ذلك التكدّس في المقاهي من أجلِ شيشةٍ حقيرةٍ أصبح لها رواجها في مجتمعاتنا حتى جعلها البعض علامةً من علامةِ التّحضر وما هي إلاّ علامة من علامات التقهقر.. ويؤلمني أكثر أن يكون الواعين، العقلاء هم من مناصريها ومن أبرزِ جلاّسها.

إنَّ ما لا يدركه الكثيرون هو أنَّه كلّما تقدّم الإنسانُ خطوةً ازدادت مسؤولياته

وواجباته، وازداد تواضعه.

وقد أعجبتني في هذا الصّدد كلمة قالها رئيس الإتحاد الإنجليزي حينما فرض عقوبات على مدرب نادي مانشستر يونايتد «السير فيرجيسون» لتهجّمه على أحد الحكّام، قال: «إننا نقدّر إنجازات فيرجيسون الكبيرة ولكن كلّما زادت إنجازات الإنسانِ كبر حجم مسؤولياته»، وهو كلامٌ منطقي ومعقول يتجاهلُ حكمته الكثيرون.

المسؤوليات قمّة، والقمّةُ سلطةٌ، والسلطةُ قوّةٌ، والقوّةُ إمّا أن تكون قهريّة، استبداديّة أو حكيمةً، رشيدة فالإستبداديّة أوصلت الإنسان إلى حدود التمادي والتّطرف والتجاوز، ففي الملكِ لقّب أحد الملوك نفسه بـ«ملك الملوك»، تمادى فرعون: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾[1]، وفي المال قال قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾[2] وهي نفس المقولة التي وردت في القرآن الكريم على لسان من ينعم الله عليه في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾﴾[3].

وبالرّغم أنّ المنطق في العلم يقتضي الخشية من الله لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[4] فإن كثيراً من النّاس يقول ما قاله لي أحد الغربيين أنني أشتغل في حقلِ العلم ولذلك لا أؤمنُ إلاّ بالدليل المادي على وجود الله وهذا وأمثاله لم يزدهم ما يكتشفونه أن الأرض هي مجرّد كونٌ بسيط في ملكوت عظيم يصيبُ بالرهبةِ والخشيةِ من خالقٍ عظيم..!

ومن النّاس من يزكّي نفسه أو يُزكّى على الله، والله يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ

---

(١) سورة النازعات: الآية ٢٤.
(٢) سورة القصص: الآية ٧٨.
(٣) سورة الزمر: الآية ٤٩.
(٤) سورة فاطر: الآية ٢٨.

أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾[1]، وفي تفسير القرطبي قوله عن هذه الآية: وَفِي صَحِيح مُسْلِم عَنْ مُحَمَّد بْن عَمْرو بْن عَطَاء قَالَ: «سَمَّيْت اِبْنَتِي بَرَّة فَقَالَتْ لِي زَيْنَب بِنْت أَبِي سَلَمَة: إِنَّ رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنْ هَذَا الِاسْم وَسَمَّيْت بَرَّة فَقَالَ رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا تُزَكُّوا أَنْفُسكُمْ اللَّهُ أَعْلَم بِأَهْلِ الْبِرّ مِنْكُمْ» فَقَالُوا: بِمَ نُسَمِّيهَا؟، فَقَالَ: «سَمُّوهَا زَيْنَب»

فَقَدْ دَلَّ الْكِتَاب وَالسُّنَّة عَلَى الْمَنْع مِنْ تَزْكِيَة الْإِنْسَان نَفْسه وَيَجْرِي هَذَا الْمَجْرَى مَا قَدْ كَثُرَ فِي هَذِهِ الدِّيَار الْمِصْرِيَّة مِنْ نَعْتهمْ أَنْفُسَهُمْ بِالنُّعُوتِ الَّتِي تَقْتَضِي التَّزْكِيَة كَزَكِيِّ الدِّين وَمُحْيِي الدِّين وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ لَكِنْ لَمَّا كَثُرَتْ قَبَائِح الْمُسَمَّيْنَ بِهَذِهِ الْأَسْمَاء ظَهَرَ تَخَلُّف هَذِهِ النُّعُوت عَنْ أَصْلهَا فَصَارَتْ لَا تُفِيدُ شَيْئًا.

وَأَمَّا تَزْكِيَة الْغَيْر وَمَدْحُهُ لَهُ، فَفِي الْبُخَارِيّ مِنْ حَدِيث أَبِي بَكْرَة أَنَّ رَجُلًا ذُكِرَ عِنْد النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَثْنَى عَلَيْهِ رَجُل خَيْرًا فَقَالَ النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَيْحَك قَطَعْت عُنُق صَاحِبك - يَقُولهُ مِرَارًا - إِنْ كَانَ أَحَدكُمْ مَادِحًا لَا مَحَالَة فَلْيَقُلْ أَحْسَب كَذَا وَكَذَا إِنْ كَانَ يَرَى أَنَّهُ كَذَلِكَ وَحَسِيبُهُ اللَّهُ وَلَا يُزَكِّي عَلَى اللَّهِ أَحَدًا»

فَنَهَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُفْرَط فِي مَدْح الرَّجُل بِمَا لَيْسَ فِيهِ فَيَدْخُلهُ فِي ذَلِكَ الْإِعْجَاب وَالْكِبْر وَيَظُنّ أَنَّهُ فِي الْحَقِيقَة بِتِلْكَ الْمَنْزِلَة فَيَحْمِلهُ ذَلِكَ عَلَى تَضْيِيع الْعَمَل وَتَرْك الِازْدِيَاد مِنْ الْفَضْل وَلِذَلِكَ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَيْحَك قَطَعْت عُنُق صَاحِبك».

ولقد شهدتُ في مناسبةٍ منذ أيّام أنّ أحد أصحاب النّظم الشعبي قد مُدحَ بما ليس فيه فتسبّب هذا المدحُ في إدخال الإعجاب والكبر في نفسه فأطال على الحضورِ، ونغصَّ عليهم، وأثقلَ أنفاسهم.

إنّ القمّةَ قرينةُ المسؤولية، وهذه إن لم تفرض التواضع فإنّها تكن شوكةً لا صرحاً شاهقاً.. والقمّةُ قرينةُ الكفاح فلا قمّةَ لشيءٍ إنّما القمم هي ما صنعه الخيالُ إمّا

(١) سورة النساء: الآية ٤٩.

كـي يحثَّ الإنسـانَ إلى الإجتهـادِ وإمّا كي يخـدّره ويُسـلمه للظلال وهي قرينـة التراخي والكسـل.. ومـا أكثرً مـن المستسـلمين الواهمـين في مجتمعاتنا.

صناعة الفرص:

بادرِ الفرصةَ واحذرْ فوْتَها ..
فبلوغُ العزِّ في نيلِ الفُرصْ
فابتدرْ مسعاك واعلمْ أنّ مَن ..
بادرَ الصيدَ مع الفجرِ قَنَصْ
البارودي

صناعة الفرص مهنة المبادرين الناجحين، أمّا صناعةُ المشكلات فمهنةُ المتقاعسين الفاشلين، أُناسٌ يلمسون الخشب فيحوّلونه إلى ذهب، وغيرهم يكنزُ الذّهبَ ويجري وراءَ الخشب.

إن المبادرة تتجاوز فكرة «إذا هبّت رياحك فاغتنمها» إلى فكرةٍ أسبقُ منها وأجدر وهي «بادِرْ لتَصْنعَ من ريحِ المُنى فُرصاً».

فالفكرةُ الأُولى تتضمّنُ انتظار الرياح كي يُغتنم هبوبها مهما طال.. أمّا الثانية فهي روح المبادرة لصنع الفرص دون انتظار الرّيح هبّت أولم تهب، ففي الإنتظارِ وأدٌ للمواهب، وقتلٌ للقدرات الكامنة في أعماق الإنسان، وفيها أيضاً أهدارٌ للفرص الشاغرة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾[1] وفيها تضييع للسوانح ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾[2].

أمّا في الثانية فصنعٌ للفرصِ ﴿۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾[3].

مشكلة الكثيرين تكمن في الإنشغال بالمشكلات..

وإشغال الوقت بالحديث عنها وحولها وليس بتخطيها والتفكير فيما وراءها،

---

(١) سورة النساء: الآية ٩٧.
(٢) سورة طه: الآية ١٢٦.
(٣) سورة آل عمران: الآية ١٣٣.

بل وصنع الفرصِ منها، وهذا ما حدا بهم للإعتقادِ بأن الأيّام هي التي تعالجُ جروحهم، وتشفي صدورهم، والظروف هي التي تغير أحوالهم، وتقوّم شؤونه، مسلّمين بمقولة الشاعر: «دع الأيّام تفعل ما تشاءُ» ولهذا نكصوا عن فعلِ أيّ شيء من شأنه تغيير حياتهم، بل انشغلوا بالماضي أكثر من انشغالهم بالحاضر والمستقبل، وهذه معضلة.

يقول: BrianTracy «إقض ثمانون بالمائة من وقتك مركزاً على فرص الغد بدل مشكلات الأمس».

إن ما أقعدَ الكثيرون، وألزمهم مساكنهم، وأحبط من هممهم هو ثقافة التقاعس والخدر الذي سرى في أنفسهم انتظاراً للريحِ كي تهب، أو للسماءِ كي تمطر، أو للأمنيات كي تأتيه خبباً..!

في حين فإن المبادرة هي أساسُ ديننا الكريم

«لو توكلتم على الله حق توكله لرزقتم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا» حديث شريف في سنن الترمذي.

والتوكّل هو روح المبادرة، لكن الكثيرين يفتقدون إلى المبادرة ولهذا يسعون إلى فلانٍ من النّاسِ كي ينجزَ معاملاتهم، ويسهّل لهم أمورهم، ويفعل عنهم ما لا يريدون أن يتجشموا عناءَ فعله حتى إذا أُنجز العمل قلّلوا من شأن إنجازه.

إذن فلمَ لم تقوموا بأدائه بأنفسكم؟! يقول أحد الأصدقاء: «طلب مني أحدهم ذات مرّة أن أساعده في إنجاز مصلحةٍ معينة فسعيتُ لإنجازها سعياً حثيثاً واجتهدتُ اجتهاداً مضنياً فلمّا سلّمته المصلحةَ جاهزةً قال: كنت أعرفُ أن الأمرَ بسيط ولن يحتاج لجهدٍ أو وقت» يقول الصديق: فحزّ في نفسي هذا التقليلُ من الجهدِ، والتحقير من المساعدة.

في البيوت عندنا كثيراً ما يعتمد الأبُ أو الأم على أبنائهم في تقريبِ القريب من الأشياء، فينمو هذا الطبع في الأبناء فيمارسونه بدورهم على أبناءهم وهكذا دواليك.

إن دروس المبادرة يجب أن تبدأ من البيت حيث يقتدي الأبناءُ بوالديهم، وتستمر في المدرسةِ حيث يقتدي الطلبة بمعلميهم، وتتواصل في العمل حيث يقتدي العاملون بمسؤوليهم.

لكن أين كل هذه المبادرات؟!

في البيوت تكثرُ العاملات لسببٍ أو لغيرِ سبب ولهذا فلا يكاد الواحدُ يكلّف نفسه عناءَ القيام من مقعده لإرواءِ نفسه العطشى جرعة ماء بنفسه.. وفي العمل يكثر المراسلون لسببٍ أو لغير سببٍ فلا يكاد الواحد يكلّف نفسه عناء نسخِ ورقةٍ، أو تسليمها لآخر، كأنّه منهمكٌ في اختراع سيفاجأُ البشريّة به..!

في بعض دول الغربِ دون أن ننظر إلى ذلك من المنظور الإجتماعي لا توجد عاملات في المنازل، لهذا نمى الإعتماد على النفس فرأينا رجالاً ونساء هرمين في العمر لا تكاد قوائمهم تعينهم على المشي وهم يتسوّقون أو يقضون حوائجهم دون مُعين، لقد تعوّدوا منذ صغرهم على الإعتمادِ على الذّات.

سيقول أحدهم لو كانوا في مثل تلاحمنا وتقاربنا وتعاطفنا لاعتمدوا على أبناءهم أو أقربائهم مثلنا، فنقول نعم قد تكون محقّاً، لكنّ الإعتماد على الذات خصيصة من خصائص ديننا الكريم، فرسولنا الأعظم صلى الله عليه وسلم كما روت عنه السيدة رضي الله عنها أنه: «كان يخيط ثوبه ويخصف نعله ويعمل ما يعمل الرجال في بيوتهم» رواه أحمد، وهو قدوتنا في المبادرة.

وفي بلاد الغرب لا يوجد مراسلون في المصالح الحكومية والخاصّة ومع ذلك لم يتعرقل العمل، ولم تنتظر المعاملات من يوصلها.

يقول أحدهم: كان يديرنا أحد الألمان فلم يطلب في يومٍ من الأيام من أحد أن ينسخ له مجرّد ورقة بل يقوم وحده لأبسط الأعمال.

إن درجة الإعتماد على الذات تعلّم الإنسان المبادرة، تعلّمه أن يشقّ طريقه في صعاب الحياةِ، وفي أرزاءها بعزيمةٍ وصبر ومثابرة، تعلّمه أن لا ينتظر الرّيح كي تهبّ كما قال

الشاعر فـ«الرجل الحكيم هو الذي يصنع الفرص أكثر مما يجد» كما يقول Francois Bacon فرانسيس بيكون، ولهذا وردت بعض الأمثالِ كي ترجّح كفّة المبادر على القاعدِ المتكاسل فأحد أمثالنا يقول: كلبٌ حائمٌ أفضلُ من أسدٍ نائم.

أمّا البعض من النّاس فيفضّلُ القعود على الحركة، والكسل على النشاط، والخمول على العمل، حتى صرّح المطربون بهذا الكسلِ فهذا يصيح «هاتوا لي حبيبي» وذاك يبكي «هاتوا حبيبي» والآخر يسأل «يا مين يجيب لي حبيبي».. وما رجائتهم إلاّ انعكاس لثقافة سائدة حتى يروى أن سفيراً أجنبياً قال في سنواتٍ غابرة حين سمع المطرب ينشد أحد هذه الأغاني: حتى مطربكم كسول يطلب أحداً كي يحضر له حبيبه .

إن البحث عن الفرص أو صنعها هو الطريق الأمثل لكي يترك الإنسان أثراً لنفسهِ في الحياةِ، أمّا الذي يترك الأمر للزمن قائلاً: الزمن خير معلّم، أو يتركه للظروف قائلاً: «ننتظر الظروف تُفرج» أو ينتظر الأزمة كي تحل، هو كالمقيّد الذي يرى طرف العقدةِ لكنّه لا يريد أن يحمل نفسه على حلّها، وإنّما ينشغلُ بالأزمةِ، ويؤذي قلبه بالمشكلة بينما لو نظر من جانبٍ آخر لرأى شيئاً آخر، قد يرى الفرصة ماثلةً أمامه من هذه الأزمة.

يقول المثل العربي «الخيرُ من بطنِ الشرّ» وفي هذا السياق أيضاً،

يقول مثلٌ صيني « الأزمات تأتي بالفرصة والتغيير».

كيف يا ترى هو حال وجودنا في الأرض منذ أن نزل سيدنا آدم وحواء عليها لو لم يصنع الإنسان الفرص.

المبادرون الناجحون هم الذين أوصلونا إلى هذه المرحلة من التطور الإنساني في الإيمان والفكر.

الناجحون صنّاع فرص، لا يقرّ لهم قرار، ولا يهدأ لهم خاطر إلاّ بصنع الفرصةِ بعد الأُخرى، والإنشغال بها بدل الإنشغالِ بالمشكلات، والسّهر على أغنيات الماضي

وذكرياته، والبكاءِ على الأطلالِ كما بكى الشاعر الجاهلي.

يقول مثل إنجليزي: «الفرصة تأتي متنكرة في ثوب العمل الشاق»، والمثل يعني أن الفرصة لا تُرى من الشرفة عابرةً في الطريق وإنّما يتوجّه الإنسان إليها وهو متسّلح بالمجاهدة والمثابرة والصبر والعزيمة.. فالعيبُ لا يكمنُ في السعي ولكنه يكمن في الخمود والدّعة والسكون وطول الإنتظار، يقول الشاعر:

عليَّ طِلابُ العزِّ من مستقرِّهِ

ولا عيب لي إن خالفتني المقادرُ

فالنجاح الحقيقي هو السعي لاقتناص الفرص واستثمارها والإستفادة منها وما الفشلُ في حقيقته كما يتوهم بعض الناس في سعي الإنسان إذا حاول ولم يوفّق بل الفشل هو في عدم السعي أصلاً، فكما يقال: الفاشل هو الذي إذا سقط لم يستطع النهوض مرّة أخرى ولكن لا ضيرَ ولا عيب على من يسقط فينهض لأن الضربة التي لا تقصم الظهر تقوّي وهكذا يستمر المبادر المتحلّي بالإصرار والإقدام في سعيه الدّؤوب دون كللٍ أو ملل لا تخمد له همّه، ولا تفتر به عزيمة.

التفكيرُ خارج الصندوق..

أحب أن أفكّر خارج الصندوق، أنظر في الأعماق لما يحدثُ حقيقةً، لا أستطيع أن أقف منغلق العقل، ضحل التفكير، مجهول، يَحصرُ أغلبُ النّاسِ خاصَّةً في مجتمعاتنا أنفسهم داخلَ صناديقَ تقليديّةٍ أغلبها متوارثةٍ لا يريدون الخروجَ منها، وهم راضون كلَّ الرِّضا عن هذا النَّسق التقليدي، غير المتجدِّد لحياتهم، فحياتهم مجرّدُ تكرارٍ يوميٍّ لأنماطٍ من العاداتِ والتقاليدِ والكلماتِ والأفعالِ، بحيث يمكنُ للقريبِ منهم أن يتنبأ بردّةِ أفعالهم، أو سلوكياتهم عند استثارتهم، أو مواجهتهم، أو الطلب منهم للقيامِ بأمرٍ ما، لا جديدَ مبتكرَ يمكنُ أن يُنتظرَ منهم، ولا إبداعَ متصوَّر يمكنُ تخيُّله كنتاجٍ لأفعالهم، وتفكيرهم، يعيشون في أُطرٍ تقليديَّةٍ، ضيِّقة لم ينفعهم الإطِّلاع على ثقافات الغيرِ ولم يغيِّر فيهم السَّفر، ولم يبدِّل منهم العلم، ولم

تحفِّزهم الأنماط السريعةَ التغيّر للحياةِ من حولهم، ذوي أفكارٍ غير مبتكرة، وإنّما تقفزُ إلى القياس على ما سبق، وتلجأ إلى الأحكام المقرّرة، والحياةُ من حولهم تتجدَّد، والعالمُ من حولهم يتغيَّر وهم في مركزهم لايتزحزحون،ولايتغيَّرون، هؤلاءِ النّاس يحبُّون أن يكتبوا بأقلامٍ معيّنةٍ طوال حياتهم، وبألوانٍ محدّدةٍ، وبطريقةٍ لا ثانيَ لها، يحبُّون أن يسلكوا نفس المسالكِ اليوميّة، يرتادون نفس المطاعمِ والمقاهي، يشربون نوعيةً واحدةً من الشاي أو القهوةِ أوالعصائر، يلبسونَ ملابسَ ذات صنفٍ واحدٍ، يتّشبّثون بهيئةٍ واحدةٍ، يقودون أنواعاً معيّنةٍ من السيّارات، يختارون نفس الألوانِ، يردِّدون نفس، العبارات إن بعض هؤلاء يتبادلون نفس الخرائط التي يبنون عليها بيوتهم دون تغيير أو تبديل..الرّغبةُ في البقاءِ في الصندوق هي التي تجعلهم لا يضيفون نقطةً واحدةً في هذه الخرائط..

فكيف يرتضونَ أن يسكنو في أفكارِ الغير؟! أذكر أن خارطةً أحد المنازل قد تم نسخها من قبل عديدين دون تغيير نحن هنا نتكلّم عن شباب، لكنّهم تقليديّون لا زلتَ ترى أن الكثير من رسائلنا تطبعُ باللّون الأسود بالرّغم من تعدّد الألوان.

* * *

أحد الأصدقاء قال لي أنه حين نُقل إلى إحدى الوظائف اقترح أن تُعمل القرارات بألوان متعدّدة فثارت ثائرة الموظفين الآخرين وواجهوه بالإستغراب والحكم المسبق بمعارضة المسؤول الأعلى لوجود ألوان متعددة لكنّه أصرّ وحين رأى ذلك المسؤول الأعلى سرَّ لهذا الصنيع وابتهج قائلاً إن شكل القرار أفضل بهذه الصورة فصار ذلك نهجاً متّبعاً في تلك الجهة.

تشغلني فكرة الخروجِ الدائمِ من هذاالصندوق..

أُفكرّ دائماً في يومٍ غير تقليدي، ورأيٍ حديث، وفكرةٍ مبتكرةٍ، وسلوكٍ جديد أعظمُ ما يصيبُ المرءَ بالملل والسأمِ هو السكونُ والجمودُ والتلبُّدُ داخل الصندوق...

ولعل عبارةَ «التفكير خارج الصندوق Thinking out of the box هي العبارةُ التي

أحتاجها ونحتاجها جميعاً.. هي البلسمُ الناجعُ لاستبدال التكرار النمطي للتفكير والسلوك البليد.. هي الحكمةُ التي يقول عنها مايك فانس وديان ديكون مؤلفا كتاب «التفكير خارج الصندوق» أنها السبب في إنتاج: السيارة والقطار والطائرة والمصباح الكهربائي والتطعيم ضد شلل الأطفال، والمصاعد وأجهزةالتكييف، وأنابيب.المياه،والتلفاز..حكمةُ «التفكيرُ خارجُ الصندوق» هي التي حفّزت الشخصياتَ التاريخيّة العظيمةِ، أن تترك أثراً عظيماً للإنسانية، فخلّدت أسماؤها لأنّها أرادت أن «تأتي بما لم تستطعهُ الأوائلُ» -كما قال الأصمعي-

وهي التي جلبت الثروة، والشهرةَ، والسعادةَ، والمتعة، و التغيير لكثيرين!

إن مجتمعاتنا قد أنهكها الحصارُ داخل الصندوق، فلا تريدُ أن تخرجَ منه مخافةَالمجازفة،الفردُ يخافُ الحلول المبتكرةَ، أو تغيير العاداتِ لأنّه يخشى من ردّة فعلِ المجتمع.

ومن هو المجتمعُ في نهايةِ الأمرِ؟!

هو مجموعةُ الأفراد، فإذا ما ابتكر أحدهم حلاً مبتكراً ربّما قوبل في البدايةِ باستهجانٍ، أو باستخفاف أو بمعارضة، ثم ما إن تثبت الفكرةُ الجديدة فاعليتها وجدواها وأفضليتها في الواقع حتى يهرعُ الآخرون إلى تطبيقها ومنهم في كثيرٍ من الأوقاتِ الأكثر تشدُّداً و معارضةً للتغيير.

قلتُ ذات مرّة لشابٍ يريدُ أن يعقد قرانه: «لستَ بحاجةٍ أن تدعو أهل القريةِ جميعاً لمأدبةٍ تكلِّفك المبالغ الطائلة التي أنتَ في أمسِّ الحاجةِ إليها حيث تستطيع أن تقعد قرانكَ في مجلسٍ صغير بحضور ثلّةٍ من الأهل والأصدقاء المقرّبين» لكنّه خشيَ الأخذَ برأيي مخافةَ الكلام

لقد دفع «التفكيرُ داخل الصندوقِ» بالكثيرين إلى أن يلبسوا ما يريدهُ الآخرون، ويقودوا السيّارات التي تعلو في نظرِ الآخرينِ، ويظهروا كما يود الآخرون...

ولهذا لم يعيشوا الحياةَ التي يريدون في كثيرٍ من الأحايينِ كما يُسعدهم أن يحيوها،

متلذِّذينَ بما يظهرون عليه، أو متوافقين مع إمكانياتهم الماديّة.. وهذا خطأٌ في حقِّ أنفسهم إن لم يكن يتجاوزُ القيمَ الفاضلةَ التي شرعها الدِّين.

فلمَ لا يبارحُ بعض الناسِ أماكنهم التي ينظرون منها نحو بعض الأمور هذه الأمور تحتاجُ إلى النّظرِ إليها من عدّةِ زوايا ولعل هذه أولى أفكار الخروج من الصندوق..

النظر نحو المشكلةِ أو الأمر من عدّةِ زوايا وليس من زاويةٍ واحدة وتصنيف الإيجابيات والسلبيات فيه، ثم البحثِ عن الحلول المبتكرةِ، والأفكار المحدثة ولعلَّ قصّةً في هذا الصدد يمكنُ سردها كمثلٍ فقط للتفكير خارج الصندوق.

طلب أحد رجال الأعمال من أحد البنوك في مدينة نيويورك قرضاً وقدره ٥٠٠٠ دولار، لغرض السّفر إلى أوروبا، وحين طلب البنك ضمانة للمبلغ رهن الرّجل سيارته (الرولزرويز) للبنك كضمان مالي وبعد أن قام الموظّف المختص في البنك بفحصها، قبل البنك هذا الضمان الثمين، وبعد حصول الرجل على القرض ومغادرته البنك..

اندهش مدير الفرع وموظفوه من تصرّف هذا الرجل الغريب وضحكوا كثيراً لسذاجته إذ كيف يرهن سيارة قيمتها ٢٥٠٠٠٠ دولار كضمان لمبلغ مستدان وقدره ٥٠٠٠ دولار، ثم إن السيارة أوقفت في مواقف البنك السفلية.

وبعد أسبوعين، عاد رجل الأعمال من سفره وتوجه إلى البنك وقام بتسليم مبلغ ٥٠٠٠ دولار مع فوائد بقيمة ٤١,١٥ دولار، فسأله مدير الإعارات في البنك قائلاً: «سيدي، نحن سعداء جداً بتعاملك معنا، ولكننا مستغربين أشد الاستغراب!! لقد بحثنا في معاملاتك وحساباتك وقد وجدناك من أصحاب الملايين، فكيف تستعير مبلغا وقدره ٥٠٠٠ دولار وأنت لست بحاجة إليه؟»

رد الرجل وهو يبتسم: «سيدي، هل هناك مكان في مدينة نيويورك الواسعة أستطيع إيقاف سيارتي(الرولزرويز) بأجرة ٤١,١٥دولار دون أن أجدها مسروقة بعد مجيئي من سفري؟

يـورد مايـك فانـس وديان ديكـون في كتابهما الآنـف الذكر الأفعـال التي تجعلُ الإنسـان محتجـزاً داخـل الصنـدوق: «التوقف،الجهـل، الصداقـة المزيفة، الاستسـلام للسـيطرة، التعصـب الازدواجيـة، العدوانيـة، اللامبـالاة، الكـذب، الانطوائيـة، إدعـاء معرفة كل شيء، التَّسرع، التَّكـبر، قـول أشـياء بـلا معنى،الحديث المبتـذل، إسـاءة التوضيح»

فـأيُّ جمودٍ، وسـأمٍ، ورتابـةٍ للحياةِ داخل الصنـدوقِ وأيُّة حريـةٍ جميلةٍ ومعيشـةٍ متجدّدةٍ وسـعادةٍ راقيةٍ خـارج الصندوق؟!

فـلا أحـد يصدِّق الشـتاءَ حـين يقـول أن الرّبيـع في قلبي كما يقـول جبران خليـل جبران إلاّ بالتفكـير الإيجـابي، غير التقليـدي التفكيرُ خـارج الصندوق.

بين الطبّع والتّطبيع:

فأحْسَنُ وَجهٍ في الوَرَى وَجهُ مُحْسِنٍ
وَأيمَنُ كَفٍّ فيهِمِ كَفُّ مُنعِمِ
وَأشرَفُهُمْ مَن كانَ أشرَفَ هِمّةً
وَأكثرَ إقداماً على كلّ مُعْظَمِ
المتنبي

انفلت بعض النّاس من روابط القيم، فأصبحوا كالحلقات الفارغة التي تدحرجت عن خط سيرها المتسلسل، تثير لوحدها صليلاً باهتاً..

لقد حملتهم الأنانيّة على الانفلات بعد أن غلّبوا مصالحهم الشخصيّة على المصلحةِ العامّة التي يستوجب المنطق أن يسير على منهاجها المجتمع بصفته كياناً موحداً له غاية مشتركة مهما تعددت المصالح الفرعيّة للأفراد..

هذا الإنفلات قادهم إلى تجاوز القيم الفاضلة، والأخلاقيات القويمة التي أسستها مصادر التشريع المؤسسة لكيان المجتمع ولهذا فإن أيّة مصلحةٍ شخصيّة هي مقدّمةٌ عندهم على المصالح المنسجمةِ مع الغايات الوطنيّة وفي هذا حبٌّ للذاتِ غير حميد، ومحاباةٌ لغاياتها الذاتية الضيّقة..

تلفت نظري الفوضى العارمة التي تواجهني في أمكنةٍ مختلفة، وتثيرُ في نفسي سؤال: لمَ يتصرَّف الناس وفق هذه الطّباع غير الحميدة، ففي الشارع ما إن تعطّل السّير لغرضٍ من الأغراض حتى فاض صبرُ النّاس وغلبت عليهم طباع الأنانيّة، ولجوّا في فوضى التجاوزات من اليمين والشمال ومن كل النواحي حتى تصبحُ كل الأمكنة مشاريع طرق في تلك اللّحظة كي يصل أصحابُ هذه الطّباع الأنانية قبل غيرهم.. فأتساءل: كيف فهم هؤلاءِ الدّين؟!

ثم في إحدى المؤسسات الحكوميّة، حيث وضعت تلك المؤسسة سياجاً بسيطاً لكن البشرَ يلتفون حوله كي يصلوا إلى الموظّف الذي أصبح يتحرّك بصورة أفقيّة مشوّشة،

هـذا يناديـهِ من هنـا وذاك يطلبه من هناك.. نظـرتُ خلال هذه الجلبـة الصاخبة إلى امرأة شـابة أجنبيّـة وقـد وقفت لوحدهـا داخل السـياج تحسـبُ أن طابـوراً مسـتقيماً، وهادئاً كـما هـو الحـال في بلادهـا سـيمتدُّ وراءهـا، وأنّهـا بحكم كونهـا عـلى رأس هـذا الطّابور سـوف تقـضى مصلحتهـا قبل غيرهـا.. لكـنّ أنّا لها هـذا الحلم فـما هي إلا واهمـة، كنت أرى الخطـوط المشوّشـة التـي تصنعهـا فـوضى البـشر تنسـجُ حولها شـبكةً غـير منظّمة، وكأني بهـذه الخيـوط تقيّدهـا مكانهـا فـلا تـروم حـراكاً ولربما هي سـاهمةٌ، تسـتنكرُ هذه الفـوضى في نفسـها فرثيـت لمنظرهـا.. وتذكـرتُ الطّابـور والهـدوء في بلدِ الغـرب.. في موقـف آخـر تسـتمرُ طبـاعُ الأنانية البغيضـةِ، فأجدهـا متمثّلـةً في مواقف السـيارات في أحـد المستشـفيات المرجعيّـة حيـث تناثـرت السـيارات في حلق الشـارعِ وبـين المواقف وفـوق الأرصفـةِ.. قلـتُ في نفـسي: «مـا الـذي يحـدثُ في مجتمعنـا فـوضى في كل مكان يؤمـه بـشر لهـم مصالح فيـه، حتى المسـجدَلم يخـلُ مـن الفوضى كثـيرون سـدَّوا مداخل المسـجدِ وطرقاتـه وهرعَـوا ملبّين نداء الحـق.. والحق يوجـبُ عليهـم أن يميطوا الأذى عـن الطريـق، وهـم فوق ذلـك يعطّلـون الطريـق، فأين هـم من مقولـة سـيدنا عمر بن الخطـاب: «إني لأخشـى أن تتعثّـر بغلـة في الشـام فيحاسـبني الله لم لم تفسـح لهـا الطريق يا عمر»

فـإذا كان هـذا هـو شـعوره رضي الله عنـه تجـاه دابّـةٍ في مـكانٍ بعيـد فكيـف كان حالـه بـدروب البـشر الذين يعطّل هـؤلاء الفوضويون طريقهـم ويهرعُـون لأداء الصلاة، وما قيمـة الصـلاةُ بـلا أخلاق، مـا قيمةُ العبـادات التـي يحرص عليهـا كثيرُ مـن النّاس دون قيـم حياتيـة، تقنن نظامهـم الإجتماعـي، وتضبـط علاقاتهم مـع الآخرين؟!

إن امـرأة ذكـرت عنـد النبـي صـلى الله عليه وسـلم بكثـرةِ صلاتهـا وصيامهـا وتصدقها عـلى النـاس ولكنها تـؤذي جيرانها فقـال هي في النـار، وامـرأة مقلّة في العبـادات لكنها لا تـؤذي جيرانهـا فقال هـي في الجنّة.

وهـذا مـا لا يفهمه الكثـيرون فيهرعون للصلاة خشّـعاً ركعـاً وفي الخارج يـؤذون البشر

بفوضاهم وسياراتهم التي تعيق حركة الشوارع.

قال لي أحد الإنجليز: إننا لا نذهبُ كثيراً إلى الكنيسة ولا نهتمُّ بالدّين ولكن كثيراً من القيم لازالت تعمُّ في حياتنا وأنظمتنا المختلفة فقلتُ له: «ذلك بسبب حدّة القوانين وصرامتها».

وكثيرٌ من النّاس عندنا تفسّخوا من الطّباع الكريمة حتى أننا لم نعد نسمع خصلةً عظيمة هي «المروءة» في قاموس حياتنا، تلك الطّباع التي تأسّست على القيم الإسلاميّة فكانت خير منطلق للنفسِ البشريّة بالرّغم من طبع هذه النفسِ الذي ينحو بها إلى الرغبةِ في التّحرر من هذه القيم.

هذه الفوضى الناتجة عن الإنحراف في الطّباع لابد وأن يقابلها التطبيع لقد سألني أحدهم ذات يوم: كيف نستطيع تقويم الطّبع إن لم ننجح بالكلمة، قلت له: بالقانون، فالقانون هو الضابط الضامن لحريّة الآخرين، وهو الرّادع أمام تعدي أي كائن لحريات الناس.. إنني لا أتوق إلى مثالية (يوتوبيا) أفلاطون وكأننا نكتبُ المستحيل، ولا نكتبُ ما يمكنُ لبشرٍ أن ينتهجوه في حياتهم، ويمارسوه في واقعهم، فلديهم الأدوات القيم ويتبقى عليهم التطبيق.. إنني وغيري ممن يشاركونني هذه الهمومنتوق إلى مجتمع يفعّل القيم الحميدة التي جاء بها دينه ولا يحصرها في العبادات، فكم عدد المصلين، وكم عدد الحجاج، وكم عدد الصائمين، والعدد الكبير يملأ القلبَ بهجةً، لكن كم هم الذين يفهمون القيم النبيلة، والأخلاقيات السلوكية القويمة ويطبّقونها..كم هم الذين تنسجم القيم الإسلاميّة مع تعاملاتهم وأخلاقهم؟

إذا كان «الدين الخلق» و«الدين المعاملة» فإن العبادات لوحدها لا يمكن تجزأتها عن السلوك وأخلاقيات المعاملة.. إن غاندي الذي أفنى عمره في مسيرة الإستقلال قال عام ١٩١٧ بمناسبة افتتاح المعهد الذي أسسته (الآنسة آني بوسانت) متوجّها إلى الحضور من مواطنيه: «إن الهندَ لا تستحقُّ الإستقلال مادام المارُّ في أحد شوارع

بومباي أو كالكوتا معرّضاً لأن يتلقى بصقةً على رأسه من إحدى النوافذ»

فكيف بنا نحن أصحابُ القيم حين نحيد عنها، وننحرف نصرةً لأنفسنا، وتغليباً لمصالحنا؟!

إن التطبيع هو واجبٌ حينما يخرجُ الطبعُ من دائرة القيم والأخلاقيات فمن يريد أن يستبق النّاس في الطوابير يُحرم، ومن يستهتر بالنظام في الشوارع ويعرّض الناس للمخاطر يُردع بقوة القانون، ومن يتجاوز الأنظمة ابتغاءً مصلحةٍ يقضيها يحاسب، ومن يشهّر بالآخرين يحاكم ومن يثير الفتنة يغلظ له الجزاء، ومن ينشر الشائعات يكبح، ومن يتفوّه ببذاءة يؤدّب.

فإن المرء الذي لا تضبطه أخلاقه، ولا تردعه قيمه فإن القانون هو القيِّم عليه كي يضبط له خُلقه، ويطبّعه على أخلاقه.. وهذا الكلام يجعل من تغيير الطباع أمراً ممكناً إن كان فيه المصلحة وذلك على عكس الفهم السائد في الثقافة الشعبية... ومع النسبة الكبيرة لأحقية المقولة القديمة القائلة «نقل الجبال أهون من تغيير الطباع» إلاّ أن الإستسلام للطباع السيئة التي تحرّف صورة المجتمع إذا ما أصبحت ظاهرة يعدُّ أمراً غير مقبول، بل مؤشر غير حضاري لا يرتضيه المجتمع الواعي، الطامح إلى الإزدهار والرقي.

بيدك الحل لا بيد غيرك:

«رحم الله امرأً جعل لنفسه خطاماً وزماما، فقادها بخطامها إلى طاعة الله، وصرفها بزمامها عن معاصي الله»

من الأثر

من العوائقِ النفسية التي تتردد على الألسنُ ما تختصره جملة «ليس الحل بيدي» وهي وإن تكن صادقة في بعض الأحيان إلاّ أن كثيرا من النّاس يستغلونها ليدفعوا بها أي عملٍ يمكنهم القيام به، ويبررون تكاسلهم وعجزهم باختصار، يكشفون عدم مبادرتهم.

هذا طبعُ البُلداء[1] أولئك الذي آثروا الخمول على النشاط، والتقاعس بديلًا للعمل، والمكوث على ما هم عليه من الهموم والمشكلات لا يجدون ما يؤنسهم غير مقولة أبي المعري: «هذا ما جناهُ أبي عليّ وما جنيتُ على أحد».

هي ثقافة نشأت في البيوت إذ الإبنُ ينتظرُ الحلّ من أبيه، والإبنة من أمّها، واستمرت الثقافة في بيئات العمل فالموظف ينتظر الحل من مسوؤله وكل واحد ينتظر الحل من الآخر، والمواطنين ينتظرون الحل من الحكومة.. ولا أحد يدري من يبادر أولاً.

عشّشت هذه الثقافة في عقول الحالمين فتصوروا أن السماء تمطرُ ذهباً أو فضّةً، وتردد بعضهم على المشعوذين والدجالين كي يأتيهم الفَرج وتتساوق عليهم البركات، وتحلّ في دارهم الأنعم، وتغصّ بيوتهم بالأرزاق، وأرصدتهم بالثروات من دون عملٍ أو تعب.

---

(١) جمع بليد.

يقول أبو تمام:

مـــن كان مرعـــى عزمـــه وهمومـــه

مرعـــى الأمـــاني لم يـــزل مهـــزولا

عـرف المحتالـون نقاط الضعف فيهـم، تبييض الأموال دون شـغل أو نصـب، فخرجوا بحيـلٍ غريبـة وعجيبـة منهـا: أن يكثّـروا الأموال النقديـة بمجرّد مـا يسـلّمهم كل حالم واهـم مبلغـاً معتـبراً مـن المـال، لكن الـوزّة لم تلـد بيضـة الذهب فسـقط في أيديهـم[1]، ولكـن بعد فـوات الأوان، وتبخّـرت الأحـلام والأوهام.

المبـادر الحقيقـي هـو الـذي لا يرفـع شـعار الحـل ليـس بيدي عـلى الفـور بـل أن يغلّب الهمّـة ويقـدّم الإمكانيـة أول مـا يفعل.

قيـل لنابليـون بونابـرت يومـا: «ان جبـال الالـب الشـاهقه تعوقـك عـن التقـدم» فقال يجـب ان تـزول مـن الارض إن الرجـل الـذى عقـد النيـه عـلى الفـوز لا ينطـق كلمـه مسـتحيل.

كيـف لا يقـول ذلـك وهو الـذي كان يرد بثـلاث على ثلاث فمـن قال لا اقـدر: ردّ عليه حـاول ومن قـال لا اعـرف: ردّ عليه تعلم ومن قـال مسـتحيل: ردّ عليه جرب.

المبـادر الحقيقـي هـو الذي لا يـرى الظلمـة أو النقطة السـوداء بـل يرى الشـعاع أول ما يـرى لأن الأبصـار لا تعمـى وإنّـما تعمى القلـوب التـي في الصـدور[2]، إذ أن الله أعطى كل إنسـانٍ مـن المواهـب والهدايـا مـا تميّزه عـن الآخر ومـا يمكن لـه عن طريقهـا بلوغ الغايـات والمطامح.

يقول جمال الدين الأفغاني: «تبلغ المرأة بضعفها ما لا يبلغه الرجل بقوته»

---

(١) أي ندموا.

(٢) مصداقـاً لقولـه تعـالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ سـورة الحـج: الآيـة ٤٦.

«الحلُّ بيدي» أول عبارة ينطقها المبادر حتى تفتح أمامه الأبواب والفرص السوانح، والإمكانات، أما لو قال على الفور: الحل ليس بيدي، فهو يغلق قاصداً أو غير قاصد أبواب الحلول ويترك الأمر راكداً كما هو أزمنةً عديدة، فيظهر كما تنمو الطحالب على سفينةٍ غارقةٍ، أو كما يطفو العفن على بركةٍ آسنة.

إن النيّة وحدها لتفتح الباب أو تغلقه، فإن نويت في أمرٍ من الأمور نيّة حسنة كان الله مُعينك ثم تُعلن أنك ستبحث في الحل ثم تفكر في خطّة عملية وتستعرض الفرص المتاحة.

هذا التوجّه الإيجابي سيفتح لك مسالك التفكير، وسيهيّأ عقلك للتفكير والبحث عن الوسائل الملائمة للوصول إلى الغاية.

وإن نويت نيّة عدم المبادرة كي لا تكلّف نفسك عناءً أو وصباً فقد حجبت كل حل عن عقلك، وبددت كل أمل في قلبك.. لهذا يوصينا الخالق الكريم سبحانه في حديث قدسي بقوله: «أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي ما شاء» وبالتأكيد فإن الظن الوحيد المنبثق من الإيمان بالله واليقين به هو: الظن الحسن.

وبعد النيّة الحسنة والظن الحسن بالله يأتي العزم الأكيد الذي لا يشوبه تردّد ثم يأتي التوكل على الله توكلاً لا يعتريه شكٌ ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾[1].

نعم إن للإنسان قدرة معيّنة وطاقة محدّدة حتى أن خالقنا العظيم لا يريد تكليف الإنسان فوقها، قال تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[2].

لكن أن يقول الإنسان عبارة «الحل بيدي» أمرٌ في حد ذاته يدلُّ على التفاؤل وعلى الروح الإيجابية التي يتمتع بها المبادر.

قد يحسبُ الإنسان أن ما هناك مما لا يملكه ولا يمكنُ أن يبدع فيه أو تظهر فيه

(١) سورة آل عمران: الآية ١٥٩.
(٢) سورة الأنعام: الآية ١٥٢.

موهبتـه أو أن يتصـور أن يكـون مهنتـه أو صنعتـه.. لكـن قـد يحـدث العكـس فكم من طالـب كـره مـادة الرياضيـات كرهـاً مقيتـاً لكنّه أصبـحَ معلّـماً لها..

وكـم مـن شـاب كان يهوى نظم المعلومـات فأبـدع في التصميم المعماري الـذي لم يتصوّر نفسـه يوماً فيـه.. وقس عـلى ذلك من الأمثلة والشـواهد ما شـئت.

الشـاهدُ أن الإنسـان يملـك مـن القـدرات والمهـارات مـا يجهله حتـى يبـدأ في تعلّمه أو اكتسـاب مهارتـه فيبـدع فيه.

جـاء في كتـاب إحيـاء علـوم الديـن للإمام الغـزالي رحمـه الله تعالى قـول سـيدنا عمر بن الخطـاب رضي الله عنـه: «تعلمـوا العلـم وتعلمـوا للعلم السـكينة والحلم»

ويقول الأحنف بن قيس رحمه الله تعالى: «لست بحليم ولكنني أتحلّم»

وجـاء في شـعب الإيـمان للبيهقـي عـن أبي الـدرداء قـال: «إنـما العلـم بالتعلـم والحلـم بالتحلـم ومـن يتحـرى الخـير يُعطـه، ومـن يتـوق الـشر يوقه».

إن الإنسـان لا يجـب أن يبخـس نفسـه بقوله «الحـل ليس بيـدي» إلا بعـد محاولة وجهد وتفكـير حينهـا وإن قالهـا فهـي نابعـة عـن رضى داخـلي عـن نفسـه، وقناعـة مبنيـة على أسـس واقعيـة لا عـلى أوهـام وافتراضات مسـبقة.

خداع الذات

يرَى الجُبَناءُ أنّ العَجزَ عَقْلٌ
وتِلكَ خَـديعَة الطّبعِ اللّئيمِ
أبو الطيب المتنبي

الإشكالية في مجتمعاتنا أن أغلبنا قد تعلَّق بوهمٍ أحاط به عقله، وسكّر به أبواب النور والأمل في نفسه.

هذا الوهم تمثّل في قول معلّمةٍ لي أمام طلاّبها وقد دُعيت للحديثِ إليهم: لماذا علينا أن نتغير إذا كان المجتمع لا يتغيّر؟!

وفي مناسبةٍ أُخرى قالت لي مديرةُ مدرسة أمام المعلمات وقد كنتُ حاضراً للحديث إليهم: المجتمعُ يفرضُ علينا أن لا نكون صادقين طوال الوقت، تلك المعلّمة وهذه المديرة تعكسان نمطية التفكير التقليدي السائد الذي ثبّط العقول كي لاتبادر إلى التغيير متمثلاً في وهمٍ إسمه المجتمع.. لقد كان ردي عليهما عفوياً: ومن نحن سوى المجتمع ذاته، فإن تغيرتُ أنا وأنتِ سيتغيّر المجتمع بصورة تدريجية وإن كان بطيئاً.

في مجتمعاتنا ثقافةٌ تسري كالخدرِ في الجسد، تعمي فيه البصر، وتغلق التفكير، وتميت الأعصاب، وترخي العضلات، ثقافة تمثّلها أمثلة شائعة يستخدمها الناس كثيراً منها «قص صبع ولا تغير طبع» وهو مثلٌ يغلق أبواب الأمل في تغيير الآخرين بزعم أنه من المستحيل تغييرهم لأنهم في نظر القائل لن يتغيّروا؟!

فكيف إذن غيّر الإسلام أطباع من دخلوا فيه؟!

غيّرهم من جاهلية رعناء ذات طباع صلفة، وقسمات جامدة، ومشاعر حادة إلى شخصيات رقيقة، ذات طباعٍ رفيقة، وأخلاقٍ سامية، وعواطف حميمة.

وكم من أناس لم تكن في يوم من الأيام تحسبهم يتغيرون فإذا بك تنصدمُ لمرآهم وقد تغيَّروا؟!

إذاً فليس من الصحة أن يردِّد الواحد منا هذا المثل ولا مثل «من شب على شيءٍ

شاب عليه» ولا مثل «العادة التي في البدن لا يغيِّرها إلا الكفن» ولا مثل «تغيير النهر من مجراه أسهل من تغيير الطِّباع» ولا مثل «ما تأخذه مع الحليب لا يخرج إلا مع النفس» فهي أمثلةٌ تمنع من التغيير الإيجابي.

لا وهمَ إلاّ الوهم الذي يصنعه الفرد في نفسه بأن لا إمكانية في التغيير ولا قدرة ولا عزيمة.. فالإستحالة هي الشعار الأبرز وهي الجدار السميك الذي يقفُ أمام الإنسان وهو جدار وهمي لم يصنعه سوى الإنسان لنفسه.

إن كل تغيير حصل في التاريخ بدأ عن طريق فردٍ واحدٍ أكان تغييراً نافعاً أو ضاراً..

بدأ بفردٍ حطّم هذا الوهم المسمّى المجتمع فبادر إلى التغيير في نفسه أولاً ثم بدأ تدرّج التغيير ككرة الثلج تكبرُ وتزداد حجماً مع تدرجها من الأعلى إلى السفح.

والإسلام يشجّع على التغيير الإيجابي ويكافأ عليه كما يعاقب في المقابل التغيير السلبي المضر.

يقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ. وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»[١].

وفي حديث آخر: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[٢].

المبادر لا يأبه بهذا الوهم المسمّى المجتمع بل عليه أن يبادر بالطرق السليمة الواعية التي ترتكز على فكرة ومنهاج يقودها اليقين والصبر والتؤدة والعزيمة فما ضر الأمم السابقة وما كان سبب هلاكهم إلا لأن كل واحدٍ منهم كان يقول: لا يهمني أمر فلان وما يفعله من منكر فلا يبادر إلى نصحه ولا يسعى إلى إيقاظ ضميره ولا يعمد

---

(١) رواه مسلم عن جرير بن عبدالله رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم.

إلى تنبيه، ولا يمضي لأجل تحذيره بل تركه هكذا حتى ازاددت استفحل المنكر في المجتمع كما يستفحل الداء السقيم بالجسد فهلكوا جميعاً.

يقول تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩ ﴾[1].

وهؤلاء حالهم كحال الراكب سفينة يرى ماءً يتسرّبُ إليها من ثقب في هيكلها فلا يحرّك ساكناً غير مكترثٍ أو قائلٍ لنفسه بأن آخر قد يبادر لإصلاحه ويقول كل راكب مقولته ويظنّون ظنونه حتى يغرقون جميعاً.

يقول النبي عليه أفضل الصلاة والسلام: «مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا، جَمِيعًا وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا»[2]

وكم من بيننا من يقول «والله ما بيدي حيلة»، ويقول: «العين بصيرة واليد قصيرة» يقول ذلك وهو يرى غريقاً يغرق ويستطيع أن يمدّ إليه بحبل أو يُلقي إليه بعود شجرة لينقذه فلا يفعل كي لا يسحبه الغريق معه.

تبنّت إحدى القنوات التلفزيونية برنامجاً لتخفيف الوزن، وكان عبارة عن مسابقة يتنافس فيها أصحاب الأوزان الثقيلة، والأجسام السمينة فكان كل واحد منهم يبذل قصارى جهده بتشجيع من فريقه لتخفيض وزنه.

طبّق الجميع الحِمية والتمارين ومرّوا على الكثير من الضغوطات النفسية ولكن في نهاية الأمر كان النتائج طيّبة إذا غيّرت البعض منهم إلى نصف أوزانهم التي كانوا

---

(١) سورة المائدة: الآية ٧٨-٧٩.

(٢) رواه البخاري عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

عليها قبل البرنامج فكان ذلك مدهشاً ليس للجماهير المتابعة بل ولهم أيضاً.

إن وصولهم إلى مستوى لم يكونوا يحلموا به سابقاً أو أن آخرين لم يتوقعوه منهم أضحى أمراً واقعاً لا مراء فيها فهاهي المرأة الشابة البدينة قبل البرنامج تظهر رشيقة القوام بعد ستة أشهر من فترة البرنامج.

لهذا فإن لم يتحرر الفرد من أوهام عدم القدرة على التغيير الإيجابي - وأشدد على التغيير الإيجابي - فإنه سيحيا تابعاً لغيره وليس سيداً لنفسه.. فيتبعُ الناس فيما يضيّعون أموالهم، ويقلّدهم فيما يسرفون لأشيائهم ويجاريهم فيما يبددون من أوقاتهم وهكذا يحيط نفسه بالوهم المرعب.

المبادر يتبع السنة الحسنة في المجتمع ويقلّدها بل ويطورها فإن كان سنة المجتمع الكرم فإنه يطورها بحيث تكتسبُ قيمتها المثلى بالحفاظ عليها دون إضرار.

المبادر صاحب همّة:

«لـو كان الإيـمان عنـد الثريـا لناله رجـالٌ أو رجـلٌ مـن هـؤلاء»

حديث شريف

كيـف يمكـن للصـاروخ الـذي يحمـل القمـر الصناعـي أن ينطلـق بـه نحـو الفضاء بـدون قوة دفـع؟! وكيف يمكن للإنسـان أن يزعـم المبادرة بـدون همّة؟! الهمـة هـي العـزم العتيـد الذي يعـدُّ من أقـوى أسـلحة المبـادر، قـد تنـوي فعل أمـر ولكنّـك لن تبـادر إلى فعلـه ما لم تكـن فيك همّة .

ومـا أولئك المسـوّفون الذيـن يؤجلون عمل اليـوم إلى الغد، والذيـن يتذرعون بمختلف الأسـباب، وأصنـاف الظروف إلاّ الخاليـة قلوبهم من وقود الهمّة وهكـذا تمضي أعمارهم وهم يرددون: سـنفعل كذا.

الإنسـان الخـالي قلبـه من الهمّـة هو إنسـانٌ خامـل، متقاعس، باهـت لا يخطـو إلاّ ليأكل ولـو وجـد مـن يضـع اللقمة في فمه لمـا تردد، ورحـم الله والـدتي فقد كانت تـردد مقولة الشاعر:

الماكثـــون بأرضهـــم عنـــدي كســـكّان القبـــور

لـــولا التنقـــل مـــا ارتقـــت درر البحـــور عـــلى النحـــور

فكـم مـن أناسٍ لا يطيـبُ لهم الخروج مـن بيوتهم إلا لـضرورةٍ قصوى..! وكـم تكثرُ في البيـوت الأوامـر الصـادرة مـن آبـاءٍ أو أمهـاتٍ لأبنائهـم بإحضار مـا قد تطولـه أياديهم فيتعاجـزون عـن القيـام إليه فينمُّون خلـة العجز السـيئة في أبنائهم الذيـن يتنازعون هذه العـادة التي تميـت الهمّـة فينقولونها لأبناءهـم فيما بعد.

وفي إحـدى أسـفار النبـي صـلى الله عليـه وسـلم أمـر بذبـح شـاة وطبخهـا فقـال رجل يارسـول الله عـلي ذبحهـا وقال آخـر علي سـلخها وقال آخر عـلي طبخها فقـال صلى الله

عليه وسلم وعلي جمع الحطب[١].

هذه هي نفس نبي الإسلام الذي بنى بها دولته، وأرسى بها دعائمه ولولا هذه النفس لما قامت للإسلام قائمة.

وهو الخلق الذي سيستمر مع خلفاءه الراشدون عليهم رضوان الله فهذا سيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه يرى مبادراً يؤدي العبادة لكنه يفتقد للهمة فيعتمد على أخيه في إحضار الطعام إليه فلم يثن عليه لحسن عبادته أو انقطاعه عن أهله وتفرغه لأداءها وإنّما سأله أول ما سأله عمن يحضر له الطعام وإذ أجابه بأن أخاه يحضر له الطعام يرد عليه سيدنا عمر صاحب الهمة العالية: أخوك خير منك.. الشاهدُ هنا أن الهمة هي روح المبادرة وهي لا تذكى إلا بنفس المرء ولا تخبو كذلك إلاّ بها، فمن الناس من يمتلك بين جوانحه همّة عالية تحمله إلى تحقيق الإنجازات المتتالية، ومنهم من تبقيه نفسه الواهنة الضعيفة في الحفر فلا يخرج منها حتى تحين ساعته، يقول ابن الجوزي رحمه الله: «وقد عُرف بالدليل أن الهمة مولودة مع الآدمي وإنما تقصر فيه تقصر بعض الهمم في بعض الأوقات تفتر أو تقتر، فإذا حُثت سارت فمتى رأيت في نفسك عجزاً فسل المنعم، أو كسلاً فسل الموفق فلن تنال خيراً إلا بطاعته فمن الذي أقبل عليه ولم يرد كل مراد»

وقد كنت أسمع دائماً أحد آبائنا يردد بيت شعر لشاعر شعبي عماني يقول فيه:

والصقر تلقاه من يوم مولود

مديم من رأسه يقاسي عتاله[٢]

إذ مثّل الشاعر صاحب الهمة العالية بالصقر الذي لا تغاد رأسه الهمة وكأن الهمّة أمراً فطرياً خلق مع الإنسان، وهذا صحيح إلاّ أن الصحيح أيضاً أن النفس التي

---

(١) ذكر الطبري في خلاصة سير سيد البشر (١/ ٨٧).

(٢) الشاعر العماني علي بن سعيد بالضبع الدبياني الجنيبي، المولود في سنة (١٨٤٠)م وتوفي في ١٩٢٠م.

تـدرّب عـلى الهمّـة وتمـرّن لهـا تصبحُ صفـةً لازمـةً من صفاتهـا التـي تتزيّن بهـا وتباهي.

أنظـر إلى الصحـابي الجليـل عبدالرحمـن بـن عـوف بعـد أن آخـى نبينـا الكريـم عليـه أفضـل الصـلاة والتسـليم بينـه وبين سـعد بـن الربيـع رضي الله عنهما بمثل مـا آخى بين المهاجريـن والأنصـار لم تقعـده همّته التـي تتوقد في نفسـه، ولم تخمد عزيمتـه التي تتأجج بـين ضلوعـه بل قـال مقولتـه المشـهورة: دلّوني على السـوق، وليـس غريباً عـلى مثله أن يقـول هـذه العبـارة فهـو القائـل: لـو رفعت حجـراً لوجـدتُ تحته ذهبـاً.. فهـل بالفعل عنـى ذلـك؟ لا بـل لأن نفسـه ذات الهمّـة العاليـة هـي التـي تقـول لـه أن تحـت الحجرِ ذهبـاً فاسـتجمع قـواك كـي ترفعه، ولـو حدّثت كل إنسـان نفسـه بأن تحت الحجـر ذهباً لكانـت لـه من الهمّة ما لا يشـعره بثقل الصخـر، ولا بوطأة الحـر، ولا بمجهود النصب. ذلك لأن للمبادر همّة كأداء عاتية لا تستسلم ولا تذعن.

ففـي يـوم ما سـألت أبامسـلم الخرسـاني الـذي يعود إليـه الفضـل في تأسـيس دولة بني العبـاس، سـألته أمّـه وهـو صغـير يتقلب كثـيراً في فراشـه: أي بنـي.. ما بـك؟ فأجابها: همّـة يا أمـاه تنطـح الجبال.

إن مـن الملاحـظ أن همّـة الكثـير مـن الشـباب تظهر فيـما لا يفيدهـم، فمن أجـل لعبهم، ومـن أجـل سـمرهم فـإن لهـم من الهمّـة ما لا يشـق لـه غبـار أمّـا أن ينهض من فراشـه لأجـل صـلاةٍ أو أن يقـوم للقيـام بعمـل، أو تقديـم خدّمـة فـإن همّتـه رخـوة، وجسـده متبلّـد خامل.

لهـذا فـلا يمكـن لمبـادر أن يكـون إلا بسـلاح الهمّـة.. الهمّـة التـي تحتـاجُ إلى قـوة إيـمانٍ ويقـين بالعمـل المقدَم عليه، وفي هذا السـياق أذكـر القفزة التاريخية التـي قفزها فيليكس بوغارتنـر Flix Boumgratner مـن أرتفـاع ٢٩ ألـف كم..

ألم يتسـلّح هـذا المبـادر إلى الهمّـة العظيمـة؟! هـذه الهمّـة ولـدت فيـه فظهرت في شـكل رسـمة طفوليـة في سـن الخامسـة حين رسـم رجل يهبـط بمظلة كتـب تحتهـا «كل واحد لـه حلـم وهـذا حلمـي» ثـم يحقـّق حلمـه بعـد ٣٧ عامـاً فأيّـة همّـة هـذه التـي تتلجلج

بين ضلوعه عشرات السنين وهو يصقله بالمران، ويزيدها بالثقة والإحتمال، ويقويها بعظمة الإنجاز وروعته.

المبادرُ الأصيلُ إذن صاحب همّة نفسيّة عالية الهدف، طامحة إلى الكمال، إذ أن المرء كما يقال: «حيث يجعل نفسه إن رفعها ارتفعت وإن قصّر بها اتّضعت».

فكم من ساهر ليلٍ في خمّارة يعب من السُّكرِ عبّاً، وكم من ساهر ليلٍ على العلوم يعبُّ من الفكرِ عبّاً.. وكم من يبدِّد وقته في المقاهي هدراً، وكم من يعتلي بنفسه في العمل قدراً.

لقد تأمّلتُ الفرق بين الألماس والفحم فوجدتها من نفس العنصر، عنصر الكربون.. إلاّ أن هذا ألماسٌ وذلك فحم، فكم في الناس من هذا ومن ذاك.

بين الحَوَّمِ والنُّومْ[١] معنى حياة:

في تراثنا الشعبي مثل يقول «كلبٌ حائم ولا أسد نائم» يقصد تفضيلَ الكلبِ في حومه بحثاً عن لقمةِ عيشٍ يأكلها على الأسد النائم الذي ينتظرُ أنشاه تأتي له بالفريسة.

الإنسان الساعي لأجل لقمة العيشِ يحظى بعدّة جوائز: محبّة الله وتوفيقه سعادته الذاتية وزيادة ثقته بنفسه وحسن نظرته لها، محبّة أهله له ومحبّة الناس.

بقدرِ الكدِّ تكتسبُ المعالي..
ومن طلب العلا سهر الليالي

يغوص البحر من طلب اللآلي..
ويحظى بالسيادةِ والنوالِ

ومن طلب العلا من غير كد..
أضاع العمر في طلب المحال

الإمام الشافعي

أما الأولى فالله سبحانه وتعالى لا يحب العبد المتواكل، المتقاعس، الكسول «إن الله يحب العبد المؤمن المحترف»[٢] وورد أيضا «إن الله يكره الرجل البطال» وربط الحق سبحانه الأسباب بالنتائج، إذ لا يمكن لإنسان أن يقعد في مكانه وهو يملك المكنة والقدرة على السعي فيدعو الله رزقاً وينتظر أن يأتيه إلاّ أن يكون لله حكمة في ذلك ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾[٣].

ثم إنه يحفظ له عمله من الضياع وحرمان الأجر ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾[٤].

---

(١) الحوّم جمع لحائم وهو الذي يحوم ساعياً لرزق، أمّا النوّم فجمع لنائم.
(٢) رواه الحكيم الترمذي والطبراني والبيهقي عن ابن عمر.
(٣) سورة الملك: الآية ١٥.
(٤) سورة الكهف: الآية ٣٠.

فهو سبحانه ينظر ويراقب ويثيب أو يعاقب ﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾[١].

أما الثانية فإن الإنسان المبادر للسعي للرزق تختلفُ نظرته لنفسه وللحياة من ذلك القاعد الخامل الذي ينتظر اللقمة تأتيه حتى فاهه، إذ تتحرّك في نفس الأول الهمم والعزائم بينما تخمد في الآخر.

انظر لنفسك بعد أن تقوم بعملٍ ما كيف تراها..

أي شعورٍ جميل بالإنجاز ينتابك؟ لا شك إن في نفس رغبة جامحة لتقدير الذات. هذا هو المطمح الجميل الذي كنت تريد أن تصل إليه لهذا بدأت تقدّر ذات وأنت ترى نفسك تنجز شيئاً دفعك خطوةً للأمام مما يؤدي إلى ارتفاع الثقة في نفسك وهكذا فكلما أنجزت شيئاً نافعاً ارتقيت سلّماً في نفسك وازدادت نسبة الثقة في نفسك وزاد عطائك وهزمت أقوى أعدائك: الملل، والفقر، والشرور.

أما الثالثة فهي محبّة الأهل والناس له إذ أن المرأة في طبيعتها غالباً تستثقل وجود الرجل المتواكل في البيت؛ ذلك الذي يجد لذته في مكوثه الطويل الممل في البيت، وتقاعسه عن لقمة العيش له ولأهله بل تحب الرجل المتوقد العزيمة، الساعي يمنةً ويسرة في سبيل الإرتقاء بمستوى معيشة أهله « والمرأة ضعيفة بفطرتها وتركيبها، وهي على ذلك تأبى أن تكون ضعيفة أو تُقر بالضعف، إلا إذا وجدت رجلها الكامل، رجلها الذي يكون معها بقوته وعقله وفتنته لها وحبها إياه، كما يكون مثال مع مثال»[٢]

هذا النوع من الرجال يكبر في نظر المرأة فهو وإن يطول بعده عن البيت فإن كدّه في سبيل المعيشة يشفع له عند زوجته، ويرفع من رصيده عندها وعند أبناءه.

ولا شك بأن أولى القدوات التي يتأسى بها الأبناء تكمن في والديهم، لهذا فإن كانوا

---

(١) سورة التوبة: الآية ١٠٥.

(٢) مصطفى لطفي الرافعي، من وحي القلم، ج١، زوجة إمام.

على درجة رفيعةٍ من الوعي بالمبادرة للسعي فيما يجلب لهم ولأبنائهم المنافع بوسائل خيّرة مجتهدين في ذلك ومثابرين كانوا خير القدوات.

وإن كانوا كسالى يتلذذون بالنَّومِ والخمول لا يطيبُ لهم القيامُ بعمل، أو السعي لمنفعة كانوا قدوات سيئة لأبنائهم ومن هنا تتفاوت مشاعر الأبناء تجاههم.

فتصوّر صورة الأب الذي يفتقدهُ أبناءه طوال اليوم وينتظرونه وهم يعلمون أنّه يدبُّ في الأرضِ جامعاً لهم المال، حاصداً لهم الثمرات حاملاً لهم الأرزاق..

تصوّرهم وهم يتراكضون إليه فيلقون أنفسهم في أحضانهم، مقبلين يديه التي تعمل من أجلهم.

ثم تصوّر الأب الخامل الذي ليس في البيت من شأن سوى سؤال هذا وذاك: إلى أين تذهب؟ ومن أين جئت؟ حتى ضعف حبّه في قلوب أبناءه فصاروا يطيلون المكوث خارج البيت أكثر من داخله!

تصوّر هذا الأب وذاك.. وتخيّر أيهما تريد..

أمّا حب الناس للمبادر الساعي للخير وقضاء المصالح وجلب المنافع ودفع المضار فهو حبّ عظيم يتمثّل في الإعجاب به من نحو ما قاله سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إني لأرى الرجل فيعجبني، فإذا قيل لا صناعة له سقط من عيني..

الناس تحب المبادر لأنه ليس أنانياً لا تهمّه إلا مصلحته بل إنساناً يؤثر قضاء مصالح الآخرين قبل مصلحته، وتحقيق منفعتهم قبل منفعته فيحبونه ويعظّمونه ويجلّونه لأنه ارتقى بنفسه عالياً فوق المصالح الضيقة.

المبادر الحقيقي متوقد الهمّة يرى في الإقدام على العمل تحدياً هو جدير به وقادر على

الفـوز عليه، يؤمن بقول الشـاعر:

ومـــا نيـــل المطالـــبِ بالتمنـــى

ولكـــن تؤخـــذ الدنيـــا غلابـــا[1]

المبـادر لا يهنـأ له نـوم، ولا يهدأ له خاطـر إلاّ بالحركـةِ الدؤوبة التي تُشـعره بقيمة الحياةِ، ومعنـى العيـش فيها، وأهميـة تركه لبصمةٍ في وجوده تضيفُ إلى الإنسـانية شـيئاً ما.

(١) أحمد شوقي.

الصمتُ قرينُ العمل

«استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود»

حديث شريف

في عام ٢٠٠٧م كان فيليكس بومجارتنر Felix Baumgartner في عمان يقفزُ في بطن ثاني أكبر كهوف العالم، كهف الجن.

فمن كان يعرفُ ما يضمرُ في خباياهُ من حلمٍ، وما يخطط له من إنجازٍ بدأه في سن السادسة عشر من عمره وحققه في سن الثالثة والأربعين.

قفزةٌ في عمق قدره ١٠٩ أمتار قادته إلى قفزة طولها ٣٩ كيلو مترا.. وفتحة كهفٍ قطرها ٢٥ متراً قادته إلى فضاءٍ مفتوحٍ بلا حدود، إنه الحلم.. الذي بدأه صغيراً برسم طفولي على الورق حين كان عمره خمس سنوات ليحققه بعد ٣٧ عاماً، لم يكن حدثاً عادياً، لقد كنتُ أنتظرُ هذه اللحظة وأترقبها منذ أن عرفت أنها ستحدث.

لم تكن قفزةً مجرّدة قفزها إنسان بل هي مجموعة دروسٍ ملهمة، أولها تحديد الأهداف، فقد كتب فيليكس تحت رسمته التي رسمها في سن الخامسة وهي عبارة عن إنسان يحلق بالمظلة «أنا لدي حلم.. هذا حلمي فكبر وقد وضع هدفه أمامه..كان الهدفُ متميزاً ولولا ذلك لما وجد الحافز الحقيقي والقوي للإستمرارية، هدفه أن يحقق أعلى قفزةٍ في التاريخ الإنساني ويخترق سرعة الصوت وكان له ما أراد.. أما كيفية تحقيقه لهدفه الأسمى فكان عبر المِران الطويل والتدريبِ المستمر، لم يصبه الإرهاق ولا الضجر ولا الملل.

ولو لم يتسلّح بالصبرِ لما أكمل مسيرة إنجازه.. يقول الشاعر:

لا تَحْسَبِ المَجْدَ تَمْرًا أَنْتَ آكِلُهُ

لَنْ تَبْلُغَ المَجْدَ حَتَّى تَلْعَقَ الصَّبِرَا

والصبرُ دواءٌ مر يشبّه هنا بالمكابدة والمعاناة والهمة العالية وقد أبان أحد المقربين إليه حين قال: «لا أتخيل فيليكس جالساً على طاولة يقرأ الجريدة ويتناولُ شراباً» فلو لم يكن يتحلى بروح العزيمة العالية والشكيمة المستبسلة، والإصرار العنيد لما حقق هذا الإنجاز التاريخي.

وفي هذا السياق فإن أعداء النجاح متربصون لتثبيط الهمم والإنتقاص من أهمية ما يسعى إليه المجتهد، يقول أحدهم معقباً على قفزة فيليكس في كهف الجن «كأحد المظليين السابقين أقول بأن فيليكس لا يحظى باحترام، إنه يواجه صعوبة في الوصول إلى أماكن من السهل على مظليين الوصول إليها»

هذا التعقيب كان قبل عامٍ واحدٍ فماذا هو قائل اليوم وقد هبط فيليكس من ارتفاع ٣٩ ألف كيلو متر في المكانً الذي حُدد له.

إن من الدروس البليغة هي التحلي بروح عالية النظرة، سميّة الرؤية في صنع النجاح فالرجل الذي كان العالم يسمعه وهو يوجه فيليكس في الفضاء ويقدم له النصائح والإرشادات هو جوزيف كيتينجر Joseph kittinger صاحب الرقم العالمي السابق في أعلى قفزة منذ عام ١٩٦٠ وما ذاك إلا لعلو نظرته، وسمو فكره كي يساعد إنساناً آخر على تحطيم رقم قياسي كتب بإسمه أكثر من نصف قرن، بل ويقول له إنه قد سبق أن رأى الإنجاز يتحقق في رؤيا déjà vu[1] لقد نظر إلى مصلحة الإنسانية، وتسامى خدمة للعلمِ كي يتقدم الإنسان ولم ينظر لمصلحة شخصية ضيقة الأُفق وهذا درسٌ بليغ، كما وقف إلى جانبه فريق مكون من مائة شخص منذ سبعة أعوام لأجل أن يحقق هذا الإنجاز الإستثنائي لا لطلب شهرة، أو الحصول على مأرب وإنما أيضاً خدمة للإنسانية من وراء هذا الإنجاز.. إنه درسٌ آخر من دروس العلو

(١) الديجافو كلمة تعني حدث سبق عيشه أو سبقت تجربته.

الإنساني، والصبر لتحقيق الإنجاز.

هؤلاء كانوا في خيمة القائد حين صنع النصر على سياق المثل القائل: «النصر يصنعُ في خيمة القائد» ولم يكن ليعنيهم أن يظهروا علناً بل كان ما يشغلهم أن الإنجاز يتحقق للإنسانية.

والإنجاز درسٌ ملهمٌ للآخرين الذين فتحوا أعينهم على حقائق غفلت عنها قلوبهم، وأغلقت دونها عقولهم. تقول إحدى المغردات في تويتر «نهضت الصبح وأنا أشكو من الإرهاق، لكنني حين تذكرت قفزة فيليكس بومجارتنر بالأمس أغلقتُ فمي وقمتُ على أقدامي، لقد رآى فيليكس في إنجاز كيتنجر منذ أكثر من ٥٠ عاماً حافزاً له فهل رآى منّا من ذلك الحافز في عبّاس بن فرناس العالم المسلم الذي يعد أول طيّار في التاريخ (٨١٠-٨٨٧).. منذ أكثر من ٥٠٠ عام وليس من ٥٠ عاماً.

لقد نظر المغامر الباسل الأرض بتواضعٍ كما يقول مما يشف عن حقيقة الإنسان أمام هذا الكون العظيم الأمر الذي لا يزيد المؤمنُ إلا إيماناً بخالق هذا الكون العظيم ومدبر أمره، ومحكم السيطرة عليه.

فيا لها من همم عتيّة في صدور رجال قدّموا للبشرية تضحيات جسيمة ولو أن عمر بن أبي ربيعة حيًّا لما احتار متسائلاً:

مَنْ رسولي إلى الثريا، فإني
ضَافَني الهَمُّ، واعْتَرَتْني الغُمُومُ

إذ أن رسوله إلى الثريا هو فيليكس بومجارتنر..! الذي على حسب شاعر أندلسي:

ملكٌ بنى غرف العليا وشيّدها
على دعائم عزٍّ ليس تنهدمُ

فكم هناك من الدروس ما يطول الحديث حولها.. إنما يجب أن نقف عندها وقفة تأمّل وتفكير عميق.

إسعاد الآخرين:

«تبسّمك في وجهِ أخيكَ صدقة»
حديث شريف

بعد نهايةِ العامِ جاءَ الطّفل الصغيرُ ذو العشرةِ أعوامٍ بهديَّةٍ إلى سائق باص المدرسة وقدّمها له قائلاً: تفضّل ياعمي هذه الهديّة لك.

نظر إليه الرجلُ الكبير مدهوشاً وسأله: لِمَ يا إبني؟

فرد عليه الطّفل: لأنك بذلت مجهوداً كبيراً لنقلنا كل يوم من المدرسة إلى البيت والعكس وأنت صابرٌ واسع الصدر متسامح معنا مثابر في عملك.

فلم يجد سائق الباص من جوابٍ سوى دموعٍ تتدفقُ من عينيهِ تأثّراً بهذه المبادرة التي جاءت من طفل صغير.

روحُ المبادرةِ هذه كامنة في نفس الطفل، فقد سألته ذات مرّة عن أجمل شيء يحب أن يفعله فرد قائلاً: أن أسعد الآخرين.

يقولُ شابٌ في مقتبل العشرينات: لقد آمنتُ بأنه لا يمكن للسعادةِ أن تتحقق للفرد إلاّ بأن يحقق السعادة للآخرين.

إن روح المبادر لتعبِّر بصدقٍ ليس عمّا يريد تحقيق لإسعادِ فردٍ آخر فحسب بل إسعاد البشرية.

فكم من إنسان وضع نصب عينيه سعادة فرد واحد لكن ما قام بعمله لذلك الفرد أسعد العالم بأسره.

أذكرُ قصيدةً إنجليزية عنوانها (Smiling is infectious) تشبّه الإبتسامة كالعدوى حيث تنتقل الإبتسامة من وجه لآخر كما تنتقل العدوى، تقول القصيدة:

الإبتسامة عدوى

تصيبك كالإنفلونزا

حين ابتسمَ أحدهم في وجهي هذا اليوم

بدأت بالإبتسامِ كذلك.

مضيت نحو الزاوية

وهناك رأى أحدهم ابتسامتي العريضة

وحين ابتسمَ أدركتُ أنني نقلتها إليه..!

فكرتُ في تلك الإبتسامة ثم أدركت أنها تستحق.

إبتسامةٌ على وجهي يمكن لها أن تسافر حول العالم

لهذا حين تشعرُ بابتسامةٍ قد بدأت ترتسمُ على وجهك دعها تظهر

لنبدأ هذا الوباء سريعاً

كي يصاب العالم بالعدوى[1]

وليس غريباً بالطّبع أن يكون للإبتسامةِ في الإسلامِ مكافأة واصفاً إيّاها كالصدقةِ يتصدق بها الإنسانُ على غيره، آلا ما أعظم هذا الدّين الذي وسّع في مفهومِ الصدقةِ كي لا تكون حِكراً على من يملكُ المال فقط.

يقول أحد العلماء:

«لا يكفي المال وحدة لتأليف القلوب ولا تكفي التنظيمات الاقتصادية والأوضاع المادية. لابد أن يشملها ويغلفها ذلك الروح الشفيف، المستمد من روح الله، ألا وهو الحب، الحب الذي يطلق البسمة من القلوب فينشرح لها الصدر وتنفرج القسمات فيلقي الإنسان أخاه بوجه طليق».

وهذا مأخوذٌ من جوهرِ الدِّين الإنساني الذي سعى لتوطيدِ الروابط بين النّاس عبر تآلف الجواهر، وشفافية المشاعر وصفاء السرائر، إذ يقول النبي صلى الله عليه

(١) الترجمة إلى العربية من قبل المؤلف.

وسلم: «لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق»[١]

إذاً فإسعادُ النّاس ليس بالمالِ وحده بل هناك ما هو أعمقُ أثراً، وأجدى نفعاً في ظرفٍ من الظروف، فربَّ إنسانٍ لا يحتاجُ إلى مال في لحظةِ كرب وإنّما يحتاجُ إلى كلمةٍ مواسية، وربّ آخر محتاجٌ إلى لمسةٍ حانية وآخر محتاجٌ إلى بشاشة وجه يضيءُ في قلبه مناطق مظلمةٍ كما يفعل المصباح، إننا حين نقابلُ من نرى في وجهه الغلاظة والتجهم فإن إحساساً بالنفورِ منه يسري في قلوبنا وهذا أمرٌ نفسيٌّ طبيعي بيّنه الخالقُ عزّ وجل لنبيّه الكريم قائلاً:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾[٢].

أمّا حين يقابلنا طلقُ الوجه، منشرحُ القسمات، يتهلل بشاشةً، ويفترُّ تبسُّماً فإننا نقابله بالإرتياحِ والتقبُّلِ والإطمئنانِ وهذا أيضاً أمرٌ نفسي طبيعي، يقول الشاعر إيليا أبوماضي في قصيدةٍ بعنوان ابتسم قال:

اللّيالي جرّعتني علقما..
قلت: ابتسم و لئن جرعت العلقما
فلعلّ غيرك إن رآك مرنّما
طرح الكآبة جانبا و ترنّما
أتراك تغنّم بالتّبرّم درهما
أم أنت تخسر بالبشاشة مغنما؟
يا صاح، لا خطر على شفتيك أن
تتثلّما، و الوجه أن يتحطّما

(١) رواه الحاكم والبيهقي في شعب الإيمان.
(٢) سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

فاضحك فإنّ الشهب تضحك والدجى

متلاطم، و لذا يحبّ الأنجما

المبادر الذي يُسعد الآخرين إنّما هو كالمصباحِ الذي يُنيرُ الدروب ويمنحُ البشرَ شعوراً بالأمانِ.

هي تجلّياتٌ نفسيّة لا تحتاجُ إلاّ إلى تعديل النظرة الداخلية في النفس تجاه الوجود، وتصحيحها تجاه الناس، وتصويبها نحو الغايات، وهذا يتطلب مثابرةٌ وتعويد ومِران فـ «العلم بالتعلّم والحلم بالتحلّم والطبع بالتطبّع» وعلى هذا المنوال يأتي الإبتسام بالتّبسم.

هنا نتحدّث عن إسعاد الآخرين بلا ثمنٍ مدفوع، ولا فاتورةٍ مؤجلة الدّفع بل بفعل مجاني لكنّه الأقوى تأثيراً في النفوس، فالإنسان بلا شك يملكُ دائماً ما يسعد به الآخرين بطريقةٍ أو بأخرى يقول أبو الطيب المتنبي:

لا خيلَ عندي أُهديها ولا مالُ

فليسعف النطق إن لم يسعف الحالُ

إن لإنفاقِ المال سبيله إلى إسعاد النفوس لأنه ينقلها من حالةٍ ضنكٍ في العيشة إلى حالة سعةٍ ورحابة فالمالُ هو الذي يلبي الحاجات الأساسية للإنسان كالمأكل والمشرب والمسكن والملبس لهذا فلم يترك الناس على حالهم، ولم تُهمل المجتمعات الإنسانية كي تفعل بالمال ما تشاء فتجعله دولة بين الأغنياء أي ملكاً متداولاً بينهم خاصّة وإنّما فرض عليه الزكاة، وشجعّ فيه الصدقة ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾[1] وشبّه عدم الإنفاق كإلقاءِ النفس في التهلكة.

---

(١) الحشر: الآية ٧.

الشاهدُ أن المبادر يملكُ وسائلَ مختلفة لإسعادِ الآخرين تبدأ من الإبتسامة وطلاقة الوجه وبشاشته إلى المال الذي يقضي حوائجهم وينفّس كرباتهم، ويجلّي همومهم وبلا شك فإن من لا يسعد الناس لا بهذا ولا بذاك فهو من الأشقياء، فعن السيدة عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: تُقَبِّلُونَ الصِّبْيَانَ؟ فَمَا نُقَبِّلُهُمْ. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَوَأَمْلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللهُ مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ»[1].

(١) رواه البخاري.

مساعدة الآخرين على التغيير:

جميلٌ أن تنتشل إنساناً ما من الضياع فتعيده إلى جادّة الصواب... تعيده إلى الطريق المستقيم.. تعيده إلى الحياةِ مرّة أُخرى فكم من بيننا أحياءٌ ولكنهم أموات..!!

إن أعظم الفضائل...
هي تلك الأكثر نفعاً للآخرين.
أرسطو

أمواتٌ لأنهم لم يفتحوا بصائرهم على الحقائق بل يعيشوا لحظاتهم القصيره، ويشبِعوا مِتَعَهم المحدودة».

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾[1]

وكم من بيننا من لم يكتشف فضائل أو قدرات أو مواهب أودعها الله في نفسها، وأهداها له، أهدرها في ميادين لا جدوى من ورائها ولا نفع ولا كسب، فمضى به العمر دون أن يحقق له شيئاً من خير الله عليه، لم ينفع نفسه ولا أهله ولا مجتمعه بل عاش سبهللا[2] لا يُرجى منه تحقيق مصلحة، ولا إنجاز عمل.

وكم من بيننا من ضيّقت عليه الظروف الحياتية إجتماعياً أو اقتصاديا فلم يجد بحسب قدراته وتدبيرهمن طرائق تنقله من ضيقِ المعيشةِ إلى سعتها، ولم يجد من الحِيل ما يحتال به ليرتقي سلماً نحو ما ينفّس عليه الضوائق ويخفف عليه الأحمال يقول إبن الخياط العصر العباسي:

فَعَثْراً لِدَهْرٍ لا تَرى فِيهِ قَائِلاً
لعَاً، لفَتى زلَّتْ بِهِ القدمانِ

(١) سورة الحج: الآية ٤٦.
(٢) السبهلل: الرجل الفارغ.

فهـلْ أنـتَ مُـولٍ نِعْمـة ً فمُبـادِر
إليَّ وقـدْ ألقـى الـردى بجِـرانِ

جميـلٌ أن يسـاعد الإنسـان أحـد هـؤلاءِ وغيرهم مـن المحتاجين للمسـاعدة النفسـيةِ أو الماليـةِ بـل هي مقدّمـة في الدّين عن بعض الفـروض الكفائيـة ابتغاءً لمصلحةِ أمّـة وتلبيةً لحاجاتها.

وفي هـذا يـروي الشـيخ محمـد الغـزالي رحمـه الله حـوار دار بينـه وأحـد الذيـن يتهيئـون للحج بعد أن قضى فريضته في السـابق، فيقول الشـيخ: «ومن قبيل الاسـتهانة بالفروض الكفائيـة أن رجـلا رغـب أن يحـج نافلـة أظن ذلـك للمرة الثالثـة فقلت له: كـم تتكلف هـذه الحجـة؟ قرابـة ألـف جنيـه؟ قـال: نعـم و أكثر قلت لـه: أدلّـك على عمـل أفضل، إن فـلان تخرّج مـن كلية الصيدلـة، وهو فقير والمسـلمون فقراء إلى صيدليات إسـلامية، فضـع في يـد الشـاب المتخـرّج هـذا مبلغـاً يبـدأ بـه حيـاة تنفعـه وتنفـع أمته، ولـك عند الله ثـواب أكـبر من ثـواب حجّتـك هذهفنظر الرجـل إليّ في دهشـة وصـاح: أهذا كلام يقال؟

قلـت لـه: إنـك إن أطعتنـي أقمـت فريضة وسـددت ثغـرة، وشـاركت في جهـاد جليل الثمـرة بـدل هـذه النافلـة التـي تبغي.. قـال وهو لا يـزال في دهشـة: أدع الحـج! وأُعين على فتـح صيدليـة، ما هـذا؟»[1]

هـذه العقليـة لا تريـدُ نفـع الأمّـةِ لأنهـا تحسـبُ أن دفـع المـال لشـاب فقير سـوف يضع قدمـه عـلى طريق الغنى على حسـاب مـا جنوه مـن مبالغ لأجـل حجّة النفـل تلك، ولو أن الرجـل نظـر إلى أن سيسـاعدُ أمّـة وليس شـاباً وحسـب لاقتنـع بأولوية دفـع المال.. ومـا يدريـه لعلّـه حـين يدفـع المـال لذلك الشـاب الفقـير المتخـرّج حديثـاً مـن الجامعة ليفتـح صيدليـة سـيكون ممـن ينتفعـون بتلـك الصيدليـة يـوم يحتـاجُ إلى دواءٍ في سـاعةِ حاجةٍ ماسّـة؟!

(١) مشكلات في طريق الحياة الإسلامية-الشيخ/ محمد الغزالي.

أعجبني مشروع لطالبات جامعيات لتوعية الأحداثِ[1] في السجون كي يرتقوا بهم إلى مستوى الوعي بالحياة وبالواجبات المنوطة على الإنسان فيها، وأعجبني فيهن إصرارهن على مساعدة أولئك الأحداث بالرغم من فقدان الدّعم المادي لمشروعهن في بداياته..

لكنّ مشاريع الخير في نهاية المطاف لا بد وأن تجد الأيادي التي تمتد إليها نهاراً أو ليلاً لتدفع بها قُدماً.

وفي ديننا الحنيف تحفيزٌ عظيم لمن يساعد الآخرين على التغيير، يقول المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام «لئن يهدي الله بك رجلاً خيرٌ لك من حمر النِّعم» فهو إذن وصف للسعادة الداخلية التي ينالها الإنسان بمساعدة إنسانٍ آخر على التغيير أعظم من امتلاك ركائب من جمال أو خيول.

(١) الأحداث جمع الحدث وهو صغير السن.

قواعد جوهرية...
«استخلاصاً مما احتواه الكتاب

قاعدة (١) توكّل على الله حقّ التوكّل:

التوكّل على الله مناط المبادرة، إذ الإنسان المبادرُ لا يملك القدرة والقوة لتحقيق ما يسعى إليه دون رصيدٍ روحي زاخر، هذا الرصيدُ هو الإيمانُ بالله الذي ينير جنباته فيفتحُ له الطرائقَ، ويمهّدُ له السّبل، ويهوّنُ عليه صعائب الأمور، ويفتحُ عليه مغاليقَ الأبواب.

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «لو أنكم توكلون على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصا، وتروح بطانا»[1]، إذن فالإيمانُ بالله هو مبعثُ التوكُّل عليه، ودافعُ النجاحِ الذي يحققه الإنسان لأنه يدركُ وهو في مبادرته أن التوفيقَ بيد الله وإنما هو يأخذُ بالأسبابِ فما تحقق له فبإذن من الله وإحسانٍ ومنّة، وما لم يسعفه التوفيق لتحقيقه فتلكَ حكمة من الله لعلّ مردّها إلى نفسهِ أو إرادةٍ من الله لأمرٍ لا يعلمه .

قاعدة (٢) تحكّم في استجابتك:

نحنُ البشر معرّضون لمواقف مختلفة، وظروف متباينة، فما يكشف شخصية الإنسان، وما يبينُ خصائصه وأخلاقياته وطباعه هو ردة الفعل التي تبدرُ منه في ذلك الموقف أو الظرف لحظتها.

لا يحمّل الموقف الخطأ بل ردّة فعل الإنسان إزاء ذلك الموقف، لهذا يقال: «المرءُ مخبوءٌ تحت لسانه»

---

(١) أحمد، النسائي، ابن ماجه، الحاكم، وقال الترمذي حسن صحيح.

إذاً فالقاعدة هي: لا تدع الظرف الحادث، أو الموقف الناشيء هو الذي يتحكّم بك بل أنت الذي تتحكّم به حين تتبّدر الأمر، وتقلّبه في قلبك وعقلك، وتستشير فيه.

وما أعظم أن نستند إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾.[1]

فكم ذهب الذين لا يتحكّمون في استجاباتهم مذهب الحمق والطيش والرعونة والتهور فكانت النتيجة أنهم دفعوا أثماناً باهضة، لهذا قِيل:«مقتلُ المرءِ بين فكّيه».

قاعدة (٣) تحلّ بالمسؤولية ولا تكن إنفعالياً:

كثيرٌ من البشر يتهرّبون من المسؤولية وقيودها ونتائجها إن كانت وخيمة بل الأدهى أنّهم يلقون تبعاتها على الأبرياء..وليس هذا من المروءة بمكان كما أنه ليس من الإنسانية الراقية من محل لقد أرادنا الله سبحانه أن نتحمّل المسؤولية.

فقال سبحانه تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾[2]، وجعلنا خلفاء في الأرض فكيف تكون صورة الخليفة إن لم يتحمّل المسؤولية ويكون جديراً بحمل الأمانة التي أعرضت عنها الأرض والسموات والجبال.

لهذا تقول هذه القاعدة: كن جديراً بحمل مسؤوليتك إن كنتَ أباً أو أماً أو إبناً أو إبنة أو معلماً أو معلمة أو مسؤولاً أو مسؤولة.

لا تكن إنفعالياً لتدفع عن نفسك الضرر فلن يخذلك الله إن كنت من أهل الحق والصواب وتأكّد بأنك إن تهرّبت من المسؤولية وألقيتها على غيرها سيؤرقك ألمٌ طويل، وسقض مضجعك ندمٌ عميق.

في حين فإنك مهما حصل لك من أمرستشعر بالسعادة لو تحمّلت المسؤولية بكل شجاعة وجرأة.

---

(١) سورة فصلت: الآية ٣٤.

(٢) سورة الإنسان: الآية ٣.

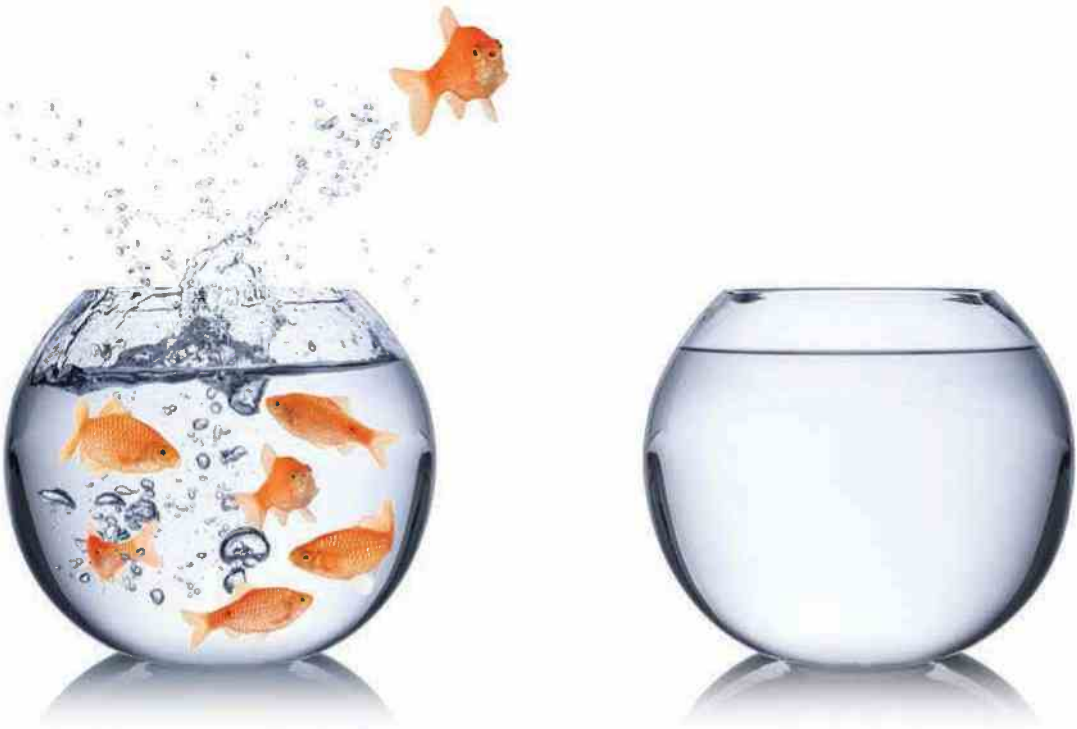

قاعدة (٤) ادفع السيئة بالحسنة:

كي تخطو قُدماً لتحقيق أهدافك التي تسعى لها وكي تنجزَ النجاحاتِ التي تطمحُ إليها فإنك بحاجة إلى أن تحرّر نفسك مما يعيق تقدّمك ويشوّش خاطرك، وينغِّصُ تفكيرك، ويقلقُ منامك، ويشغلُ هاجسك.

من هذه المعيقات تصميمك على الإنتقامِ لنفسكِ ممن أساءَ لك، والردِّ على من تنكّرَ لإحسانكَ بقبيحَ فعلٍ، أو ببذيءِ قولٍ، فإن قابلت إساءته بإساءة مماثلة كنتَ في مستوى خُلقه، وإن تجاوزت عنه وصفحت عن زلاته، وغفرت له إساءته ارتقيت درجةً وتوجّهت نفسك لما تسعى إليه من غاياتٍ عليا، وأهدافٍ كريمة، لا يشغلها شاغل، ولا يعرقلها معرقل يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾[1].

قاعدة (٥) خالق الناس بخلق حسن:

المبادر راقي الفكرِ، فاضل الأخلاق، لأنه لا يمكنُ لإنسانٍ أن يحقق النجاحَ الأصيل بدون خُلق فهي أساس، والبناءُ إن لم يُقم على أُسسٍ مكينةٍ، وأركانٍ متينةٍ انهار. يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ، وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا، يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَحَاسِنَكُمْ أَخْلاَقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ، وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا، يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الثَّرْثَارُونَ، وَالْمُتَشَدِّقُونَ، وَالْمُتَفَيْهِقُونَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، قَدْ عَلِمْنَا الثَّرْثَارُونَ، وَالْمُتَشَدِّقُونَ، فَمَا الْمُتَفَيْهِقُونَ؟ قَالَ: الْمُتَكَبِّرُونَ»[2].

الأخلاقُ هي معقلُ كل نجاحٍ، وجرثومة[3] كل مبادرة.

---

(١) سورة فصلت: الآية ٣٤.

(٢) أخرجه التِّرمِذي (٢٠١٨) الألباني في (السلسلة الصحيحة) ٢/ ٤٣٤.

(٣) الجرثومة: أصل الشيء.

يقول الشاعر:

كل الأمـور تـزول عنـك وتنقـضي إلا الثنـاء فإنـه لـك باقـي
ولـو أنني خـيرت كل فضيلة مـا اخترت غير مـكارم الأخلاق

لهـذا أجعلهـا منهجاً لا تحيـدُ عنه طريقاً، وسـلوكاً لا تـرضى عنه صديقا تكـن من أنجح النـاسِ إذ مـا أزهـاكَ وأبهـاك حـين تكـون رجلَ أعـمالٍ ناجـحٍ وأنـت ترفـل بالأخلاقِ المرموقـةِ، والشـمائل العليّة.

قاعدة (٦) لا تنتظر الفرص واسع لها:

كثـيرٌ مـن النـاس ضيّـع عمـره في انتظار الفـرصِ فلم تأتـهِ، أو جاءتـه على حينِ غـرّةٍ ولم يكـن مسـتعداً لها ففوتهـا، ومضـت دون رجعة..!

إن الإنسان المبادر هو الذي يسعى للفرصة، ألآ يقال: «إن خير وسيلةٍ للدفاعِ الهجوم» فالسـعي بحثـاً عـن الفرصِ السـانحة هو أجدى للإنسـانِ مـن انتظار الفـرص التي تأتي مـع الريـح أو لا تـأتي ففي ذلك اسـتغلال للطاقات والمـوارد والأوقات.

في كل شيءٍ كـن أنـت البادىء، أنـت المباغت لا تعمـل وفق ردّة الفعلِ فقـط. لقد كانت مـن خصائـص صقـر قريـش عبدالرحمـن الداخـل الحاكم الأمـوي الـذي أقـامَ دولةً في الأندلـسِ بالمبـادأةِ والمباغتـة لخصمـه حتـى يعييـهِ فلا يـدري مـاذا يفعل، لهـذا انتصر في حـروب كثـيرةٍ.. كان متيقظـاً، منتبهاً.. ولهذا كلّـما ابتدأتَ في كل أمـرٍ أكان إصلاحُ ذات بـينٍ، مسـامحةِ صديـقٍ أسـاء لـك، صلةَ أرحـامٍ قطعـوك، صفقـة تجاريـةٍ حـاضرة، كلّما دفعـت نفسـك إلى مراقـي النجاح، ومصـاف المجد.

قاعدة (٧) إفهم جيداً معاني الفشل والنجاح:

الفشـل ليـس الإخفـاق في التجربـة إنما هو السـقوط وعـدم القـدرة على النهـوض ثانية وثالثـة ورابعـة، والنجـاح ليس هـو الوصـول إلى نقطةٍ ما بل هـو الإسـتمرار في العمل.

لا تكـن ممـن يحسـبون الفشـل سـقوطُ الحفـرِ، أو ضيـاع الهمّـةِ، إنّـما الفشـلُ هـو الوهنُ

والضعف واليأسُ الذي ينتاب الإنسان من جرّاء عدم وصوله لتحقيق هدفه.

في حين فإن النجاح ليس أن تحقق هدفك وتكتفي بل تواصل العمل طالما حييت فاستمرارك هو تحقيق مستمر للنجاح، وانجازٌ دائم للإنتصار لهذا يقال «ليس أفشل من النجاحِ» وهو ما يعني أنك في اللحظة التي تستكفي فيها بتحقيق هدفٍ تسعى له وتعتبرُ نفسك ناجحاً فقد فشلت.

النجاحُ هو أن تواصل العمل دون مللٍ أو كلل.

لا تكن سلبياً فتنظر إلى نفسك بعد كل تجربةٍ لم تصل فيها إلى ما طمحُ إليه بأنك إنسان فاشل، لست فاشلاً أبداً طالماً كنت تحاول، كل تجربةٍ تحسبهافاشلةإنّما تقرّبك في الحقيقة من النجاح.

سأل أحد رجال الأعمال الأثرياء: ما سر نجاحك؟ قال: كلمتين، قرارات ناجحة.

قيل: كيف توصلت إلى القرارات الناجحة؟

قال: بكلمتين، قرارات فاشلة.

يقول بوب ديلان Bob Dylan: «لا نجاح كالفشل There›s no success like failure» بمعنى أن النجاح يكمن في المحاولات وإن لم تنتجح.

ويقول توماس أديسون Thomas Edison مخترع المصباح: «أن عشرة آلاف تجربةٍ فاشلة تفوق ثمن نجاحٍ واحد».

لهذا تأكد أن ما تعتبره فشلاً ليس له وجود فهو في النهاية تجربة فتحت لك الباب لتتعلم درساً، أو تصيدَ فرصةً أخرى.

أعجبتني عبارة قالها أحد رجال الأعمال الأثرياء يُدعى Vineet Nayar: «كلّ فشلٍ في حياتي أو في مؤسستي كان دافعاً عظيماً لنجاحي»

إذن فالسرّ هو في تحويلك لما تحسبه (فشلاً) إلى أن يكون دافعاً عظيماً للنجاح.

قاعدة (٨) حول المشكلة إلى فرصة تستثمرها:

ما ضيّع الكثير من الناس سوى تبرّمهم الدائم، وشكواهم المستمر، لهذا فالفرق بين الناجح والفاشل أن الأخير ينظر دائماً إلى المشكلات وينقّبُ عنها، ويعظّمها وإن كانت نقطةً سوداءَ دقيقة لا تكاد تبين في مساحةٍ شاسعةٍ من البياض.

أمّا الأول فيسعى لكي يحوّل المشكلة إلى فرصةٍ يستثمرها استثماراً يعود عليه وعلى غيرِهِ بالنفعِ والفائدة.

فإن حدثت مشكلةٌ أقلقت الفاشلَ وأصابته بالهمّ واقعدته عن البحث عن حلّ، بينما ينبري لها الناجح صاحبُ الفكر المشرق، والعقلِ النبيه، والنفس الوثّابة فيبحثُ على الفورِ عن حلّ ويحوّلها إلى فرصة فكن أنت هذا الناجح الذي لا يشتكي بل يفكر سريعاً كيف يمكن أن يستفيد من هذه المشكلة.

قاعدة (٩) تخلص من الأفكار العقيمة التي تعيق تقدمك:

ما أعاق الناس شيءٌ من الماديات كمثل ما تعيقهم الأفكار العقيمة السقيمة التي عشّشت في عقولهم، وأعاقتها عن العمل، أفكار بليدة تأتي من محبطين يصوّرون النور ظلاماً، والطريق المستقيم معوجّاً، والسهل صعباً، وأفكار ورثتها أو نشأت في عقلك منذ صغرك جعلت منك صاحب همّة خاوية، وإرادة ضعيفة.. كل هذه مجرّد معوّقات إن استجبت لها فلن تقطعَ طريقاً، ولن تحقق هدفاً..

املأ عقلك بالأفكار السليمة، المحفّزة التي تستفزُّ قواكَ للعمل، وهممك للنشاط، ومواهبكَ للظهور، كن صاحب إرادةٍ خلاّقةٍ، ولا تلقِ بالاً للأصوات المحبطةِ، فما نجح من أولاها سمعاً، ولا فازَ من أخافته بعواءها.

قاعدة (١٠) كن صاحب إرادة قوية، وإقدام وجراءةٍ في التنفيذ:

الإرادة وحدها لا تكفي، تصميمك الأكيد لعملٍ من الأعمال لا يكفي فكم من إرادةٍ طالت عليها الأيام فوهنت، وكم من تصميمٍ مرّت عليه الساعات الطوال فوَهَى،

إنّما الإقدامُ على العمل سريعاً، والجرأة على اتخاذ القرار للتنفيذ وبلورتها على أرض الواقع.

يقول (Victor Hugo فيكتور هوجو): «لا يستطيعُ جيشٌ أن يصمدَ أمام قوةَ فكرةٍ آن أوانها»[١].

قاعدة (١١) حدد قدراتك، مواهبك، مواردك:

لا يمكنُ لك أن تقطعَ صحراءَ دون عدّة، أو تخوضَ معركةً دون عتاد، أو تمضي في طريقٍ دون مؤونة ودليل، أو تسري في ظلامٍ دون نور. لهذا فلا يمكنُ لك أن تكون مبادراً حقيقاً وأنت مندفع لاقتناص الفرص دون استعداد ودون معرفة قدراتك فكم أضاع الناس من فرصة ليس بسبب الإقدام بل بعدم تقدير الإمكانات والقدرات والموارد.. هل يمكنك أن تعتدَّ بقوتك العضلية لتقطع محيطاً من المحيطات سباحة؟!

هل يمكنك أن تصبر تعتمد على جرأتك في قطعِ صحراءٍ دون مِرانٍ أو ماء؟ هل يمكنك أن تقدم على عقودٍ واتفاقيات دون تفكير وتخطيط؟!

إن تقديرك لما تتميّزُ به من قدراتٍ مهم وليس القدرات كلّها مادية بل هناك من القدرات الذهنية أو النفسية ما أفادت بعض الناجحين فاستفادوا منها حيث عرفوا كيف يستخدموها فحدد قدراتك ومواهبك التي حباك بها الخالق المُلهم واستخدمها بقدرِ ما تستطيع دون تهوّرٍ واندفاعٍ بل بتعقلٍ واقتناع.

قاعدة (١٢) لا تقارن نفسك بالآخرين:

إن من أعظم الأخطاء التي يقعُ فيها الإنسان فتثني عزمه، وتضعف إرادته، وتشوّشُ ذهنه هي المقارنات التي يعقدها بينه وبين الآخرين، وما أكثر ما يرى نفسه دونهم منزلةً، وأقلّهم شأنا..وهذا يدلُّ على قلّة التقدير للنفسِ، وازداءها وهوانها.

فلا يرى المقارن نفسه إلاّ صغيراً في كل شيء بينما يمتلكُ من الأفضليةِ والمنزلةِ

(١) No army can withstand the strength of an idea whose time has come.

والمواهب والقدرات ما لا يمتلكه الآخرون وإلاّ فإن الخلق سيكونون نسخةً واحدةً لا يتفاوتون في شيء، لهذا فإن المبادرَ الأصيل هو الذي لا يلتفتُ للمقارنات وإنّما يضع لنفسه قدوات عظيمة في التاريخ يعمل من أجل أن يصلَ إلى مستوياتها الرفيعة علماً وسلوكاً وخُلقاً حتى يصلَ إلى ما يصل إليه من العلم والسلوك الحسن والخلق الفاضل.

قاعدة (١٣) ركّز على إصلاحِ عيوبك:

لا يمكنُ لأي إنسان أن يتصف بصفة المبادر وهو منشغلٌ بتقصي عيوب الآخرين، في حين لا يرى عيوب نفسه، وهذا يعاني من خلل في نفسه يقول الرسول الله صلى الله عليه وسلم: «يبصر أحدكم القذى في عين أخيه وينسى الجذع في عينه»[1]، لهذا دع عنك عيوب الآخرين وانشغل بإصلاح عيوبك كي تمضي قُدماً لا يشغلك شاغل عن تحقيق أهدافك إلا إصلاح نفسك، فإن فعلت كنت أطيب الناس راحةً، وأسعدهم ضميراً، وأحدّهم رؤية.

قاعدة (١٤) الإعتراف بالحق فضيلة:

كل إنسان يخطيء فلا أحد معصومٌ عن الخطأ إلا من رحم الله، لهذا فإن الإعتراف بالخطأ يرفعك منزلةً، ويزيدك قدراً في نفسك وعند الآخرين لأنك باعترافك الخطأ إنّما تعبّر عن صدقك مع نفسك، وعدم مخادعتك لها وللآخرين، وعن تقديرك لها. لهذا لا تتردد في الإعتراف بالخطأ ففي ذلك رفعةٌ، وصدقٌ وأمانة، فأنت حين تفعل ذلك تصبحُ إنساناً واقعياً تواجه الواقع بمزاياه وأخطاءه.

قاعدة (١٥) ألقِ عن رأسك التوافه:

لا يمكنُ أن تكون مبادراً وأنت تولي جلّ اهتمامك لصغائر الأمورِ وتوافه الأحداث

---

(١) أخرجه ابن حيان وصححه الألباني.

والأقوال، فكم من صاحبِ إرادةٍ مكينةٍ أعاقته هذه الصغائر بانشغاله بها، وتفكيره فيها، وهي توافه لو نظر لها من علوّ مرتفع لزهدها وسخرَ من نفسه المهمومةِ، المكلومةِ بها.

لهذا إن أردت أن تصل إلى هدفك الواضح، وغايتك الصريحة، فلا تنشغل بالتوافه، ولا تلتفت للصغائر وامضِ إلى حيث تريد قوي الشكيمة، شديد البأس.

قاعدة (١٦) وقتك من أثمنِ الذخائر لديك:

المبادرة لا تعني الإقدام والجرأة والبأس فحسب بل وإدراك ما عندك من الذخائر، وما تملك من الموارد يأتي الوقت ضمن أهمها.

ذلك لأن كل دقيقة تمرّ على الإنسان تنقصُ من عمره، فإذا نقص العمرُ أثّر على الهدف الذي تصبو إلى تحقيقه.

لهذا فإن كنت تريد أن تكون مبادراً حقيقاً فلا بد لك أن تدرك قيمة الوقت، وإدراك قيمته لا يعني التغني والتشدّق بالحكم والأشعار والمأثورات عنه بل باستغلاله عملياً حتى تصبح كل خطواتك ملموسة، فلا يصبح عليك اليوم التالي إلا وأنت في موضعٍ متقدم، ولا يمسي عليك الليل إلا وأنت قد قطعت ما يشيع في قلبك الإبتهاجَ والرضا بالإنجاز.

الوقت في ذاته عاملٌ حيادي لا يفيدك بشيء دون أن تملأه بالعمل، قال عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه: «ما ندمتُ على شيء ندمي على يومٍ غربت شمسه، نقص فيه أجلي ولم يزدد فيه عملي»

قاعدة (١٧) عش التفاؤل واجعله عنوانك:

كما لا يمكنُ للساري في الظلام أن يمضي دون هادي ولا بصير، فإن المبادر لا يمكنُ له أن يبادرَ دون أن يكون متفائلاً في سيره نحو تحقيق أهدافه، فالتفاؤل هو الزيت الذي يشعل الحياةَ، ويملؤها بريقاً أخّاذاً ويحبب إلى النفسِ المغامرةَ والإقدام نحو

فتحٍ جديدٍ، وإنجازٍ فريد.

عليك إذن أن تجعل التفاؤل ينضحُ من عينيك قادماً شعاعه من أعماق قلبك المستنير بالثقةِ بأنك ستحقق الهدف المنشود، وتصل إلى المرمى المقصود.

قاعدة (١٨) قسّم أهدافكَ إلى خطواتٍ صغيرة:

يستصعبُ الكثير من الناس كبار الأهدافِ، لأنهم يرونها كالجبال الشامخةِ فترتدُّ أبصارهم بائسةً إلى قلوبهم، ويستكثرون المدى الطويل في الطريقِ فتخورُ أقدامهم، وتخبو عزائمهم، لكنّهم لو قسّموها مبادراتهم إلى خطوات وإن كانت صغيرة فإنها توصلهم إلى المبتغى والغاية مع مرور الأيام، ومضيِّ الأعوام.

ألا يحصلُ الدارسُ على الشهادةِ بعد أن يكونَ قد خاضَ العلمَ درساً درساً وحصّةً حصّة وامتحاناً امتحاناً حتى أوصلتهُ كلها إلى اليومِ المشهودِ الذي تُوّجَ فيه بالنجاحِ، ووشُّحَ فيه بأكاليلِ الظّفرِ والفوز.

لهذا فإن الخطوات الصغيرة وإن زهدها المبادر هي طريقه إلى الإنجاز الكبير، يقول الفيلسوف الصيني لاو تسو Lao Tzu: «إفعل الأشياء الصعبة حين تكون سهلة، وافعل الأشياء الكبيرة حين تكون صغيرة فطريقُ الألفِ ميل يبدأ بخطوة واحدة».

قاعدة (١٩) العفو والمسامحة طريق الرقي:

يقول أحد المبادرين الذين لا يشغلون أنفسهم بالتوافه «لا وقت لديّ للكراهية» فهو إنسانٌ مشغولٌ بأمورٍ أعظم وهي خدمة الإنسانية واستثمار الوقت لما يحقق النفع والخير للبشرية وليس مخاصمة هذا ومعاتبة ذاك، وشحن القلبِ بالضغائن، والصدرِ بالأحقاد..

هذه أثقالٌ لا تستطيع نفس المبادر أن تحملها وهي ترمي إلى تحقيق أهدافها في الحياةِ بل عليها أن تتخفف منها. المبادرُ إنسانٌ في طبيعته مسامحٌ لأنه لا يريدُ أن يثقل نفسه بأحمالٍ تبطيءُ من حركته، وتوهنُ من عزيمته، فعليك أن تسامحَ من ظلمكَ، وتعفو

عمـن أسـاء إليـكَ فتجدُ نفسـك وأن تنهبُ الأرض نهبـاً، خفيف الروحِ، كالريشـةِ تطير لا ينغصـك هـم، ولا تثقل كاهلـك ضغينةً لأحد.

قاعدة (٢٠) اخطو على بصيرة:

وأعنـي بهـذا أن تكـون مخططـاً جيـداً لمبادرتـك، تعـي جيـداً الطريـق الـذي تسـيرُ فيه، تحسـبُ حسـابات الربحِ والخسـارةِ، وتتصور أفضل النتائج وأسـوئها، وتلـمُّ بالظروف المحيطـة بـك، وتـدرك حجـم التحديـات والفـرص. في علـم الأعـمال هناك ما يسـمى «تحليـل سـوات SWAT Analysis» وهـي اختصـارات لأوجـه الفكرة:

القـوة strengthen، الضعـف weakness الفـرص oppertunities، التحديـات threats.

هـذه أوجـهٌ لابـد لـكل مبـادر صاحـب فكـرة أن يدركهـا حتى يخطـو على بصـيرة، فلا يـترك أمـره للصـدف، ولا يركـن إلى الحـظّ، ولا يعـوّل عـلى الأمنيات.

الإنسان مطالبٌ بأن يأخذ بالأسباب «إعقلها وتوكّل» أي أن يرتبط بالأسباب.

لهذا كن إنسـاناً عملياً، بصيراً في مبادرتك، واضحاً في مشـاريعك، قوياً في استنتاجاتك، متمكنـاً في تخطيطاتك عندها تظفرُ بالنجاح.

لا تكـن مجـرّد حـالم رومانسـي يحلـم دون عمـل.. وكـم لي أن أكـرر لـكلّ حـالم وهـا أنا أكـرر مقولتـي لـك.. «الأحـلامُ لا تتحقـق بالـكلام بـل بالأفعـال» فكـن إنسـاناً عملياً تصـبّ أحلامـك في قوالـب عمليـة تراهـا ماثلـةً للعيـان أمامك.

قاعدة (٢١) تعاون مع الآخرين:

التعـاون مـع الآخريـن طريـقٌ يقـودك للمجـدِ الحقيقـي، فـلا ينجـحُ الأنـانيُّ في مطلبِهِ، ولا صاحـبُ المصلحـةِ الشـخصية في مسـعاه، لأنهـما أرادا الحصـول على المكاسـب على حسـاب الآخريـن وهـذا هـو الطمـع والجشـع الـذي يمقـتُ الإنسـان بسـببه، ويشـوّه سـمعته بـين النـاس فينفـرون منـه ولا يقدمـون عـلى التعامـل معه.

لهـذا كلّـما تحررت مـن الأنانية، وتخليت عـن الفردية الجشـعة فأنت مبادرٌ عظيـم إذ أنت واحدٌ مـن صنّاع التاريخِ للإنسـانية، ومحققي المجـدَ للبشرية.

هل تصوّرت يوماً أن إنساناً لا يستغني عن آخر في حياته؟!

الـكل يحتـاجُ إلى الكل، هـذه نظرية الحيـاة الإجتماعية، وهذه أُسـس القواعد الإنسـانية، لهـذا فـإن أردت أن تكـون مبـادراً أصيـلاً فكـن صاحـبَ نفسٍ تفكّـرُ في الآخريـن، وتتعـاونُ معهم وتـرى الربح في علاقاتهم، والخسران في فقدانهم، والنجـاح الحقيقي في التعـاون معهـم ومؤازرتهم.

كـما أنـك بالتعـاون مـع الآخريـن إنّـما تبنـي سـمعتك الذاتيـة، يقـول أنطـوني دانجيلو "اِبـنِ سـمعتك عـن طريق مسـاعدة الآخرين على بناء سـمعتهم" لهـذا تولّد لـك دافعية التعـاون سـمعةً ذاتيـة تمهِّـدُ لك مذاهـبَ وطرائـقَ للنجاح.

قاعدة (٢٢) كن مبادراً مبدعاً:

المبـادر المبـدع هـو الـذي لا يقلّـدُ الآخريـن في أفكارهم وإنّـما ينتـجُ أفـكاراً، أو يضيف إلى أفـكار الآخريـن بـما يسـمى في عـالم المـال والأعـمال بـ «القيمـة المضافـة value added» لهـذا كـم مـن إضافات بسـيطةٍ كان لها مـردوداً ماليـاً عظيماً لم ينتبه لهـا أصحابها الأصليـون حتـى تلقّفهـا مـن يضيـف إليهـا «قيمـة مضافـةً» غايـةً في البسـاطة كذلـك الـذي أضـاف الإعـلان التجاري في ظهـر التذاكـرِ حين كانـت أوراقاً مطبوعـة فحصلَ عـلى عائـدٍ كبـير.. الإبـداعُ لا يعنـي الأفـكار المعقّدة وإنـما هو أقـرب إلى العـالم الواقعي الـذي يضيـفُ شـيئاً إلى مسـتلزمات النـاس بحيث يسـهّل من قضـاء حوائجهـم ويرفع مـن مسـتوى الرفاهيـة في حياتهم.

لهـذا إجعـل الأفـكار المبدعـة أساسـاً تنطلـق منـه مبادراتـك الخلاّقة، تنـل مـا تأمله من أهـداف، وتصـل إلى غاياتـك الجليلة.

قاعدة (٢٣) كن مبادراً عتيداً ومرناً:

ليس تضاداً أن تكون عتيداً وفي الوقت ذاته مرناً..! فالعتيدُ هو الصلبُ المهيّأ للشدائدِ والمرنُ هو الذي إن واجهته معضلة في طريقه يبحثُ على الفور عن طرق بديلة، أو حلول أمثل.

تصوّر أن شخصاً واجهته صخرةٌ هائلةُ الحجم في طريقه فأضاع الوقت كي يزيحها لأنه عتيد ولم يكن مرناً، إنه يضيّع وقته ويبدِّد طاقته، بينما لو اتصف بالمرونة لفكّر في أن صخرةً كهذه من الصعبِ عليه واقعياً أن يزيحها من طريقه لكن عليه أن يبحث عن طريقٍ آخر وإن كان طريقاً متعرجاً لكنه يقودك في نهاية الأمر إلى مقصدك.

المهم أن لا تتنصل عن المسؤولية، ولا تتخلى عن مطمحك بل ابحث في كل السبل، إطرق كل الأبواب، قلّب كل الإحتمالات، جرّب كل الحلول التي تخطرُ في ذهنك وتأكّد بأنك ستصلُ إلى حل في نهاية الأمر طالما كنت عتيداً ومرناً.

قاعدة (٢٤) اعمل بحزم ولكن بصمت:

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود»[1]، لهذا فإن العمل الصموت هو أنفعُ لك من المَرحِ الذي لا يفضي إلى شيء، فالعربة الفارغة هي التي تصدر جلبةً عالية أما العربة الممتلئة فتلك التي لا تسمع لها صوتاً، لكي تكون مبادراً فاعلاً فاجعل عملك هو الذي يتحدث عنك في أوانه، ولا تجعل لسانك هو المثرثر دون أن يكون عملك شاهداً عليك.

فالإنسان في النهاية يقيّم بعمله الماثل للعيانِ لا بلسانه طَلِقُ العنان.

قاعدة (٢٥) اصنع الفرص:

لكي تكون مبادراً لابد لكَ من أن تبحثَ عن الفُرص لأنها نادراً ما تأتيك إلى

---

(١) رواه الطبراني من حديث معاذ بن جبل، وعلي بن أبي طالب وابن عباس وأبي هريرة وأبي بردة.

مكا نك

اصنع الفرص بالبحث عنها، والبحثُ لا يعني الجري هنا وهناك فحسب، بل أيضاً إعمالُ الفكرِ في قدراتك وقدرات الآخرين، ومواردك ومواردهم والفرص المتاحة في الخارج، ودراسة الإحتياجات وإكمال النقائص، فكم من فكرة صغيرة جداً أضافت الكثير وعادت بالمال الوفير.

لهذا اجعل ذهنك متوقداً بشكل مستمر، واصغ لكلّ كلمة يقولها لك إنسان، لا تسخر منها، ولا تزهدها بل تمعن فيها، وإن كان على سبيل الهزل

تفكّر فيها مليّاً فقد تفتح لك طريقاً لم تتصوره من قبل، حينما تقرأ تمعّن في كل كلمة، تدبّر في تجارب المبادرين، استفد من أفكارهم ومبادراتهم وتعلّم كيف استطاعوا أن يصنعوا الفرص.

لقد قرأت عن المليونير السير ريتشارد برانسون Richard Branson أنه لما أراد شراء جزيرة Nicker عرضت عليه بثلاثة ملايين جنيه استرليني، فعرض المال الذي كان يملكه آنذاك وهو مائة وثمانون ألف جنيه.. فانظر إلى الفرق الشاسع بينهم: مليونين ومائتي ألف جنيه استرليني، لكنك ستدهش أن المليونير اشتراها فيما بعد بنفس المبلغ الذي عرضه على الشركة الوسيطة لأنه بحث عن صاحب الجزيرة وعرف عن حاجته الشديدة للمال وكانت في حدود نفس المبلغ الذي عرضه.. وها هي الآن الجزيرة مما يفتخرُ به صاحب مجموعة شركات الفرجين Virgin Group.

قاعدة (٢٦) لا تستلم أبداً واقلب تصوّراتك:

لا تكن كبعض الناسِ الذين يقولون لأنفسهم حين لا يجدون تجاوباً من أحدٍ نحو منتجٍ عرضوه، أو فرصةٍ أرادوا استغلالها فلم يجدوا تعاوناً من أحد.

(حظي سيء... هذا الإنسان غير متجاوب معي... الفكرة غير مقبولة... أنا إنسان لا أصلحُ لهذا...)

هـذه العبـارات وما شـابهها تُغلق عليـك أبواب المبـادرة، إنّما الصحيحُ هـو أن من النادر لفكـرة أن تُقبـل لأول وهلـة، أما أغلبُ الأفـكار والمبـادرات فتحتـاج إلى تعديل وتغيير وإضافـة وتحسـين حتى تصبـح مقبولةً عند جهـةٍ معينة أو فـردٍ بعينه.

إفعـل مثلـما يفعـل Peter Johns مؤلـف كتـاب «The Tycon المليونـير» إذ كلّـما رفض أحـد عرضـه لمنتـج أو خدمة الـذي يقدّمه لا يستسـلم ولكن يقول في نفسـه: سـيربطني تعـاون معهـم في يوم من الأيـام. بعدها يسـألهم عن الإضافـات التي يريدونهـا في المنتج أو الخدمـة فيواصـل عمـل الإضافـات حتـى تصبـح في مسـتوى توقعاتهـم ورضاهـم وعندهـا يتم التعـاون بالفعـل معه.

كـن إذاً صاحـبَ عزيمـةٍ لا تخـور، وهمّـةٍ لا تخبـو، وتصميـم أكيـد فالمبـادرة التـي تحملُ فكـرةً جديـدة ينظـرُ إليهـا البعـضُ بتوجّـس، وينكرها آخـرون، ويسـفهها غيرهم لكن إيمانـك العميـق بالفكـرة، وتأثيرهـا الإيجـابي ومنفعتهـا للنـاس هـو الـذي يجعلـك لا تستسـلم ولا تصـف مبادرتك بالفاشـل فهـي في نهاية الأمـر وإن لم تظهـر في النور تجربة تعلمـت منهـا شـيئاً يضيـف إليك.

قاعدة (٢٧) اقبل النصيحة:

مـن كان صلبـاً، عتي المـراس، عنيدَ الـرأي لا يمكـنُ أن يكون مبـادراً ناجحـاً، لهذا فإن النصيحـة حـين تأتيك من إنسـانٍ يودُّ لـك النفع والخـير لا يمكنك تجاهلهـا بحجّة أنت أدرى بـما تفعل.

تسـمع عـن المثـل القائل: «خـذ الحكمة ولو مـن أفواه المجانـين» فكيف إذا سـمعت من عاقـلٍ نصيحـة خالصـة لا تنطلقُ من مصلحةٍ أو حسـد، يقول الشـاعر:

لا تحقرنَّ الرأي وهو موافقٌ

حكمَ الصواب إذا أتى من ناقصِ

فالدرُّ وهو أعزُّ شيءٍ يقتنى

ما حطَّ قيمته هوان الغائص

المبادر رحب الصدرِ، حليم الخاطر لكنه في الوقت نفسه صاحب تصميم وحزم وإرادة في وجه كل حسودٍ يصبّ حسده في كأسٍ شفافةٍ برّاقةٍ من النصيحة حتى ليحسبه الشارب حليباً صافياً فإن هو السم الزعاف.

استشر من تثق به، واسع إلى أصحاب الخبرات والتجارب تنل منهم ما يضيف إليك ويحسّن من مبادراتك ويحفّز من نفسك، ويقوي من عزيمتك.

قاعدة (٢٨) لا تصاحب ولا تستمع للمحبطين:

إن من بعض الأصدقاءِ والأصحابِ من يحبّط المبادرين، ويسعى إلى تحطيم إراداتهم، وإضعاف هممهم، بتصويره الدائم لهم العراقيل والصعوبات والمعضلات التي سيواجهونها في طريقهم..

هؤلاء ينظرون إلى جانبٍ واحدٍ هو الجانب المظلم فقط الذي يعكسُ نظرتهم للحياة، وحقدهم على المبادرين.. ولو كانوا صادقين وأمناء لنظروا إلى الفرص والإمكانيات، قبل التحديات، ولكشفوا الإيجابيات قبل السلبيات، ولكنهم أرادوا على الفور أن يطفئوا الشعلة التي رأوها فيك كي لا يكون لك شأن فلا تسمع له ولا تُعر لهم اهتمام،

أقول:

تجاهلتُ السَّفاهةَ من جَهولِ
وأنكرتُ الملامةَ من عذولِ
فمن كانت مطامحُهُ المعالي
فلا يصغي إلى المرءِ الضَلولِ[1]

إبحث عن الصديق المحفّز الأمين في نصيحته، المنصف في نظرته، العميق في رؤيته،

(١) الأبيات من تأليف الكاتب.

الواضح في حجّته، الواثق في فكرته ولا تصاحب من يريدُ منك أن لا تغادرَ مكانك إلى مكانٍ أفضل فذلك من البليدُ الخامل، والحاسدُ الجاهل الذي يريدك أن تظل في المستنقعِ لا تغادره.

قاعدة (٢٩) غيّر نفسك كل لحظة فالتغيير سنّة الحياة:

يقول الفيلسوف الإغريقي هرقليطس: «لا شيء ثابت سوى التغيير» أي أن التغيير هو السنّة المؤكدة للحياة، فكيف يمكنُ لك أن لا تتغير كلّ يومٍ بل كل ساعة بل كل دقيقة؟!

التغيير هو الإضافة ولا يعني بالضرورة تقلّب الأهواءِ والأمزجة والمباديء والقِيم.

أن تقرأ سطراً، أن تحفظ بيتاً، أن تتدبر آية، أن تمعن في تجربة، أن تتفكر في منظر، أن تقلّب فكرة، فهذا يعني أنك تتغير، لأن كل ذلك يضيفُ إليكَ شيئاً جديداً، والإضافة هي التي تجعلك إنساناً مختلفاً عمّا كنته قبل هذا الفعل.

وسّع من دائرة طموحك في التغيير «كن أنت التغيير الذي تريدُ أن تراهُ في العالم» كما يقول غاندي، لا تعتنق وَهْم عدم القدرة على التغيير، ولا تؤمن بمبدأ عدم إمكانية التغيير.. أنت تستطيع أن تغير الناس، المجتمع بل العالم بأسرهِ بتغيير نفسك.

كن المنطلق للتغيير: لا تقول هذه الجملة البائسة «لكن المجتمع».. بل قل «أنا الذي سأتولى التغيير»

- لا تردد قول الشاعر:

لقد أسمعت لو ناديت حيّاً
ولكن لا حياة لمن تنادي

ولكن ردد قول المتنبي:

إذا غامَرْتَ في شَرَفٍ مَرُومِ
فَلا تَقنَعْ بما دونَ النّجومِ

قاعدة (٣٠) لا تقل «لو» اللائمة، وقل «لو» الناقدة

تقريع الذات لشأنٍ فات ليس بالأمرِ الحسن، لا تكن كالكثيرِ ممن يندبُ حظّه لتجربةٍ مرّت بقوله «لو فعلتُ كذا» وهو يقصدُ ملامةَ نفسهِ، وتأنيبها ففي الحديث الشريف « إن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا... ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان»[1].

فإن قلت «لو» فقلها بقصدِ نقدِ التجربةِ، وتحديدِ الخلل، وتعيين الخطأ لأنك بدون أن تنقدَ قائلاً «لو فعلتُ الشيء الفلاني لربما كان أجدى وأفضل» فإن ذلك يعني عدم المحاولة مرة أخرى.

ولابد لك من الإستمرار في التجربة، أو المضي في الإصلاح، أو إعادة المحاولة وليس الإستكانة والتسليم.

قاعدة (٣١) لا تيأس:

ماذا تقولُ في رجلٍ أسسّ شركةً وأصبح مالكها ثم يُطردُ منها بعد ذلك؟! آلا يستبدُّ به اليأس، وتطوّحه الهموم؟!

لكن هذا لم يكن حال الراحل «ستيف جوبز» الذي أسس شركة «آبل Appel» ثم طُرد منها إثر خلافات نشأت بينها وشركاؤه.. فلم ييأس بل واصل مثابرته بأن واصل مخترعاته في مجال الرسوم المتحركة ثم «الآي بو IPod» فإذا بالشركة الأم «آبل» تستنجد به لينقذها من الإفلاس فعاد لينقذها..

هذا الرجلُ كان يقول دائماً « سأعيش كل يوم كما لو كان آخر يومٍ في حياتي»..!

ويقول: «الموهبة وحدها لا تأخذ بيدك إلى النجاح فكم من موهبة رزق بها إنسان فاشل لا يصر على هدفه» إذن هي المثابرة والإصرار التي دفعته بعيداً عن مستنقع اليأس»

---

(١) رواه مسلم.

فتحلّ أنت أيها المبادر بالإصرار كيف لا وخالقك العظيم يقول:

﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾[١].

كم من أناسٍ انهاروا بعد التجربةِ الأولى وعدّوها فشلاً نهائياً.. الفشلُ الحقيقي هو عدم القدرة على النهوضِ ثانيةً.. عاود النهوض كلّما وقعت، وواصل المشي كلّما تعثّرت، وزد من ثقتك بنفسك بإصرارك وعزيمتك.. برهن لنفسك وللآخرين أنك لا تيأس أبداً..

التفاؤلُ هو إشراقة الأملِ، إذا لا يمكنُ لمبادرٍ أن يكون ناجحاً في أمرٍ يُقدم عليه وهو مترجرجُ الفكرِ، غير واثقٍ من النجاحِ، متشكك في النتائج. العامل النفسي بما يحتويه من قوّة جذبٍ، وإيحاءٍ له دوره الكبير في تحقق أفضل النتائج.

آلا ترى كيف يشفي التفاؤل المريضَ، وكيف تُردي الوساوس الصحيح..إن تفاؤلك في الأمرِ الذي تُقدمُ عليه هو عاملٌ من عوامل نجاحه.. إذاً فقد ضمنت عاملاً من عوامل النجاحِ دون عناء..

قاعدة (٣٢) تخيّل نفسك قائداً:

من خصائص القائدُ المبادرة، والمبادرة الحقيقية هي التي تأتي بالجديدِ هي الإبداع وهذا الأخير «هو الذي يميّز بين القائد والتابع» كما يقول ستيف جوبز.

لهذا فتصوّر نفسك قائداً يُتبع، لا جندياً يتبع، لأن القائدَ يبتكر بينما الجندي يتلقى الأوامر فلا يُجهدُ عقله بالتفكير، ولا نفسه بمعالي الأمور، تخيّل نفسك قائداً لكي تحفّز نفسك، فتنتشي فيك همة الإصرار، وتتوقدَ في جوانحك شعلة الإقدام.

يقول بو بينيت Bo Bennett «بدون المبادرة فإن القادة هم مجرّد عاملين في وضع القيادة»[٢]

---

(١) سورة يوسف: الآية ٨٧.

(٢) Without initiative, leaders are simply workers in leadership positions.

قاعدة (٣٣) دقق في ألفاظك:

الألفاظُ كما هو معلوم لها أثرها على النفس، فكلّ لفظٍ لا تنطقه اللسان عبثاً وإنّما له ترسّباته، وتراكماته، ثم آثاره.

إن قلت «لا أستطيع» أو «لا أعرف» أو «أنا تعيس» أو «لا أنفع لشيء» فأنت ترسلُ إلى أعماقك رسائل سلبية خطيرة تعيقك عن المبادرة، ومع مرور الأيام تصبحُ إنساناً بليداً، خامل الحسّ، هامدَ المشاعر، واهن الهمّة.

طهر لسانك من الكلمات السلبية واستبدلها بكلمات ذات دافعية.. كلمات ترسل إلى القلبِ إشارات القدرة، والتحفيز، والدافعية.

قاعدة (٣٤) كافئ نفسك:

يقول المليونير Beter Johns «وعدتُ نفسي بأنه إذا حققنا عائداً يصل إلى ١٢ مليون جنيه إسترليني في نهاية العام فإنني سأحجز جزيرة Nicker التابعة للسير Richard Branson لمدة أسبوع وسأصطحب أهلي وأصدقائي الذين وقفوا معي طيلة العشرين سنة الماضي»[1] لقضاء إجازة سعيدة فيها»..وقد حدث هذا بالفعل.

التحفيزُ الذاتي مهم إذن للمبادر كي يسعى بكل تصميم وعزيمة لتحقيق أهدافه، لأن نفس الإنسان تحتاجُ للدافعية وهذه لا تعني العوامل الأوليّة فحسب من مثل التشجيع والحماسة والموارد اللازمة وإنّما أيضاً المكافأة المتوقعة بعد الحصاد.

تصوّر إذن مكافأتك للمبادرة التي ستقوم بها؛ على سبيل المثال أن تكون المكافأة التي تتمناها رضى الله عز وجل ورضى والديك واحتساب الأجر والمثوبة من الله.

أو أن تكون المكافأة شراء بيت أو سيارة، أو القيام برحلة سياحية، أو غير ذلك.

وإليك هذه القصة التي يتصوّر صاحبها حصاد مبادرته فقد كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالا من نخل وكان أحب أمواله إليه بيرحاء وكانت مستقبلة

---

(١) The Tycon- Beter Johns.

المسجد وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب قال أنس فلما أنزلت هذه الآية لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون قام أبو طلحة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «يا رسول الله إن الله تبارك وتعالى يقول لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وإن أحب أموالي إلي بيرحاء وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله فضعها يا رسول الله حيث أراك الله قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بخٍ ذلك مال رابح ذلك مال رابح وقد سمعت ما قلت وإني أرى أن تجعلها في الأقربين فقال أبو طلحة أفعل يا رسول الله فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه»[١].

قاعدة (٣٥) رتب أولوياتك:

يقول (ستيفن كوفي)[٢] Stephen Covey: «المفتاح هو أن تتحمل المسؤولية والمبادرة، وتقرر معنى حياتك وترتّب أولوياتك حول أهم الأشياء حولك»

إذن فترتيب الأولويات يسبقه إدراك معنى وجودك الإنساني على ظهر الأرض.

المبادرات الحقيقية تنطلق من الرؤية الواضحة للأهداف، وهذه الرؤية تنبعث من الإيمان العميق بالخالقِ عز وجل ومغزى الوجود في الحياة. ترتيب الأولويات ينطلق من هذه القاعدة الأساسية كي تستطيع أن تمضي قُدماً لتحقيق مبادراتك.

ستجدُ نفسك أن أهدافك تنسجم بصورة تلقائية، وتترتب أولوياتك بشكلٍ طبيعي كلّما عمّقت الإيمان في نفسك، وقويت صلتك بخالقك.

قاعدة (٣٦) عش يومك كآخر يوم:

لا تتفاجأ بهذه القاعدة إن قلتُ لك أنها أساس التوازن في الحياة بل والنجاح فيها..!

---

(١) http://library.islamweb.net.

(٢) The key is taking responsibility and initiative, deciding what your life is about and prioritizing your life around the most important things.

وإنني لأحب دائماً أن أردد الحكمة التي تقول «إعمل لدنياكَ كأنك تعيشُ أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموتُ غدا».

إذا تصوّرت أن هذا هو آخرُ يوم في حياتك أيها المبادر فلن تضيّع فيه ثانيةً واحدة، بل تستثمرهُ فيما ينفعك، وتكتسبُ من وراءِه سمعةً طيبة، وأجراً حسنا.

أحد المبادرين الناجحين ويدعى «ستيف جوبز Steve Jobs» مؤسس شركة (آبل Apple): على مدى الـ ٣٣ عاما الماضية أنظر فى المراة كل صباح وأسأل نفسى: «لو كان هذا اليوم آخر يوم فى حياتى هل ما سأفعله اليوم هو ما أريد أن أفعله؟ «فإذا كان الجواب « لا « فى عدد كبير من الايام، علمتُ أنني بحاجة لتغييرشيئ ما».

قاعدة (٣٧) لا تجعل المال غايتك.

إذا كان الإنسان المبادر يسعى لتحسين حياته فإن المال هو إحدى وسائل تحسين معاشه، لكن إذا أصبحَ جمعُ المالِ هو غايته النهائية ولم يصبح وسيلةً من وسائل تحقيق رسالتك في الحياةِ فلن يسعدك حقيقةً وسيظل ينتابكُ شعورٌ دائمٌ بالنقص والضيق والقلق، هذا ما يشعرُ به بعض المشاهير من نجوم سينما، وموسيقى وغناء وغيرهم.. إنهم يفتقدون للغاية التي من أجلها يعيشون.

يقول المليونير آدم خو Adam Khoo: «النقطة التي أحاول الوصول لها هي أن السعادة يجب أن تأتي من قيامك بواجبك في الحياة سواء كان ذلك التدريس أو بناء المساكن أو التصميم أو التجارة أو الفوز بالمسابقات... الخ».

أما المال فهو أمر ثانوي سيأتي كنتيجة طبيعية لقيامك بواجبك بشكل مميزإذا كنت تكره ما تقوم به، وتعتمد على المال الذي تجنيه من هذا الأمر الذي تكرهه لكي تصبح سعيدا عن طريق شراء الأشياء.

أعتقد بأنك تعيش حياة بلا معنى»، لهذا إجعل غايتك في كل مبادرة ليس جمع المال وإنّما أرفعُ من ذلك وأسمى، إجعلها غايةً تفتخرُ بها بين الناس، تغيّرُ بها واقعاً،

تنيرُ بها عقولاً، تفتحُ بها دروباً.

أمّا المال فيأتيكَ بعد ذلك. سألتُ أحد اللاعبين العالميين المشهورين: هل تفكّر في المال؟ قال: كلاّ، أفكر كيف أخلصُ في موهبتي كلاعب، أمّا المال فيأتي تلقائياً من وراءِ هذا الإخلاص.

قاعدة (٣٨) لا تجعل للنجاح من خاتمة:

إذا قلتَ لنفسك أنك نجحت ووقفت فإنك تكون قد فشلت حقا..

النجاحُ هو مواصلة العمل، وفي المؤثور النبوي الشريف حديث يستحق العبرة والتفكير» إذا قامت القيامة وفي يد أحدكم غرسة فليغرسها»[1].

العمل لا يجب أن يتوقف حتى مع قيام الساعة والعملُ في حد ذاته هو نجاح.. نجاحٌ لقهر العجز والكسل والخمول والدعة والفراغ.. فلا تجعل للنجاح من نهاية.

قاعدة (٣٩) لا تنظر بندم إلى ما فات:

إن من الخطأ النظر إلى ما فات والندمِ عليه. الصحيح أن تبادر على الفورِ بالإصلاح فلو نظرنا نحن البشر إلى الخلف بندمٍ طوال أوقاتنا لأهدرناها سدى، وملأنا أنفسنا حرقة وحسرةً على مافات.

ما فات فات لا يمكنُ استعادته، لكن يمكنُ تصحيحه إن كنت تملك الإيمان الحقيقي بقدراتك وطاقاتك والشيء الذي يجب تصحيحه.

قاعدة (٤٠) كن سبّاقاً:

جاء في الأثر «خيرُ البرِّ عاجله» أي أن تقديم ما فيه إحسان للإنسان يجب التعجيل فيه. فإن خاصمك أحد عجّل بالمسامحة، وإن أساء لك شخص عجّل بالعفو عنه، وإن رأيت محتاجاً عجّل بمساعدته، وإن رأيت أي وجهٍ من وجوه الخير لك لا تتردّد

---

(١) رواه أنس رضي الله عنه.

في الإقدام عليه. يقول الحق سبحانه وتعالى «فاستبقوا الخيرات»[١] أو المسارعة «وسارعوا إلى مغفرة من ربكم»[٢].

الحياةُ نجاحها مبادرات خلاّقة فاصنع لنفسك إسماً وشرفاً بأن تكون سبّاقاً في تلك المبادرات التي تسبقُ بها آخرين، لا تنتظر حتى يُقدمَ أحدٌ ما على فكرةٍ تفكّرُ فيها فكم من يقول: كانت هذه الفكرة في رأسي، ما الفائدة بعد أن دارت في رأس أحدهم وطبّقها على أرض الواقع؟! قل لنفسك دائماً: ماذا أنتظر؟!

قاعدة (٤١) لا تخف:

لأن الخوفُ إلا من الله يعيقك عن التقدّم ويشكّل عقبة أمام طموحاتك، وقدراتك ومواهبك، لهذا كن مطمئناً بالإيمان بالله والتوكل عليه وثقتك بما تحمله من مباديء واضحة وقيم أصيلة، ولا تتصور الأمور أكبر من حجمها، واطرد الخوف بالإقدام على العمل والتغيير والتجديد في حياتك.

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٤٨.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٣٣.

قصص مبادرين ...

فجرّوا النور الذي بين جوانحهم بهممهم العالية:

قصّة سلمان الفارسي رضي الله عنه..

يقول سيدنا سلمان الفارسي راوياً عن نفسه:

كنت رجلا فارسيا من أهل أصبهان، من أهل قرية منها يقال لها جي...

وكان أبي دهقانها...

وكنت أحب خلق الله إليه...

فلم يزل بي حبه إياي حتى حبسني في بيته كما تحبس الجارية، فاجتهدت في المجوسية حتى كنت قاطن النار الذي يوقدها لا يتركها تخبو ساعة.

وكانت لأبي ضيعة عظيمة، فشغل في بنيان له يوما، فقال لي:

يا بني إني قد شغلت في بنياني هذا اليوم عن ضيعتي، فاذهب فاطلعها وأمرني ببعض ما يريد.

فخرجت، ثم قال:

لا تحتبس علي، فإنك إن احتبست علي كنت أهم إلي من ضيعتي، وشغلتني عن كل شيء من أمري.

فخرجت أريد ضيعته، فمررت بكنيسة من كنائس النصارى، فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون، وكنت لا أدري ما أمر الناس بحبس أبي إياي في بيته، فلما مررت بهم، وسمعت أصواتهم، دخلت إليهم أنظر ما يصنعون، فلما رأيتهم أعجبتني صلواتهم، ورغبت في أمرهم، وقلت: هذا - والله - خير من الدين الذي نحن عليه، فوالله ما تركتهم حتى غربت الشمس وتركت ضيعة أبي ولم آتها، فقلت لهم: أين أصل هذا الدين؟

قالوا: الشام

قال: ثم رجعت إلى أبي وقد بعث في طلبي وشغلته عن عمله كله، فلما جئته قال: أي بني، أين كنت؟

ألم أكن عهدت إليك ما عهدت؟

قلت: يا أبت، مررت بناس يصلون في كنيسة لهم، فأعجبني ما رأيت من دينهم، فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس.

قال: أي بني، ليس في ذلك الدين خير، دينك ودين آبائك خير منه، قلت: كلا والله، إنه لخير من ديننا.

قال: فخافني، فجعل في رجلي قيدا ثم حبسني في بيته.

قال: وبعثت إلى النصارى، فقلت: إذا قدم عليكم ركب من الشام تجار من النصارى، فأخبروني بهم.

فقدم عليهم ركب من الشام، قال: فأخبروني بهم، فقلت: إذا قضوا حوائجهم، وأرادوا الرجعة، فأخبروني.

قال: ففعلوا، فألقيت الحديد من رجلي، ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام.

فلما قدمتها، قلت: من أفضل أهل هذا الدين؟

قالوا: الأسقف في الكنيسة فجئته، فقلت: إني قد رغبت في هذا الدين، وأحببت أن أكون معك أخدمك في كنيستك، وأتعلم منك، وأصلي معك.

قال: فادخل، فدخلت معه، فكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها، فإذا جمعوا إليه منها شيئا، اكتنزه لنفسه، ولم يعطه المساكين حتى جمع سبع قلال من ذهب وورق، فأبغضته بغضا شديدا لما رأيته يصنع...

ثم مات، فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه، فقلت لهم: إن هذا رجل سوء، يأمركم بالصدقة، ويرغبكم فيها، فإذا جئتم بها، كنزها لنفسه، ولم يعط المساكين، وأريتهم

موضع كنزه سبع قلال مملوءة، فلما رأوها قالوا: والله لا ندفنه أبدا.

فصلبوه ثم رموه بالحجارة.

ثم جاءوا برجل جعلوه مكانه، فما رأيت رجلا - يعني لا يصلي الخمس - أرى أنه أفضل منه، أزهد في الدنيا ولا أرغب في الآخرة، ولا أدأب ليلا ونهارا، ما أعلمني أحببت شيئا قط قبله حبه، فلم أزل معه حتى حضرته الوفاة، فقلت: يا فلان، قد حضرك ما ترى من أمر الله، وإني والله ما أحببت شيئا قط حبك، فماذا تأمرني وإلى من توصيني؟

قال لي: يا بني والله ما أعلمه إلا رجلا بالموصل فائته؛ فإنك ستجده على مثل حالي.

فلما مات وغيب لحقت بالموصل، فأتيت صاحبها، فوجدته على مثل حاله من الاجتهاد والزهد، فقلت له: إن فلانا أوصاني إليك أن آتيك وأكون معك.

قال: فأقم أي بني.

فأقمت عنده على مثل أمر صاحبه حتى حضرته الوفاة.

فقلت له: إن فلانا أوصى بي إليك وقد حضرك من أمر الله ما ترى، فإلى من توصي بي؟ وما تأمرني به؟

قال: والله ما أعلم، أي بني، إلا رجلاً بنصيبين

فلما دفناه، لحقت بالآخر، فأقمت عنده على مثل حالهم حتى حضره الموت فأوصى بي إلى رجل من أهل عمورية بالروم، فأتيته فوجدته على مثل حالهم، واكتسبت حتى كان لي غنيمة وبقيرات.

ثم احتضر فكلمته إلى من يوصي بي؟

قال: أي بني، والله ما أعلمه بقي أحد على مثل ما كنا عليه آمرك أن تأتيه، ولكن قد أظلك زمان نبي يبعث من الحرم، مهاجره بين حرتين إلى أرض سبخة ذات نخل، وإن فيه علامات لا تخفى، بين كتفيه خاتم النبوة، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة،

فـإن اسـتطعت أن تخلـص إلى تلك البـلاد فافعل، فإنـه قد أظلـك زمانه.

فلـما وارينـاه، أقمـت حتى مـر بي رجال من تجـار العرب مـن كلب، فقلت لهـم تحملوني إلى أرض العـرب، وأعطيكم غنيمتـي وبقراتي هذه؟

قالوا: نعم.

فأعطيتهـم إياهـا وحملوني، حتـى إذا جـاؤوا بي وادي القرى ظلموني، فباعـوني عبدا من رجـل يهـودي بـوادي القرى، فـوالله لقد رأيـت النخل، وطمعـت أن يكـون البلد الذي نعـت لي صاحبي...

وما حقت عندي حتى قدم رجل من بني قريظة وادي القرى، فابتاعني من صاحبي.

فخرج بي حتى قدمنا المدينة فوالله ما هو إلا أن رأيتها فعرفت نعتها.

فأقمـت في رق، وبعـث الله نبيـه -صـلى الله عليـه وسـلم- بمكـة لا يذكـر لي شيء مـن أمـره مـع مـا أنا فيـه من الرق، حتـى قدم رسـول الله -صلى الله عليه وسـلم- قبـاء، وأنا أعمـل لصاحبـي في نخلـة له، فـوالله إني لفيهـا إذ جاءه ابن عم لـه، فقال: يا فـلان، قاتل الله بنـي قيلـة، والله إنهـم الآن لفـي قبـاء مجتمعـون على رجل جـاء من مكـة يزعمون أنه نبـي... فـوالله مـا هـو إلا أن سـمعتها فأخذتني العـرواء -يقـول الرعدة- حتـى ظننت لأسـقطن عـلى صاحبـي، ونزلت أقـول: ما هـذا الخبر؟

فرفع مولاي يده فلكمني لكمة شديدة..

وقـال: مـا لـك ولهذا، أقبل عـلى عملك فقلـت: لا شيء، إنما سـمعت خـبراً فأحببت أن أعلمه.

فلـما أمسـيت، وكان عنـدي شيء من طعـام، فحملتـه وذهبت إلى رسـول الله - صلى الله عليـه وسـلم - وهـو بقبـاء، فقلـت لـه: بلغنـي أنك رجـل صالـح، وأن معـك أصحابا لـك غربـاء، وقـد كان عنـدي شيء مـن الصدقـة فرأيتكـم أحق من بهـذه البـلاد، فهاك هـذا، فـكل منه.

قال: فأمسك، وقال لأصحابه: كلوا

فقلت في نفسي: هذه خلة مما وصف لي صاحبي، ثم رجعت، وتحول رسول الله إلى المدينة، فجمعت شيئا كان عندي ثم جئته به، فقلت: إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة، وهذه هدية.

فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكل أصحابه، فقلت: هذه خلتان.

ثم جئت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو يتبع جنازة وعلي شملتان لي وهو في أصحابه، فاستدرت أنظر إلى ظهره هل أرى الخاتم الذي وصف، فلما رآني استدبرته عرف أني أستثبت في شيء وصف لي، فألقى رداءه عن ظهره، فنظرت إلى الخاتم فعرفته، فانكببت عليه أقبله وأبكي.

فقال لي: تحول، فتحولت، فقصصت عليه حديثي كما حدثتك يا ابن عباس، فأعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسمع ذلك أصحابه

ثم شغل سلمان الرق حتى فاته مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بدر وأحد.

ثم قال رسول الله: كاتب يا سلمان.

فكاتبت صاحبي على ثلاث مائة نخلة أحييها له بالفقير وبأربعين أوقية.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: أعينوا أخاكم. فأعانوني بالنخل الرجل بثلاثين ودية والرجل بعشرين، والرجل بخمس عشرة، حتى اجتمعت ثلاث مائة ودية.

فقال: اذهب يا سلمان ففقر لها فإذا فرغت فائتني أكون أنا أضعها بيدي ففقرت لها وأعانني أصحابي، حتى إذا فرغت منها، جئته وأخبرته فخرج معي إليها نقرب له الودي، ويضعه بيده فوالذي نفس سلمان بيده ما ماتت منها ودية واحدة، فأديت النخل، وبقي علي المال، فأتي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بمثل بيضة دجاجة من ذهب من بعض المغازي، فقال: ما فعل الفارسي المكاتب؟

فدعيت له، فقال: خذها فأد بها ما عليك.

قلت: وأين تقع هذه يا رسول الله مما علي؟

قال: خذها فإن الله سيؤدي بها عنك.

فأخذتها فوزنت لهم منها أربعين أوقية وأوفيتهم حقهم وعتقت، فشهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الخندق حرا، ثم لم يفتني معه مشهد.

قصة عبد الرحمن الداخل الملقب بصقر قريش (١١٣ - ١٧٢هـ)[١].

هو حفيد هشام بن عبد الملك، الخليفة الأموي. لما قامت الدولة العباسية طغَت وبَغَت وقَتَلت الأبرياء الذين لا ذنب لهم إلا أنهم من بني أمية فكان من المُستهدفين عبدالرحمن بن معاوية (المعروف بالـ«داخل»)، ففر وأهله إلى قريةٍ على نهر الفرات ويروي بداية هذه القصة التاريخية العجيبة فيقول:

إني لجالس يوماً في تلك القرية في ظلمة بيت تواريت فيه لرمدٍ كان بي، وابني سليمان بكر ولدي يلعب قدّامي، وهو يومئذٍ ابن أربع سنينٍ أو نحوها، إذ دخل الصبي من باب البيت فازعاً باكياً فأهوى إلى حجري، فجعلت أدفعه إلى ما كان بي ويأبى إلا التعلق، وهو دهشٌ يقول ما يقوله الصبيان عند الفزع، فخرجت لأنظر، فإذا بالروع قد نزل بالقرية، ونظرت فإذا بالرايات السود عليها منحطة، وأخٍ لي حديث السن كان معي يشتد هارباً ويقول لي: النجاء يا أخي، فهذه رايات المسودة، فضربت بيدي على دنانير تناولتها، ونجوت بنفسي والصبي أخي معي، وأعلمت أخواتي بمتوجهي ومكان مقصدي.

وأمرتهن أن يلحقنني ومولاي بدر معهن، وخرجت فكمنت في موضع ناء عن القرية، فما كان إلا ساعةً حتى أقبلت الخيل فأحاطت بالدار، فلم تجد أثراً ومضيت ولحقني بدر، فأتيت رجلاً من معارفي بشط الفرات، فأمرته أن يبتاع لي دواب وما يصلح لسفري، فدلّ عليَّ عبد سوء له العامل، فما راعنا إلا جلبة الخيل تحفزنا فاشتددنا في الهرب، فسبقناها إلى الفرات فرمينا فيه بأنفسنا، والخيل تنادينا من الشط: ارجعا لا بأس عليكما فسبحت حاثاً لنفسي وكنت أحسن السبح، وسبح الغلام أخي، فلما قطعنا نصف الفرات قصر أخي ودهش، فالتفت إليه لأقوي من قلبه، وإذا هو قد أصغى إليهم وهم يخدعونه عن نفسه، فناديته:

تقتل ياأخي، إلي إلي فلم يسمعني، وإذا هو قد اغتر بأمانهم، وخشي الغرق، فاستعجل

---

(١) قصّة مأثورة وردت في الكثير من المواقع المعتبرة والكتب.

الإنقلاب نحوهم، وقطعت أنا الفرات، وبعضهم قد همَّ بالتجرد للسباحة في أثري، فاستكفه أصحابه عن ذلك، فتركوني، ثم قدموا الصبي أخي الذي صار إليهم بالأمان فضربوا عنقه، ومضوا برأسه وأنا أنظر إليه وهو ابن ثلاث عشرة سنة، فاحتملت فيه ثكلاً ملأني مخافةً، ومضيت إلى وجهي أحسب أني طائر وأنا ساعٍ على قدمي، فلجأت إلى غيضةٍ أشبة، فتورايت فيها حتى انقطع الطلب، ثم خرجت أؤم المغرب حتى وصلت إلى إفريقية»

توالت الأحداث منذ ذاك، إلى أن دخل عبدالرحمن بن معاوية الأندلس وكبر شأنه فيها، فمَلَك قرطبة وفتح مُدناً حولها، وأقام دولةً أموية نافَسَت الدولة العباسية في بغداد، فسبحان الله، تحول من طريدٍ يائس إلى ملكٍ عظيم الشأن، ويصفه المقري نقلاً عن ابن حيان فيقول:

كان عبد الرحمن راجح الحلم، فاسح العلم، ثاقب الفهم، كثير الحزم نافذ العزم، بريئاً من العجز، سريع النهضة متصل الحركة، لايخلد إلى راحة، ولايسكن إلى دعة، ولايكل الأمور إلى غيره، ثم لا ينفرد في إبرامها برأيه شجاعاً مقداماً، بعيد الغور شديد الحدة قليل الطمأنينة بليغاً مفهوماً شاعراً محسناً سمحاً سخياً طلق اللسان، وكان يلبس البياض ويعتم به ويؤثره، وكان قد أعطي هيبة من وليه وعدوه، وكان يحضر الجنائز، ويصلي عليها، ويصلي بالناس إذا كان حاضراً الجمع والأعياد، ويخطب على المنبر، ويعود المرضى، ويكثر مباشرة الناس والمشي بينهم، إلى أن حضر في يوم جنازة فتصدى له في منصرفه عنها رجل متظلم عامي وقاح ذو عارضة فقال له: أصلح الله الأمير، إن قاضيك ظلمني وأنا أستجيرك من الظلم، فقال له:

تنصف إن صدقت، فمد الرجل يده إلى عنانه وقال: أيها الأمير أسالك بالله لما برحت من مكانك حتى تأمر قاضيك بإنصافي فإنه معك، فوجم الأمير والتفت إلى من حوله من حشمه، فرآهم قليلاً، ودعا بالقاضي وأمر بإنصافه، فلما عاد إلى قصره كلمه بعض رجاله ممن كان يكره خروجه وابتذاله فيما جرى، فقال له: إن

هـذا الخـروج الكثير أبقى الله تعـالى الأمير لا يجمل بالسـلطان العزيـز، وإن عيون العامة تخلـق تجلتـه، ولا تؤمـن بوادرهـم عليـه، فليـس النـاس كـما عهـدوا، فـترك مـن يومئذ شـهود الجنائـز وحضـور المحافـل، ووكل بذلـك ولده هشـاماً

وكان عبـد الرحمـن الداخـل أفصـح النـاس، ومـا كان مـن أبنـاء وأحفاد مـروان أفصح منـه، و ممـا يُنقَـل في ذلك: «مثـل بين يديه رجـلٌ من جند قنسرين يسـتجديه فقـال له: يا ابـن الخلائف الراشـدين، والسـادة الأكرمـين إليك فررت وبـك عذت من زمـنٍ ظلومٍ ودهـرٍ غشـومٍ، قـلّ المـال وكثـر العيال وشـعث الحال فصـير إلى نـداك المـآل، وأنت ولي الحمـد والمجـد والمرجو للرفـد، فقال لـه عبد الرحمـن مسرعاً:

قـد سـمعنا مقالتـك وقضينـا حاجتـك، وأمرنـا بعونـك عـلى دهرك،عـلى كرهنا لسـوء مقامـك، فـلا تعودنَّ ولا سـواك لمثله مـن إراقة ماء وجهـك بتصريح المسـألة والإلحاف في الطلبـة، وإذا ألم بـك خطـب أو حزبـك أمـر فارفعـه إلينـا في رقعـة لا تعـدوك، كيـما نسـتر عليـك خلتـك، ونكف شـمات العـدو عنك، بعـد رفعك لهـا إلى مالـكك ومالكنا عـز وجهـه بإخـلاص الدعـاء وصـدق النيـة، وأمـر لـه بجائـزة حسـنة، وخـرج الناس يتعجبـون منـه مـن حسـن منطقـه وبراعـة أدبـه، وكـف فيـما بعـد ذوو الحاجـات عـن مقابلتـه بها شـفاهاً في مجلسـه.

و لكـن رغـم الصفـات الحسـناء أعـلاه، فلـم يكـن عبـد الرحمـن الداخل يمتلـك حلم معاويـة أو لـين عثـمان، و قـد روي في شـأن حزمـه وصرامته:

ولمـا فتـح الداخـل سرقسـطة، وحصـل في يـده ثائرهـا الحسـين الأنصـاري وشـدخت رؤوس وجوههـا بالعمـد، وانتهـى نـصره فيهـا إلى غايـة أملـه أقبـل خواصـه يهنئونـه، فجـرى بينهـم أحـد من لا يؤبـه به مـن الجند، فهنـأه بصوت عـال، فقال الداخـل: والله لـولا أن هـذا اليـوم يوم أسـبغ علي فيه النعمـة من هو فوقـي فأوجب علي ذلـك أن أنعم فيـه عـلى مـن هـو دوني لأصلينـك مـا تعرضـت له مـن سـوء النـكال، من تكـون حتى تقبـل مهنئـاً رافعـاً صوتك غـير متلجلـج ولا متهيب لمكان الإمـارة ولا عـارف بقيمتها

حتى كأنك تخاطب أباك أو أخاك؟

وإن جهلك ليحملك على العود لمثلها، فلا تجد مثل هذا الشافع في مثلها من عقوبة، فقال: ولعل فتوحات الأمير يقترن اتصالها باتصال جهلي وذنوبي، فتشفع لي متى أتيت بمثل هذه الزلة، لا أعدمنيه الله تعالى، فتهلل وجه الأمير، وقال: ليس هذا باعتذار جاهل، ثم قال: نبهونا على أنفسكم، إذا لم تجدوا من ينبهنا عليها، ورفع مرتبته، وزاد في عطائه.

قصّة المراسل الذي أصبح وزيراً[١]

حين ولد الفتى البدوي الخجول، علي ابراهيم النعيمي، في عام ١٩٣٥، كانت قد مضت أربع سنوات فقط على تحميل أول شحنة من الزيت الخام تصدرها السعودية على متن ناقلة للعالم الخارجي في الأول من مايو (أيار) ١٩٣٩، إيذاناً بعصر جديد، ومنذ ذلك الحين اقترن اسم علي النعيمي بصناعة النفط وتدرج فيها من القاع إلى القمة وكان محظوظاً بقدر ما كان مثابراً، وهو يطوي صفحة شظف العيش التي لازمته طفلاً، بدخوله مدرسة الجبل أولى المدارس التي بنتها ارامكو في الظهران، وظلّ يتذكر أول يوم له في مدرسة الجبل في عام ١٩٤٥:

(رأيت ذاك المعلم الأميركي بلحيته الكثة الحمراء يشير إلى السبورة، والجميع يصيح this is a fox، فقلت مثل قولهم، وتلك هي الطريقة التي بدأ بها الجميع تعليمهم، بعد عامين، ولج عالم الشركة النفطية الأكبر في العالم، حيث لا يوجد في سجل الشركة حتى اليوم وربما في سجل شركات أخرى تاريخاً في الخدمة يماثل التاريخ الذي سطره علي النعيمي، فقد التحق بصناعة النفط حين كان عمره ١٢ عاماً، وبدأ مراسلاً براتب يقل عن الدولار في اليوم، وحين أصبح أول سعودي يترأس شركة ارامكو كان قد أمضى ٤٨ عاماً في الشركة، وهو اليوم يطوي ٦١ سنة من خدمته في قطاع النفط والطاقة.

البدوي الكتوم، الذي لا يحبّ الأضواء، ويتحاشى الصحافة حدّ النفور كان طموحاً حدّ الخيال، فالأيام الصعبة التي قضاها مراسلاً فطباعاً على الآلة الكاتبة، فموظفاً في ضبط الحسابات، وشؤون الموظفين، لم تشبع نهمه، ولم تلبِ رغبته، كما لم يكن يرضيه مجرد الحصول على وظيفة تدر عليه دخلاً، ففي الخمسينات، وتحديداً ما بين ١٩٥٦ و١٩٦٣ اشترك في برنامج التدريب العالي للشركة، وابتعث أولاً إلى الكلية الدولية في

---

(١) مقالة بعنوان: علي النعيمي، قصة الحلم السعودي، صحيفة الشرق الأوسط، الخميس ٢٣ جمادى الاولى ١٤٢٩ هـ ٢٩ مايو ٢٠٠٨ العدد ١٠٧٧٥.

بيروت، ومن ثم الجامعة الأميركية في بيروت، وانتقل منها إلى جامعة ليهاي بولاية بنسلفانيا في الولايات المتحدة الأميركية، حيث حصل على شهادة بكالوريوس في الجيولوجيا عام ١٩٦٢.

وفي سنة ١٩٦٣ نال درجة الماجستير من جامعة ستانفورد بولاية كاليفورنيا في الهيدرولوجيا «علم المياه الجوفية» والجيولوجيا الاقتصادية، وبعد عودته إلى السعودية عمل هيدرولوجياً وجيولوجياً في إدارة التنقيب حتى عام ١٩٦٧، ثم عُيِّن ناظراً لقسم الإنتاج في بقيق عام ١٩٦٩.

وفي عام ١٩٧٥ انتخب لمنصب نائب رئيس ارامكو للإنتاج وحقن الماء، وفي عام ١٩٧٧ رأس شركة أرامكو لما وراء البحار لمدة شهرين، تلاها في يوليو (تموز) ١٩٧٨ أصبح نائبا أول للرئيس لشؤون عمليات الزيت. وفي ٨ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٨٣ عُيّن أول رئيس سعودي لأرامكو، وفي ١٩٩٥ عُيّن وزيرا للبترول والثروة المعدنية ورئيسا لمجلس إدارة أرامكو.

طوال تلك الفترة، كان علي النعيمي هو نفسه الموظف الذي أرسى مع زملائه تقاليد العمل، وثقافة الإنتاج في شركة ارامكو التي تقوم على الانضباط والالتزام وتكون ما يصطلح عليه بـ(ثقافة ارامكو)، هذه الثقافة التي تتجسد بشكل كامل في الوزير علي النعيمي، الذي ينطبق عليه بشكل واضح مبدأ (الجدارة) في العمل.

كان عصامياً، فليس في تاريخه الوظيفي مكاناً لـ(الواسطة)، كما كان منضبطاً حتى أن موظفيه كانوا يشاهدونه بلباس الرياضة يجلس على مقاعد الانتظار في المركز الصحي بالظهران ينتظر دوره للدخول الى العيادة.

وبالإضافة إلى الإصرار، فإن علي النعيمي الذي يحب العمل بروح الفريق، حاسم جداً في قراراته، ويقول بعض مستشاريه أنه رغم ما يبدو عليه من تواضع وخجل فإنه (صاحب قرار)، على الرغم من انه يخضع معظم قراراته للنقاش والاستشارة، وربما بسبب هذا السلوك كانت السنوات الثلاث عشرة التي قضاها وزيراً للنفط

أكثر الفترات ازدهاراً في العلاقة بين شركة ارامكو ووزارة البترول.

كذلك فإن النعيمي الذي ورث حقبة مضطربة في أسواق النفط، عمل على إبعاد منظمة الدول المصدرة للنفط (أوبك) عن التجاذبات السياسية، وحقق نجاحاً باهراً حين قاد توجه المنظمة للعمل بشراكة كاملة لمصلحة دولها وشعوبها، وتحييد النفط عن الصراعات والتطورات السياسية، هذا النجاح مكّن الأوبك من أن تحقق قفزة في الإنتاج تستطيع من خلاله تعويض النقص في الإمداد، من دون أن ينعكس ذلك صراعاً بين المنتجين، وسط أحداث سياسية خطيرة، ومكّن هذه الدول من أن تحافظ - رغم العقبات - على سعر مغرٍ للبرميل.

وعلي النعيمي قارئ ومثقف، ومستشاروه يقولون إنه (موسوعة) في الثقافة النفطية، لكن أحداً منهم لا يتمكن من فكّ ألغاز العلاقة الباهتة بين النعيمي والصحافة، فالرجل الذي يتحاشى الإعلام، يعرف جيداً أن أي تصريح له من شأنه أن يهزّ أسواق النفط من دبي إلى نيويورك.

قبل ستين عاماً، حين كانت أرامكو تدب فوق هضبة الظهران، كان هناك فتى صغير السنّ التحق للتو بأعمال الشركة يلف (غترة) بيضاء على رأسه ويلبس بنطالاً رثاً، وفي لفح الهجير، ساق الفتى خطاه نحو (الكامب) حيث يستريح الموظفون الأميركيون، ولفت انتباهه وجود الماء المثلج، فمدّ يده لكأس من الفلين وبدأ يشرب وعندها لمحه المفتش، وطلب منه المغادرة، لأن هذا المكان مخصص للمهندسين، وليس للعمال.

وبإصرار سأله الفتى، ومتى عساي أن أتمكن من دخول هذا المكان؟ فقال له المفتش الأميركي: إذا تعلمت وتدربت واصبحت مهندسا، ومنذ ذلك الوقت، أصرّ علي النعيمي على أن يقهر المستحيل حتى يحقق الحلم.

قصّة هيلين كيلر[١]

هيلين كيلر Helen Adams Keller ولدت في ٢٧ يونيو ١٨٨٠م وتوفيت في ١ يونيو ١٩٦٨م. أديبة ومحاضرة وناشطة أمريكية، وهي تعتبر إحدى رموز الإرادة الإنسانية، حيث إنها كانت فاقدة السمع والبصر، واستطاعت أن تتغلب على إعاقتها وتم تلقيبها بمعجزة الإنسانية لما قاومته من إعاقتها حيث أن مقاومة تلك الظروف كانت بمثابة معجزة.

ولدت هيلين كيلر في مدينة توسكومبيا في ولاية ألاباما بالولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨٨٠ م، وهي ابنة الكابتن آرثر كيلر وكايت أدامز كيلر.

وتعود اصول العائلة إلى ألمانيا. لم تولد هيلين عمياء وصماء لكن بعد بلوغها تسعة عشر شهرًا أُصيبت بمرض شخصه الاطباء أنه التهاب السحايا وحمى قرمزية مما أفقدها السمع والبصر.

في ذلك لوقت كانت تتواصل مع الاخرين من خلال مارتا واشنطن ابنة طباخة العائلة التي بدأت معها لغة الإشارة وعند بلوغها السابعة أصبح لديها ٦٠ إشارة تتواصل بها مع عائلتها.

بالرغم من أنها عمياء وصماء لكنها استطاعت الحصول على شهادة في اللغة الإنجليزية. فذهبت إلى مدينة بالتمور لمقابلة طبيب مختص بحثا عن نصيحة، فأرسلها إلى ألكسندر غراهام بل الذي كان يعمل آنذاك مع الاطفال الصم فنصح والديها بالتوجه إلى معهد بركينس لفاقدي البصر حيث تعلمت لورا بردجهام.

وهناك تم اختيار المعلمة آن سوليفان التي كانت في العشرين من عمرها لتكون معلمة هيلين وموجهتها ولتبدأ معها علاقة استمرت ٤٩ سنة.

حصلت آن على إذن وتفويض من العائلة لنقل هيلين الي بيت صغير في حديقة المنزل

---

(١) ويكيديا.

بعيدا عن العائلة، لتعلّم الفتاة المدللة بطريقة جديدة فبدأت التواصل معها عن طريق كتابة الحروف في كفها وتعليمها الاحساس بالاشياء عن طريق الكف. فكان سكب الماء على يدها يدل عن الماء وهكذا بدأت التعلم ومعرفة الاشياء الأخرى الموجودة حولها ومن بينها لعبتها الثمينة.

وبعد مرور عام تعلمت هيلين تسعمائة كلمة، واستطاعت كذلك دراسة الجغرافيا بواسطة خرائط صنعت على أرض الحديقة كما درست علم النبات، وفي سن العاشرة تعلمت هيلين قراءة الأبجدية الخاصة بالمكفوفين وأصبح بإمكانها الاتصال بالآخرين عن طريقها.

في سنة ١٨٩١ عرفت هيلين بقصة الفتاة النرويجية راغنهيلد كاتا التي كانت هي أيضا صماء وبكماء لكنها تعلمت الكلام. فكانت القصة مصدر الهام لها فطلبت من معلمتها تعليمها الكلام وشرعت آن بذلك مستعينة بمنهج تادوما عن طريق لمس شفاه الاخرين وحناجرهم عند الحديث وطباعة الحرف على كفها.

لاحقا تعلمت هيلين طريقة برايل للقراءة فاستطاعت القراءة من خلالها ليس فقط باللغة الإنجليزية ولكن أيضا بالالمانية واللاتينية والفرنسية واليونانية.

ثم في مرحلة ثانية أخذت سوليفان تلميذتها إلى معلمة قديرة تدعى (سارة فولر) تعمل رئيسة لمعهد (هوارس مان) للصم في بوسطن

وبدأت المعلمة الجديدة مهمة تعليمها الكلام بوضعها يديها على فمها أثناء حديثها لتحس بدقة طريقة تأليف الكلمات باللسان والشفتين، وانقضت فترة طويلة قبل أن يصبح باستطاعة أحد أن يفهم الأصوات التي كانت هيلين تصدرها.

لم يكن الصوت مفهوماً للجميع في البداية، فبدأت هيلين صراعها من أجل تحسين النطق واللفظ، وأخذت تجهد نفسها بإعادة الكلمات والجمل طوال ساعات مستخدمة أصابعها لالتقاط اهتزازات حنجرة المدرسة وحركة لسانها وشفتيها وتعابير وجهها أثناء الحديث.

وتحسن لفظها وازداد وضوحاً عاماً بعد عام في ما يعد من أعظم الانجازات الفردية في تاريخ تربية وتأهيل المعوقين، ولقد أتقنت هيلين الكتابة وكان خطها جميلاً مرتباً.

ثم التحقت هيلين بمعهد كامبردج للفتيات، وكانت الآنسة سوليفان ترافقها وتجلس بقربها في الصف لتنقل لها المحاضرات التي كانت تلقى وأمكنها أن تتخرج من الجامعة عام ١٩٠٤م حاصلة على بكالوريوس علوم والفلسفة في سن الرابعة والعشرين، ذاعت شهرة هيلين كيلر فراحت تنهال عليها الطلبات لالقاء المحاضرات وكتابة المقالات في الصحف والمجلات.

بعد تخرجها من الجامعة عزمت هيلين على تكريس كل جهودها للعمل من أجل المكفوفين، وشاركت في التعليم وكتابة الكتب ومحاولة مساعدة هؤلاء المعاقين قدر الإمكان، وفي أوقات فراغها كانت هيلين تخيط وتطرز وتقرأ كثيراً، وأمكنها أن تتعلم السباحة والغوص وقيادة العربة ذات الحصانين والخياطة.

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

ويحظر نسخ و\أو طبع و\أو تصوير و\أو إعادة صف وإخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه و\أو تسجيله على الأشرطة و\ أو وسائل تحميل الصوت أو الصورة و\أو الأقراص المدمجة أو الممغنطة و\أو إدخاله على الكمبيوتر أو من قواعد البيانات و\أو استغلاله بأي شكل من الأشكال إلا بموافقة خطية من المؤلف.

اسم الكتاب : ماذا انتظر ؟

المؤلف : د. صالح الفهدي

All Rights Reserved

No part of this publication May be reproduced or distributed in Any from or by any means, or stored in a database or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

الطبعة الأولى

٢٠١٥م - ١٤٣٦هـ

ISBN 978-99969-1-311-2

Printed by

Al-Anan Printing Press

www.alananprinting.com

كتاب تحفيزي
حول سر المبادرة

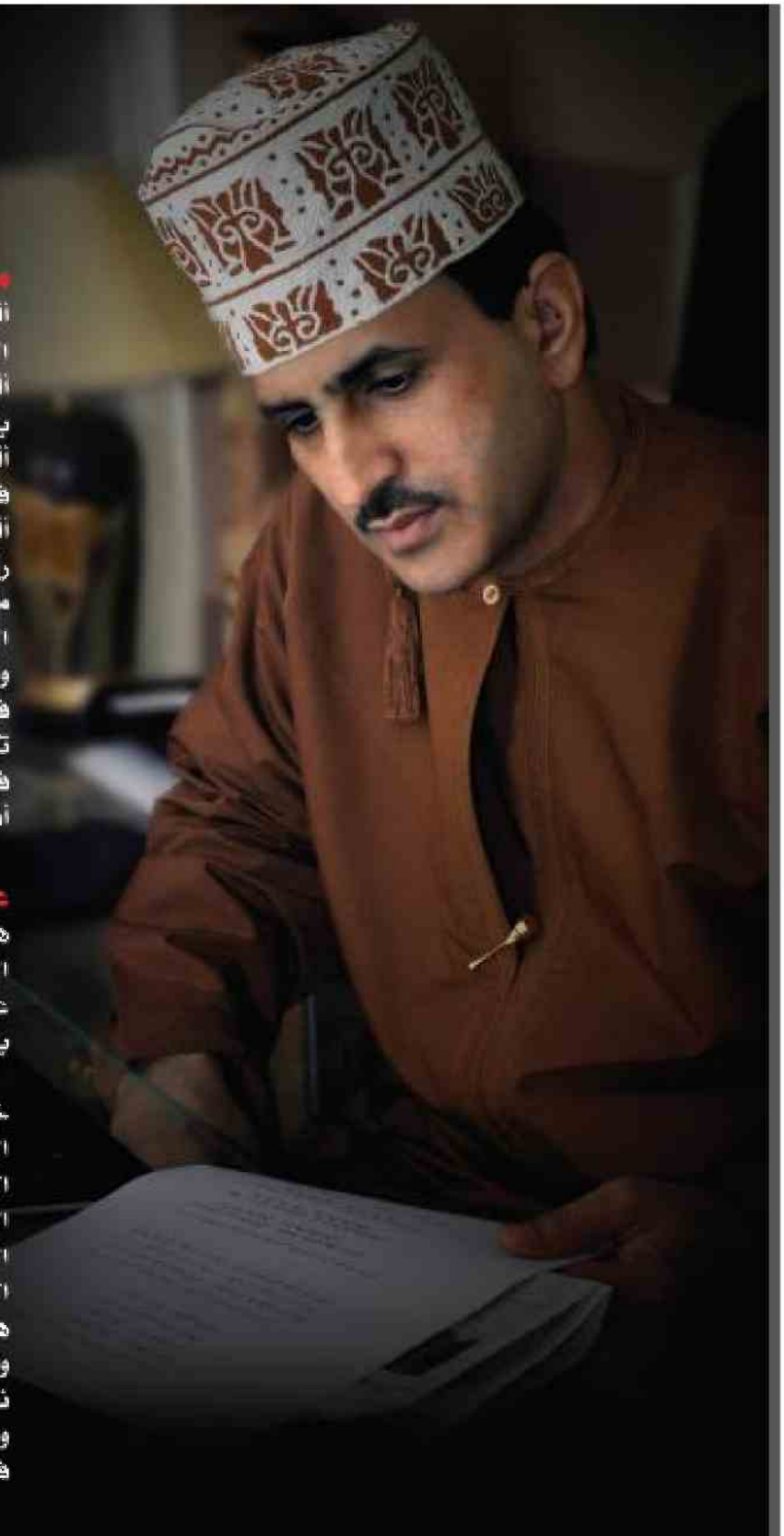

ماذا أنتظر ؟!

أأنتظر الفرص السوانح حتى تهب علي مع الريح فاستثمرها..!
أأنتظر طارقا يطرق علي باب بيتي ليأتيني بثروة لم أحلم بها..!
أأنتظر من يدلني على الطريق الذي أحقق فيه طموحي، وانجز فيه أهدافي..!
أأنتظر حتى يحدث لي حادث فتبدر مني ردة فعل إزاءه..!
ماذ أنتظر؟!
الوقت يمضي سريعا، والعمر ينقض معه..!
وأنا قعد لا أتحرك وكأنني المسلول فكرا وجوارحا..!
تتخايل أمامي أطياف الأحلام التي أبدو فيها وقد بلغت ما أمله من سعادة فماذا أنتظر؟!

عزيزي القارئ المبادر ...

هذه التساؤلات أردتها قبل قراءتك لهذا الكتاب أن تستثير نفسك، وتستجيش عزائمك، وتحفز قواك حتى لا ترضى بالخمول جليسا، ولا بالكسل أنيسا.

خواطر صادقة عميقة الأثر حول المبادرة، والمبادرة في نظري هي السر الأثمن في الحياة، ولولا المبادرين في هذه الحياة لخلت كل طعم، ولم تتقدم أساليب العيش، ولم ترتق أنماط السلوك.. وظل الانسان يعيش في الكهوف..! المبادرون هم الذين دفعوا البشرية نحو التقدم، والأوطان نحو النماء والازدهار، والمجتمعات نحو مزيد من التفاعل والإبداع والإبتكار، وهم الذين وصولوا إلى منابع السعادة.. فكن أحدهم..

كن مبادرا

Activate Wi
Go to Settings